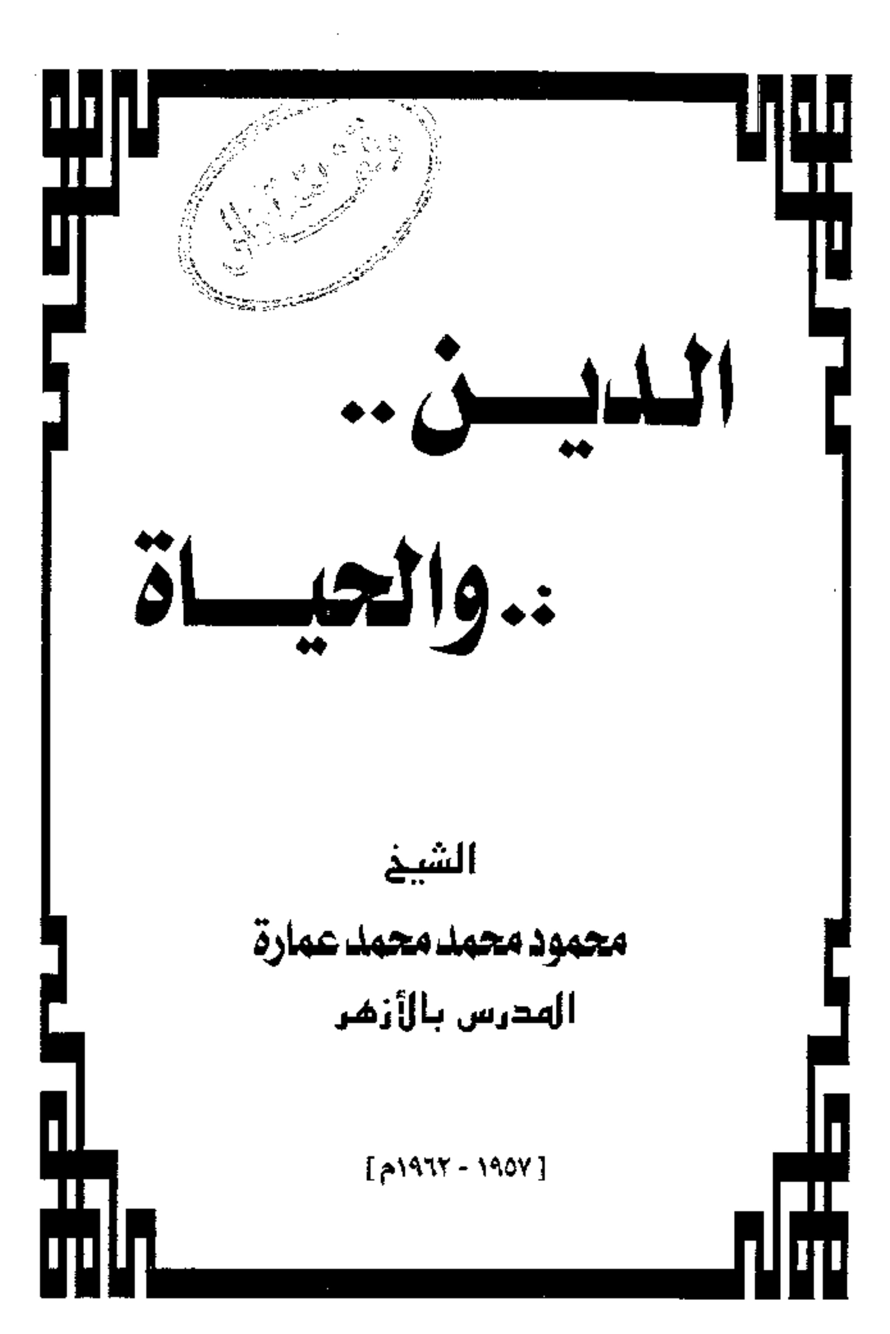
الدين والحياة

الشيخ
محمود محمد محمد عمارة
المدرس بالأزهر
(١٩٥٧ - ١٩٦٢م)

الطبعة الأولى
١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م



الديـــن..
..والحيـــاة

الشيخ
محمود محمد محمد عمارة
المدرس بالأزهر

[١٩٥٧ - ١٩٦٢م]

فهرس الموضوعات

تمهيد :

في مستهل حياته.. عمل «الأديب مصطفى صادق الرافعي» كاتبا بمحكمة طنطا. ويبدو أن رئيسه لم ينسجم معه.. فكتب إلى الوزارة يشكوه بأنه غير ملتزم بمواعيد الحضور والإنصراف.

وكان من حسن حظ "الرافعي" أن كان المحقق الموفد من قبل الوزارة هو زميله الأديب "حفني ناصف" !

وبدا أن الرياح قد جاءت على غير مايشتهي السفن.. والسفن هنا هو رئيس الرافعي في العمل.

وبدأت إجراءات التحقيق.. بدفاع الرافعي عن نفسه قائلاً لصديقه "حفني ناصف".

(قل لهم في الوزارة :

إن كانت وظيفتي هنا للعمل .. فليؤاخذوني بالتقصير والخطأ فيما يسند إلى من عمل ؟

وإن كانت الوظيفة هي : تعال في الساعة الثامنة.. واجلس على الكرسي. كأنك مشدود اليه بحبل.. حتى موعد الانصراف فلا عليّ إذا تمردت على هذا القيد !!

قل لهم في الوزارة :

أنتم لاتملكون من الرافعي إلا هاتين الأصبعين بساعات من النهار !

ولم يكن "حفني ناصف" مفتشا يستمع.. ولكنه كان معجبا" يستمتع..!! وكان طبيعيا أن يكون تقريره نضح نفس تعشق الأدب.. والأدباء.. هذا التقرير الذى رفعه إلى الوزارة وهو :

(إن الرافعى ليس من طبقة الموظفين الذين تعينهم الوزارة بهذه القيود!.

إن للرافعى حقا على الأمة.. أن يعيش فى أمن. ودعه. وحرية. إن فيه قناعة ورضا..

وما كان هذا مكانه ولاموضعه..

دعوه .. يعيش كما يشتهى أن يعيش..

واتركوه : يعمل . ويبدع لهذه الأمة فى آدابها ماشاء أن يبدع . وإلا فاكفلوا له العيش الرضى فى غير هذا المكان .. ذكرت هذا الموقف فتذكرت به جانباً من حياتى يمن أن يدور معه فى فلك واحد :

فقد تسلمت عملى مدرسا بمعهد أسيوط فى التاسع من أكتوبر عام ١٩٥٧م.

وقد كان هناك إلى جانب التدريس التزامات أخرى.. يجب على المدرس أن ينهض بها..

ولكن شيخ (١) المعهد أصدر توجيهاته السرية باستثناء "الشيخ عمارة" من هذه الأعباء.. ليتفرغ للدعوة.. وليجوس خلال قرى المحافظة خطيبا وواعظاً.

وكان لابد أن أكون عند حسن الظن.. فشمرت عن ذراع. وكشفت عن

(١) المرحوم الشيخ ثابت أبو المعالى .

ساق.. حتى كان عملى خارج أسوار المعهد بحراً واسعا واسعا.. وبلا شطآن !

لكننى أحسست فى نفس الوقت أن مهمتى الأساسية هى :التدريس.

ولما كان "جدولى" لايتعدى "فصلين" مجموع طلابهما :

مائة طالب .. من عدد طلاب المعهد الذى تجاوز ألف طالب ؟

وإذن "فحضورى" بين الطلاب ضعيف .. ولابد من "تكثيف" هذا "الحضور" باستثمار الحصص الإضافية !

وعلى رغم أن بعض الزملاء كان لايهش لإستدعائه لينوب عن زميله الغائب.. فقد كنت أسعد بهذا الاستدعاء لأنه يعنى توسيع رقعة الأصدقاء..

ولقد أحسست بآثار هذه اللقاءات الإضافية .. للأسباب الآتية :

١- فالطلاب يسمعون.. ومن شيخ جديد .. يسمعون أفكاراً لن يمتحنوا فيها ..

٢- ثم هى متنوعة .. متحررة من "قيد" مقرر معلوم..

٣- ثم ان الشيخ "تحت الثلاثين" فالمسافة بينهم وبينه قصيرة مما يسمح فى الحصة الإضافية.. بما لايسمح به فى الحصة الأصلية.. لاسيما إذا كان الغائب .. شيبة شابت فى الإسلام !!

٤- كان هناك من الطلاب من قرأ لى فى الصحف قبل أن يرانى.. فكان من

متعته أن يقارن مايرى.. بما يسمع..

٥- تخلق عند الطلاب يقين جازم بأن "الحصة الإضافية" [1] التى كانت للتسلية.. يمكن أن تكون فرصة للتزود بعلم ليس له وجود فى الكتب المقررة !

لهذه الأسباب وغيرها كانت .. الحصة الإضافية .. فرصة ذهبية .. لا للطلاب وحدهم .. وإنما للمدرس أيضاً.. والذى كان سعيداً بهذا الود المتبادل.. والذى أسعدنى بمجموعة من الأصدقاء .. صار بعضهم اليوم أساتذة فى الجامعات.. وصارت هذه الذكرى العزيزة محفورة فى قلوبنا.. نتذاكرها كلما جدّ لقاء.

لكن الشئ المهم هو :

أننى كنت أقوم "بتحضير" الدرس المقرر فى دقائق.. أما درس "الحصة الإضافية" فكان معدّاً .. بعناية :

أ - تعليق على موقف

ب- شرح لآية كريمة . أو حديث شريف.

جـ- تلخيص لكتاب قرأته ..

د - بالإضافة إلى الإجابة عن سؤال لم يكن يخطر على بال.

وقد كنت أكتفى بهذا.. ولا أهتم بعد ذلك بشئ..

---

(١) كانت الحصص الإضافية جزءا من الخطة اليومية للمدرس، والتى يشغلها نيابة عن المدرس المعتذر عن الحضور.

إلى أن لفت أنتباهى بعض الزملاء بضرورة تسجيل هذه الخواطر.. فقد يأتى ذلك اليوم الذى يضمها بين دفتيه كتاب..

وفعلاً .. بدأت ألخص ماكنت أقوله..

وحتى إذا كان من جملة ماقرأته.. فكنت ألخصه أيضا تلخيصا ربما أضاف جديداً مفيدا.. أو وضح غامضا.. أو نظم مشوشاً..

وكنت أحاول إقناع نفسى بما يلى :

أولا : لقد نشطت اليابان "ولخصت بعض المخترعات الأمريكية.. ثم زاحمت "أمريكا" فباعتها بثمن بخس دراهم معدودة.. فقدمت بذلك خدمة جليلة للمستهلك الذى وفرت له : وقته .. وطاقته.. وماله !

ثانياً : إن "السبع" عندما يأكل الشاة.. فإنها لاتخرج من صلبه شاة كما كانت .. وإنما تخرج شبلا !!

وقد أقنعنى بعض الزملاء بضرورة أن تنشر هذه الكلمات .. وقلت :

إنها إذن متعة عمل الخير :

نفعله سرا .. ثم تراه وقد ظهر مصادفة !!

وبدأت التجربة بإرسال "الباكورة" إلى مجلة "الإسلام والتصوف" وأذكر أننى بعد ماعدت من مكتب البريد " بأسيوط..

تصفحت العدد الجديد من المجلة.. فراعنى من كتابها :

عباس العقاد .. وعبد الحليم محمود !

وأحسست بالخجل .. لأننى تسرعت .. وقبل أنضج فى محاولة "لحشر" نفسى بين هذه القمم..

وقالت نفسى :

إن المائدة الحافلة بأطايب الطعام.. تظل فى حاجة إلى حبة من الفاكهة.. ترويحا عن النفس.. وقد تكون أنت هذه الفاكهة ؟!

وكانت المفاجأة الكبرى أن تنشر المجلة أول مقال لى ..

وأن يدرج اسمى على مرآتها مع هؤلاء العمالقة !

ثم أتسلم فى نفس الوقت خطابا من أحد كبار مشايخ الطرق الصوفية يدعونى لزيارته ؟!!

فلما ذهبت اليه طلب منى أن أكون أحد مستشاريه فقلت له :

أنا لا أطيق القيد !!

أنا أحب الصالحين.. ولست منهم.

وقد شجعنى كل ذلك على أن أواصل الكتابة فى "الاسلام والتصوف" إلى أن انتدبت مدرسا بالجامعة الإسلامية فى ليبيا.. وكانت هذه الأفكار بعض ماكنت أقدمه للناس هناك..

ثم شاء الله تعالى أن تتحقق نبوءة من توقع أن تكون بين دفتى كتاب.. هو هذا الكتاب الذى بين يديك بلا تعديل أو تبديل.. راجيا من القارئ الكريم أن يتجاوز عما فيها من قصور.. وألا يحاسبنى بمقياس هذا العصر.. وأن

يوازن بين عملين تفصلهما مسافة نصف قرن من الزمان.. ليكتشف الفرق الواضح :

بين صورة الأمس .. والصورة "المنقحة اليوم ؟!

وكيف كانت "الحصة الإضافية" أخصب الحصص على الإطلاق ..

ثم لتدرك الفرق "الأوضح" بين :

طالب اليوم.. وطالب الأمس

وبين مدرس اليوم.. ومدرس الأمس

وإلى أى حد كان طالب الأمس محظوظاً من ناحيتين :

فالمقررات الأصلية خليقة أن تنشئ فيه ملكة البحث [1] ..

والثقافة العامة سلاحه في مواجهة حياته..

ولاننسى حاجة المؤسسات التعليمية اليوم الى :

حسن الإدارة ..

والتى تجعل من رئيس العمل رب أسرة.. لارئيس إدارة.. وقد لايكون لهذا الرئيس مؤلفات.. ولعله لم يقف أبداً خطيبا.

ولكنه أنشأ جيلا من المؤلفين .. والواعظين.. ولولاه.. لم يكونوا من

(١) كان الطالب يدرس فى النحو مثلا- فى مرحلة الإبتدائى (الاعدادى) قطر الندى- كله فى السنة الثالثة "وشذور الذهب" فى الرابعة (وهو يدرس الآن فى الجامعة..!

بعده ذكرا حسنا لمن وعى..

أمـا بعـــد

فأنا على يقين أن هناك ناقدين .. مقتدين ..

ومرحبا بهم.. فنحن ممن لايتحاشى سهام النقد..

ذلك بأن الذى يخاف سهام النقد.. لايقول شيئا.. ولايفعل شيئا.

بل إنه لن يكون شيئا.. وقصارانا ان يكون شغلنا :

اللهم : أجعل افكارنا خالصة لوجهك الكريم :

دائرة فى الرءوس .. أو مسطورة فى الطروس !

محمود محمد محمد عمارة

الإنسان

بين غريزة ناشز.. وعقل عاجز

عندما يرسل الانسان فكره عبر هذه الحياة بما فيها ومن فيها.. ليقرأ صفحة الكون المبسوطة هذه.. ويتملاها يقظان واعيا.. سيعود الفكر الطليق حتما وعلى جناحيه حقيقة..

حقيقة يؤمن بها العقل والقلب معاً.. هي:

أن كل شئ في هذه الحياة لم يخلق عبثا.. وإنما خلق.. وقدر له أن يحيا.. تحقيقا لغاية يستهدفها.. ويسعى إليها..

والخصائص التي تمكنه من تحقيق غايته مركوزة في طبعه.. مغروسة في جبلته ..:

الذرة التائهة في جوز الفضاء.. الطائر الخفاق في مسرى الهواء.. السحاب المسخر بين السماء والأرض..

الحوت يضرب في أعماق المحيط.. الوحش يهيم في أعماء الصحارى.. البذرة السحوق في النخلة الفرعاء..

الريح تئن : كأنها ضراعات التائبين تصّعد في السماء..

كل ذلك .. يسعى نحو هدف واحد.. يصوره القرآن الكريم وهو : تنزيه الخالق عز وجل .. يقول تعالى

"وإن من شئ إلا يسبح بحمده.. ولكن لاتفقهون تسبيحهم"

(وما من دابة في الأرض.. ولاطائر يطير بجناحيه.. إلا أمم أمثالكم)

وهنا نذكر دور الانسان كحلقة بارزة في سلسلة الموجودات.. كخليفة لله في أرضه :-

إنه بدوره يسعى نحو هذه الغاية.. بيد انه مدرك لها.. شاعر بها:

(وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون.. ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون)

وهذا هو ذا أبو الدرداء رضي الله عنه يملأ بؤرة الشعور.. فيهتف بالإنسان قائلا :

ليس الخير أن يكثر مالك وولدك.. ولكن الخير كلّ الخير :

أن يكثر علمك.. وأن يعظم حلمك.. وأن تبارى الناس في عبادة الله.. فإن أحسنت حمدت الله على ذلك.. وإن أسأت .. تبت ورجعت إليه".

رسالة المؤمن إذن أن يعبر الحياة بعزم ثابت.. كعزم المرسلين فيعطى الحياة.. ويأخذ منها.. يعطيها أحسن ماعنده.. ثم يأخذ أحسن مافيها..

ومن خلال نعيمها .. يرى قدرة الله .. وحكمته .. وعلمه فقدماه على الأرض.. ينقل على دروبها خطاه.. ورأسه هناك.. عبر السموات العلى.. تتلقى فكرة الرأس.. وخطرة القلب.. وهاجس الضمير !

ولكن .. بأى شئ يصل الأنسان إلى غايته تلك.. وماهو معراجه الذى يتخطى درجاته ليصل إليها ؟؟

أهو الغرائز وحدها ؟ أم العقل كقائد رشيد لهذه الغرائز ؟

إن الغرائز وحدها.. لاتستطيع أن تحلق بالإنسان فى آفاق الكمال.. فهى عمياء : لاتبصر إلا مصلحتها.. صماء : لاتسمع إلا صوت لذتها .. حصرة على تحقيق رغبتها !!

ولكل غريزة نطاقها الخاص بها.. ومطالبها المعينة.. التى تسعى لتحقيقها.. دون نظر الى أن هناك زميلاتٍ لها.. تتطلع هى الأخرى نحو إشباع رغبتها !

ولوترك الحبل على الغارب لهذه الغرائز الجامحة .. لانطلقت كل غريزة فى سبيل .. وبذلك تنحل شخصية الأنسان.. وتتوزع أرض نفسه الى مناطق نفوذ.. تعمل كل منطقة على احتلال الاخرى !

وتتلاقى الأسنة.. وتتقارع الرماح.. وتفرز الغرائز "بترول" رغباتها.. وإذا بنار الفتنة تشتعل فى كيان الانسان وستنتهى هذه الحرب حتما من قريب أو بعيد.. ولكن بهزيمة الانسان نفسه !!

من أجل ذلك.. وفرارا من هذه الحرب الضروس.. أنعم الله تعالى علينا بالعقل.. لينسق عمل الغرائز.. ويوائم بين مطالب ميول الأنسان.. بحيث تُشبع رغباتها على نطاق مقبول ومعقول.. حتى لاتضل فى غيابات الجهل فتردى..

وأعجبنى تشبيه الأنسان بعربة تمضى فى سبيل :

نفس العربة هى قوته الشهوية وقوته الغضبية.. والفرس الذى يجرها..

هو العقل .. الذى يرتادلها أسهل الطرق.. وينطلق بها في حدود قوانين المجتمع.. وتقاليده التى يمثلها سائق العربة البصير !!

غير أن العقل وإن كان بهذه المثابة.. من بعد النظر .. وصدق الفكرة.. إلا أنه لايستطيع أن يسير وحده بالسفينة إلى الشاطئ السعيد !

ذلك بأنه كثيرا مايصطبغ بلون احدى الغرائز.. فيمضى معها بالأنسان الى "قمة الهاوية "!

وبدلا من أن يصبح العقل منارة ترشد إلى سواء الصراط.. نجده وقد غدا آلة تبرز خطأ الانسان.. وتفسر خطاياه تفسيراً لايساوى منطق الفطرة.. رقد يصدم بما فى دنيا الناس من قواعد وأصول.. وينطوى الانسان – على حين غفلة منه – فى زمرة "الأخسرين أعمالا.. الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا.. وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا".

وبالأمس القريب رأينا الغريزة الجنسية تدفع الأبن الى أن يشد وثاق أبيه.. ثم يرمى به فوق أثباج الماء.. لأنه منعه من الزواج من ابنة الجيران !

وهى نفسها التى دفعت الأم العاشقة إلى قتل وحيدها.. بناء على طلب العاشق ؟!

والعقل فى جميع ذلك عاجز عن ضبطها.. وتقليم أظافرها.. إن لم يكن يبرر أعمالها فى كثير من الأحيان.

الآن ..

وبعد أن عجزت الغرائز عن السير بالإنسان نحو آفاق الكمال ..

وحيث فشل العقل ايضاً فى قيادة السفينة الى بر الأمان..

نرى أن جميع الملابسات تهتف بنا :

لابد من تدخل قوة عليا.. لأنقاذ الأنسان.. وتثبيت أقدامه.. حتى لايضيع هباء.. بين غريزة ناشز.. وعقل عاجز.. !!

وهذا هو الذى حدث بالفعل..

فأرسل الله تعالى للبشر الحائرين رسلا مبشرين ومنذرين .. ليقوم الناس بالقسط.

ويبعث الرسول وفى قلبه عقيدة يصبها فى قلوب الناس صبا.. فإذا زورق البشرية يتهادى فوق الأمواج خفاق الشراع..

أهمية العقيدة

وأنت - ياقارئى العزيز - تستطيع أن تتصور إنسانا بلا قدم .. بلايد .. بلا عين.. ولكنك أبدا لاتتخيله بدون عقيده !!

فالعقيدة - أية عقيدة - إكسير الحياة .. وبدونها لاينتظم عقد مجتمع.. ولايستقيم أمر أمة تنشد لنفسها البقاء..

لأن العقيدة تربط أفكارك.. وميولك.. كلها.. فى اتجاه واحد .. ويمذهب معين.. فى السياسة.. فى الأدب.. فى الفن.. وقد تصلك بزعيم عظيم فى عينيك.. وملك عليك حياتك.. فإذا حياتك نشاط مستمر .. وحركة دائبة..

فهى توقظ فيك مشاعر الكفاح.. وتربى عندك ملكة المراقبة وتبتعد بك عن سفساف الأمور.. لتعيش فى عالم أنقى وأرقى..

- يقول المنفلوطى رحمه الله :

"إن هذه الحياة الحافلة بصنوف الشقاء وأنواع الألام.. والتى لايفيق المرء فيها من غمرة إلا إلى غمرة .. ولايئل من عثرة إلا إلى عثرة.. لايعين عليها إلا عقيدة راسخة يلوذ بها الحائر كلما عثرت خطواته.. وتداركت عثراته..

ويتروح من أعطافها رائحة الجنة.. كلما ضاق ذرعه باحتمال جحيم العذاب".

وإذا كانت العقائد السالفة.. والتى تتعلق بمظاهر الحياة تربطك بنواح محددة ومعينة..

فإن العقيدة الدينية تربطك بالوجود كله.. فى ماضيه.. وحاضره ومستقبله.. لأنها تربطك برب هذا الوجود سبحانه وتعالى .. وإذا بك فى ظلها خلية فى الجسم الكبير.. فتعمل عملك للأنسان حسبما كان.. سواء ولد.. أو لم تتفتح له أبواب الحياة بعد..

اقرأ إن شئت قوله تعالى :

"من أجل ذلك كتبنا عل بنى إسرائيل أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض.. فكأنما قتل الناس جميعا.. ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً".

فالقاتل لم يرق دم فرد واحد.. ولكنه اعتدى على معنى الحياة فيه.. ذلك المعنى الذى ينتظم البشر جميعا.. وحوله تتجمع الخيوط من كل جنس ولون .

وهذا أحد مقاييس الدين :

فكلما كان الدين عاما.. تنتظم بشارته ونذارته أكبر مجموعة من الناس.. كلما كان أرقى الأديان وأحراها بلاتباع.. والديانات التى كانت تتنزل على الرسل صلوات الله عليهم.. كانت تجئ أولا تلبية لفطرة الانسان.. الذى تركزت فيه النزعة الدينية.. والإيمان بالغيب..

وثانياً : نزلت متساوقة متناسبة مع عمر الانسانية وتلبية لحاجاتها..

وكما يولد الانسان طفلا .. ثم يمضى فى مراحل النمو : يافعا فشابا.. ثم يسوى بعد ذلك رجلا..

وكما أن لكل مرحلة من مراحل نموه منهجها الخاص بها الصالح لها والذى يناسب مقدرة الأنسان العقلية..

جاءت الديانات :

لقد تفتحت عين الخليقة على الكون طفلة تحبو.. ثم مضت فى طريقها المرسوم تمتد طولا وعرضا..

والرسالات الهابطة عليها من السماء.. كانت تساوق طاقاتها.. وحاجاتها.. ومشكلاتها..

وبعد أن بلغت رشدها.. فنضج عقلها وكمل استعدادها جاءتها الرسالة الكاملة الشاملة.. جاءها دين عالمى .. على يد زعيم عالمى..

جاءها دين قويم.. لايجعل من الأنسان مواطنا عالميا فحسب.. بل يخلق منه مواطنا تاريخيا..

يأخذ من ماضيه .. ليصب فى حاضره.. ومن الماضى والحاضر يبنى مستقبله الواعد الماجد..

جاءها الاسلام..

على يد رسول السلام .. محمد صلى الله عليه وسلم.

وأطل التاريخ من شرفته العالية.. يرمق بعين البصير هذا النبى الجديد.. وهو يحاول أن يبعث أمة من رقادها.. بسلاح هو دين الاسلام..

فمن هو النبى ؟ ومن هى تلك الأمة .. وماهى طبيعة الدين.. الذى يصوغ به أمته على طراز فريد ؟؟

أما النبى : فهو محمد عليه صلاة الله وسلامه..

وهو فى قائمة العظماء ليس عظيما فقط.. بيد أنه أكبر من عظيم!! فالعظماء فى كل أمة هم أوسع الناس افقا.. وأكثرهم إدراكا لعواقب الأمور..

ومنهم من يكون عالمى النزعة. تربطه بالبشرية كلها روابط وثيقة.. فيعمل عمله قاصداً أن يجنى ثماره أى إنسان فى شرق الأرض أو غربها..

فلا يتقيد بمذهب معين.. ولايخضع لسلطان عاطفة.. بل يعيش دائما فوق مستوى رغباته وأهوائه..

شعاره دائما :

"اعمل بحيث يكون عملك للإنسانية فى شخصك كأنه غاية"

ولقد كان محمد عليه الصلاة والسلام على رأس هؤلاء العظماء جميعاً.. فقد ربطه بالوجود.. ورب الوجود عواطف نبيله.. ووسع قلبُه الكبير كل مافى الحياة.. من نبات.. وجماد.. وحيوان! وآية رسالته.. ودليل عظمته :

أنه وقف وحده .. بين المشركين القساه.. ونادى بوحدة البشرية كلها تحت لواء واحد.. هو لواء التوحيد !

وهذا النداء منه.. دليل الأدلة.. على أنه يردد صوت السماء ويستمد من معين الحكمة الألهية أقواله وأفعاله..

ومن المستحيل أن يكون هذا النور الغامر.. قد انبعث من مصباح صغير !!

إن محمدا عليه السلام استطاع أن يجمع أخلاط البشر تحت سقف واحد.. ألا يدل ذلك على أنه أكبر من عظيم؟؟

"لقد كان بشرا فقط بالقدر الذى يسمح له بتبليغ رسالته للناس كما قيل"..

تتصل أرومته بالأرض.. وتسمو روحه إلى الملأ الأعلى..

نعم أيده ربه بمعجزات.. تخضد شوكة المعاندين.. ولكن معجزة محمد اللاقفة هي : نفس محمد :

رجل أعرض عن كل متع الحياة.. فعاش فوق هذه الحياة ! وقد صدق الفيلسوف الانجليزى "كارلايل" إذ يقول :

"أرأيت إن ادعى لك رجل بأنه بناء.. أكنت تطلب اليه دليلا على صدقه أكثر من أن يبنى لك شيئا يوجب عليك التسليم له بهذا الوصف ؟

فما ظنك لو شيد لك بناء يسع مائتى مليون من النسمات ؟! ويبقى مابناه سليما من العطب قرونا طويلة ؟!!

فهذا محمد :

قد أعلن الناس أنه نبى .. وأتى لهم بدين دخل فيه نحو مائتى مليون منهم.. وبقى إلى عهدنا هذا قوى الدعائم.. ركين الأركان وأهله أشد تمسكا بحباله من أهل أى دين كان لدينهم ؟؟

والفضل ماشهدت به الأعداء !!

ومن هنا نستطيع أن نقول :

إن احتفالنا "بميلاد " محمد فى كل عام .. على عكس احتفالنا "بوفاة" زعمائنا وكبرائنا..

هذا الاحتفال دليل على أن الرسول الكريم .. لم يمت ولن يموت..

فلم يكن عظما.. ودما.. ولحما..

ولكنه مبادئ.. وأخلاق..

والأجسام تفنى.. وتغيب في واحة العدم.. وتبقى المبادئ ذكرا للأنسان ثانيا..

من أجل ذلك.. سيظل دائما حيا في ضمائرنا.. باقيا في أخلادنا.. في الليل إذا سجى.. والنهار إذا تجلى..

وإذا مات كما يموت البشر فستبقى مبادئه العليا قبسا وهاجا.. يضيئ للحيارى معالم الطريق.

ونستطيع بكلمات قصار أن نرسم الخطوات التى تبرز ملامح تلك الأمة حينئذ وتوضح سماتها.. وتشهد بأن الظروف تحتم مبعث منقذ حازم ليقود السفينة.. كما قالت حوادث الكون.. وكما قرر المصلحون :

لابد من رسول يحمى السلام الجريح على ظهر هذه الأرض..

أرأيت الى حبة القمح في صحراء جرداء.. لا زارع يغرسها فتنمو.. ولا ماء يرويها فتحيا ؟

كذلك كانت النفس العربية حينئذ !

وما أحوجها إلى شؤبوب من الرحمة ينصب انصبابا على تلك الحبة الضامرة.. لتنمو .. وتزهر.. تضرب جذورها في الأرض.. وفروعها هناك في السماء..

وما أحرى هذه الغرائز الضارية إلى شعلة نار.. تنقض على هذه

الأنفس الغافلة من سماء الحق.. حتى تخلصها من أوهام عبدوها من دون الله .. فتصلها بالسماء أسباب وأسباب .

لقد كان العربى فى الجاهلية يعيش فى حدود يومه الحاضر فقط.. فليس له ماض يستمد منه العبرة.. وليست له مثل عليا يحشد لها مواهبه وإمكاناته.. حتى إيفت مشاعره.. وعميت بصيرته..

وليس أدل على هذا العمى من أنهم – كانوا يعبدون أصناما لا أثر للجمال .. ولا للفن فيها..

"ولو كانت كأصنام اليونان : خلعت عليها الفتنة رداءها".. فبدت آية الفن الرفيع والذوق السليم.. أقول لو كانت كذلك .. لالتمسنا لهم بعض العذر فيما اقترفوا.. وقلنا.. ذوق سليم يعشق الجمال حينما كان كما قيل بحق غير أن ذوقهم ذوق مريض.. وياحسرة على العباد يوم يصابون فى اذواقهم بمرض أو آفة !!

إن الموقف يصبح أكبر خطراً.. وأفدح أثراً..

أرأيت الى الرجل وقد سرت فى بدنه رعشة الحمى ؟

إن مذاق الطعام يتغير فى فمه.. فلا الماء ماء.. ولا الغذاء غذاء.. بل إن الأنغام العذبة تتحول فى أذنيه نشازا تنقبض له النفس. ويضيق به الصدر..

حتى الصور التى تتراءى له تهتز هى الأخرى اهتزازا.. بحيث لاتنقل إلى نفسه بهجة ولا أنسا.

وكذلك كانوا قبيل بعثة الرسول عليه السلام :

لقد أصابتهم حمى التدهور السياسى والإجتماعى .. ففسد فيهم الذوق.. وتعطل منهم الإدارك.. وتبعا لذلك أختلت فى أذاهانهم موازين القيم الخلقية.. وتغيرت فى أنظارهم مفاهيمها :

فأصبح التهور شجاعة.. والنفاق "شطارة" ..

وجنود الباطل ثلاثة :

رجل ضعيف .. ورجل شرير .. ورجل منافق..

ومن هؤلاء الثلاثة تتكون قوة الباطل التى يعتمد عليها.. ويجمعهم قاسم مشترك: هو إيذاء الحق.. وتشويه سمعته.

حتى لاينتصر .. فتنتهى حياتهم.. ويذهب ملكهم !

فالرجل الضعيف : يجد فى ضعفه لذة الاستسلام .. وسكينة القرار.. ولذلك نراه يخشى انتصار الحق.. لأن للحق تبعات ومغارم.. ونفسيته المريضة.. أضعف من أن تطيق هذه التبعات !

والرجل الشرير : يؤله أن ينتصر الحق أيضاً..

لأن ماضيه الأسود .. وصحيفته الملطخة بالعار.. تهتفان به : قف فى طريق هذا الزخف حتى لاينتصر.. فيحاسبك على ماقدمت يداك من إثم !

والرجل المنافق لايحب أبداً أن يسود الحق ويقبض على الزمام.. لأن

الحق واحد لايتعدد.. فللمؤمن قلب واحد.. (ماجعل الله لرجل من قلبين فى جوفه..)

وللمؤمن لسان واحد.. واتجاه واحد..

بينما نجد المنافق له أكثر من قلب .. وأكثر من لسان.. وهو كالقشة الحائرة تتقاذفها الأمواج.. أو مقبض الباب : يديره من شاء فى أى وقت شاء !!

ولكن النتيجة الحتمية هى : انتصار الحق .. وغلبة جنده وإن طال المدى..

لأنه يعتمد على أساس مكين – وأصل ركين..

وإذن .. فهو الباقى أبداً :

"فأما الزبد فيذهب جفاء.. وأما ماينفع الناس فيمكث فى الأرض"

ورواده هم المفلحون :

"ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض .. ونجعلهم أئمة.. ونجعلهم الوارثين .. ونمكن لهم فى الأرض .. ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ماكانوا يحذرون".

وهنا نلتقى بسؤال يفرض نفسه فرضا :

إذا كان الله سبحانه قد أختار الجزيرة العربية بالذات ليبعث الى الناس رسولاً من انفسهم.. لأنهم أعرق الشعوب أصلا .. وأصفاهم

جوهراً .. وأقدرهم على فهم الدين الجديد .. ونشره فى فجاج الدنيا

إذا كان الأمر كذلك.. فما سر تلك المعارضة الطاغية..

وما توجيه هذا الموقف العدائى تجاه الرسول ودعوته مع أنهم كانوا يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ؟؟

ألم تكن هذه التربة الجديدة صالحة لاستنبات الزرع المثمر.. فكان محمد عليه الصلاة والسلام كمن يزرع الأذرة فى فصل الشتاء ؟؟

نقول أولاً :

إن القيم .. والأخلاق الكريمة.. كانت موجودة فعلاً بين أطواء النفس العربية..

بيد أنها كالجواهر المطمورة تحت كومة من السباخ !

فهى إذن فى حاجة إلى "صيرفى" ماهر يجيد البحث عنها..

ثم يصقلها.. ويحسن عرضها.. حتى ترتبط قلوب الناس بها.. فيقبلون عليها..

وهذا هو الذى حدث بالفعل !

فقد نجح الرسول فى البحث عنها.. ثم عرضها تحت شمس الأسلام الدافئة .. لتطهرها مما علق بها من خرافات التقاليد.. وأطماع الهوى - على نحو يتفق وكرامة الأنسان فى هذه الحياة.. كخليفة لله فى أرضه..

ونقول ثانيا :

إن هذه المعاضة .. لتجد تفسيرها النفسى فى مثل هذه الأبيات الحكيمة :

طهارة بعض الناس حرب عليهمو

وفضلهمو خصم لهم وغريم

وكأنما شرف الشريف إذا سما

جرم جناه على الوضيع الأصغر

إنى نشأت وحسادى نوو عدد

ياذا المعارج لاتنقص لهم عددا

إن يحسدونى على ماكان من خلقى

فمثل فعلى فيهم جر لى حسدا

وحقيقة موقف الرسول الكريم من أعدائه يصفها الشاعر إذ يقول :

وقد كنت فى تركك لى مثل تارك

طهورا وراض بعده بالتيمم

وذى علة يأتى عليلا ليشتفى

به.. وهو جار للمسيح بن مريم

وسر نجاح الرسول العظيم فى كفاحه يرجع أولا إلى طبيعة هذا الدين الجديد.. وثانيا إلى نفسيته العالية وقلبه الكبير :

وسمو هذه المبادئ يرشدنا اليه التطور التاريخى للأمة الاسلامية :

فالمسلمون يرتفعون ويحلقون فوق منازل النجوم ماداموا مستمسكين بحبلها.. مخلصين لها.. عاملين فى سبيلها..

وفى الوقت الذى يتخلصون فيه من هذه المبادئ .. ويتنكرون لها.. تراهم وقد خفت صوتهم.. وذهبت ريحهم.. وأصبحوا فى فم الاستعمار لقمة سائغة.

ذلك بأنهم تركوا سواء الصراط.. فتفرقت بهم السبل .. ولو أنهم عضوا عليها بالنواجذ لما استطاعت عصابة من اليهود أن تحتل أرضهم.. وتشرد أبناءهم !

إنها العقيدة الحية.. طريق السلام لمن اراد السلام..

وإكسير الحياة.. لمن ابتغى الحياة ..

ولم تزل كما يقول الأستاذ الزيات :

"فتحا فى الأرض للحرية والعمران.. وفتحا فى العقيدة للتوحيد والايمان.. وفى الشريعة للحق والعدل.. وفى السياسة للأخاء والمساواة.. وفى اللغة للبلاغة والأدب.. وفى العلم للتجديد والأحياء.. وفى الفن للابتكار والطرافة" وكفى هذه المبادئ شرفا أنها كونت أمة فريدة فى نظامها..

أمة : يرتبط أفرادها بعرى لاتنفصم من الأخلاق الفاضلة والأداب السامية.. لا بالأسباب المادية العارضة.. التى تقسم أهل الأرض شيعا

واحزابا..

ولذلك فهى لاتتقيد بالحدود الجغرافية التى اصطنعها الاستعمار بيننا .. ليسود فينا !

فالمسلمون أمة واحدة.. تربطهم وإن بعدت بينهم الشقة "لا إله إلا الله محمد رسول الله ".

أمة : اختفت من قاموسها الفوارق الاجتماعية.. التى جعلت من الناس صنفين :

صنف ارستقراطى له كل الحقوق .. وليس عليه واجبات.. وصنف آخر.. عليه كل الواجبات .. وليس له فى دستور المدنية الحديثة حقوق!!

صنف يكدح.. وآخر يحصد !!

ولقد كان لقلب الرسول .. وإرادته الجبارة كبير الأثر فى إحراز هذا النجاح..

فبقدر رسوخ الانسان فى فضيلة من الفضائل يكون نجاحه فى حمل الناس على اعتناقها :

فمحمد صلوات الله وسلامه عليه صادق.. قوى فى صدقه.. ولذلك نجح فى خلق جيل يحب الصدق.. ويجعله شرعة له فى الحياة ومنهاجا..

وكان راسخا فى مروءته.. فتخرج الصحابة من مدرسة أمناء أوفياء.. تربطهم بالمروءة مشاعر الولاء..

وهكذا .. على قدر قوة الرامي تكون يكون بلوغ السهم مراده.

وما أجمل قول أحد العلماء :

إذا كان موسى قد أحيا العصا.. فقد أحيا محمد موات القلوب..

وإذا كان عيسى قد أبرأ الأكمه.. فقد أبرأ محمد الأنسانية المعذبة من عللها.. وشفاها من أسقامها.. فسرت في بدنها الكليل عصارة الحياة.. ودبت فى أوصالها حرارة العافية".

ولكن .. بأى شئ أحيا الرسول موات القلوب.. وبأى دواء أبرأ عللها ؟!

إن الجواب على هذا السؤال يسلمنا الى المرحلة الثانية من حديثنا.. وهى تبيان مافي هذا الدين من روح تحيى الأنسان.. كما تحيا الأرض بالماء!! وكيف كان هذا الدين الحنيف متجاوبا مع الفطرة.. فأيقظها من سباتها .. ومشى بها عبر الحياة.. فأصبحت خلقا سويا.. ربانيا يقول للشئ كن : فيكون !



القـــرآن

يصوغ المجتمع المثالى

"وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه.. ولاتتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله.. ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون".

"اللهم إنى أسألك أن تجعل القرآن الكريم ربيع قلبى وضياء بصرى.. وذهاب حزنى ... وجلاء همى وغمى".

كلما استمعا إلى آيات من القرآن الكريم تتلى .. كلما تذكرت الرسالة الكبرى التى جاء القرآن المجيد ليحققها فى دنيا الناس.. تلك الرسالة الخالدة.. التى تستهدف بناء الأنسان ماديا وأدبياً.. وتذكرت الى أى حد استطاعت آياته أن تصوغ من الأمة العربية خير أمة أخرجت للناس..

وكيف استطاع القرآن بطريقته المثلى فى التعليم والتربية أن يخلق من الحفاة العراة أباطرة ملكوا ناصيته الحياة.. وفجروا نهر الحضارة خلالها تفجيرا..

وكيف فتح المسلمون الأولون قلوبهم جميعا.. فلم يكن فى أرض نفوسهم متسع لعوامل الأغراء والهوى.. لم يكن فيها موضع قدم لشهوة أو نزوة.. تحتلها فيختل ميزانها.. بل ظل الدين أبدا رافعا رأسه.. كديدبان يقظ.. يحرسها ويرعاها.. لقد كان القرآن الكريم من أجل هذا سمعهم.. وبصرهم.. عليه يجتمعون.. وعليه يتفرقون .. وفى سبيله يلقون الله حاملين أرواحهم على أكفهم.. كأنهم ذاهبون الى رحلة يستنشقون فيها عبير

الزهور..

ودار الزمان.. وخلف من بعدهم خلف يأخذون عرض هذا الأدنى.. ويقولون سيغفر لنا !!

وبعد أن كان للقلب باب واحد تنساب منه هدايات السماء.. إذا بالشيطان بسلاح الدنيا الخادعة يوجه اليه سمامه فيفتح له الباب.. وإذا به وقد أصبح فيه سبعة أبواب للشهوات.. لكل باب منها جزء مقسوم..

واستقرت الدنيا.. فوق ارض النفس .. واحتلت منها مساحات كبيرة.. ونقط ارتكاز تتسلل منها الى بقية مواهب الانسان وفضائله.. لتشل حركتها.. وتذهب قوتها..

وهناك فى ركن قصي.. انزوى الدين فى ركن قصى « .. فلم يعد له سلطان.. لم يعد يأمر وينهي.. ويوجه الأنسان إلى الكمال.

وبعد أن كان مطلق السلطان فى أرجاء النفس.. ويقف وراء كل حركة.. كل فكرة.. كل خلجة.. لم يعد له شأن .. ولم نعد نلجأ اليه إلا عند الوفاة.. أو لعمل حجاب لأنسان مريض !! إلا أن صيحات البعث الصاعدة من قلوب المصلحين وزعماء الاسلام.. لاتزال تجلجل.. وتهز القلوب هزا .. لتلفتها الى مافى القرآن من كنوز.. لو أحسن الناس استغلالها لسار بهم الزورق خفاق الشراع..

وفتح آذانها الغافية لتلتقط هذا النداء السارى عبر الحياة "قل أندعو من دون الله مالاينفعنا ولايضرنا.. ونردد على أعقابنا بعد إذ هدانا الله..

كالذى استهوته الشياطين فى الأرض حيران له أصحاب يدعونه إلى الهدى.. ائتنا.. قل إن هدى الله هو الهدى .. وأمرنا لنسلم لرب العالمين".

وقد نظن العمر نزهة قصيرة.. يستنشق الانسان فيها عبير الزهور.. ثم يسلم نفسه بعد ذلك لدفء الفراش ! لا .. إن طاقات الانسان لم تعط له سدى .. وإنما زود بها ليسخرها في خدمة الحياة.. والسير بها إلى أمام..

وطاقات الانسان محدودة.. فإذا لم تجند لخدمة الفضيلة لناوشتها الرذيلة حتماً.. "فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون"؟!

والإنسان عندما يبدأ ليمارس نشاطه مع الأحياء يجد نفسه أمام دائرتين :

دائرة تستقر فيها رغبات الجسد.. وشهوات النفس.. والثانية دائرة الروح بمطالبها ومثلها العليا..

فإذا هو أسلم نفسه لرغبات الجسد وحدها.. تدحرج معها إلى هوة بعيدة الغور.. عميقة القرار.. وعاش بين جدران ذاته.. بنفسه.. ولنفسه.. كالنرجسة المنحنية فوق صفحة الماء لاترى إلا نفسها.. فلا يحس بأحد .. ولا يحس به أحد ويعبر الحياة كالطيف .. لاح ساعة.. ثم أصبح بعد ذلك حفنة من تراب.

وإذا فرط الإنسان فى جنب الجسد .. فتنكر لرغباته وأمانيه.. أصبح فى المجتمع عضوا أشل.. وعطل فى نفسه جوارح لم يهبها الله له سدى.. وعاش بين الأحياء هيكلا خشبيا.. لايأخذ من الحياة ولايعطيها..

الوضع السليم إذن.. أن يتوسط الأنسان فيأخذ من كل اتجاه بطرف:

أن يعيش فى دائرة بين الأفراط والتفريط.. فلا يستجيب لكل ماترجوه نفسه.. وإلا كان أنانيا.. ولايفرط كل التفريط فى مطالب هذه النفس وإلا كان عالة على الحياة.

ومن هنا نجد القرآن الكريم يُمدّ للإنسان فوق هاتين الهويتين صراطا مستقيما.. حتى لاتزل قدمه.. ويختل ميزانه.. ويسعى مع الأحياء على قدم واحدة :

وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه.. ولاتتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله.. ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون".

وإذا كانوا يقولون إن الخط المستقيم هو أقصر مسافة بين نقطتين..

كذلك القرآن الكريم.. إنه أوضح طريق يوصل الانسان إلى الفوز فى الأولى والآخرة وأقصره أيضاً .

وهو حين يرسم له طريق الفوز.. ويخلصه من إسار الشهوات.. لايترك الأنسان وحده ينقل خطاه عبر طريق الحياة الطويل.. بل إنه معه فى كل خطوة يقطعها. يحميه من قطاع الطريق : من شهواته.. من وساوس شيطانه.. وبريق المذاهب الخداعة.. التى تناوشة .. وتتربص به.. ليقع فى إحدى الهوّتين.. فلا يحقق لنفسه وجودا.

وفى سورة الأحزاب آية كريمة تبدو كنموذج سليم نصحح فى ضوئه نماذجنا المغلوطة.. وتحدد معالم الطريق للفرد وللجماعة وترسم ملامح الصورة التى يصوغ القرآن عليها الأمة الإسلامية.. وسنعيش معها لحظات

مباركة .. لعلنا نجد فى رحابها مانصبوا اليه :

قال تعالى :

﴿ إن المسلمين والمسلمات . . والمؤمنين والمؤمنات . . القانتين والقانتات . . والصادقين والصادقات . . والصابرين والصابرات . . والخاشعين والخاشعات . . والمتصدقين والمتصدقات . . والصائمين والصائمات . . والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيرا والذاكرات : أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيماً ﴾ .

ففى الآية الكريمة مجموعة من الصفات تحدد شخصية المسلم.. وإذا ما تحلى بها.. واتخذها قاعدة له فى صلته بالناس ورب الناس.. نال الجزاء الأوفى الذى تشير اليه الآية : المغفرة والأجر العظيم.. فالمغفرة والأجر العظيم.. هى الكأس الآلهية.. يتسلمها الذين يقطعون هذه المفازة صامدين..

فأولى خصائص المسلم : الإسلام

وليس الأسلام كلمة تجرى على اللسان مع كل صلاة .. بحيث تتسم بها كشعار ظاهر .. ثم تعاديه باطنا ..

إنما هو معنى يشى بالأمان.. بالسلام.. بحيث تكون كل جارحة من جوارحك.. وكل نبض فى قلبك فى خدمة هذا المعنى.. فى علاقتك مع الناس..

« وفي النفس البشرية استعدادان متقابلان : السلبية والإيجابية وهما اتجاهان متعارضان .. ولكنهما موجودان جنباً إلى جنب فى هذا الكيان الانساني العجيب .. الذى خلقه الله على غير مثال .. وكثيراً مايؤتى البشر من سوء توجيههم في أحد هذين الاتجاهين .. أو فى كليهما :

فالدول الجماعية « الدكتاتورية » تضخم جانب السلبية تضمن السيطرة الكاملة على كل تصرف من تصرفات أفراد الشعب .. محافظة على سلطانها الديكتاتورى .

والدول الفردية « الديمقراطية » تبالغ فى تضخيم جانب الايجابية إلي درجة تبيح استغلال الفرد القوى لغيره من الناس استغلالاً ظالماً .. كما تبيح كثيراً مما يسمونه « الحريات » الشخصية إلى حد يثير الفوضى .

وهذا وذاك انحراف ينشأ من فساد المعايير .. ثم هو بدوره يساعد على فساد هذه المعايير .. ولقد نفذ الاسلام إلى هذين الخطين المتقابلين فصحح معيارهما بهمة فريدة .. تضع كل شئ فى نصابه الحق .. فتبدو الأمور طبيعية منطقية لاعوج فيها ولاانحراف .. لقد اعطى الانسان سلبية مطلقة بإزاء الله تعالى وإجابية بإزاء قوى الكون كلها .. فالله هو الخالق .وهو المتصرف .. وهو المدبر .. وهو الآخذ وهو المعطى .. وبيده كل شئ وهو على كل شئ قدير ..

ومن ثم فالتسليم المطلق لله هو الصواب .. ولاشئ سواه يمكن أن يكون صوابا ..

كله بجميع طاقاته وكنوزه وذخائره فهو يسخو للإنسان ميسر لمنافعه « وسخر لكم مافى السموات ومافى الأرض جميعاً منه » وواجب الانسان أن يحسن استثمار هذا التسخير ..

يدك : ينبغى أن تكون برداً وسلاماً .. تطعم المساكين .. وتأسو جراحات المعذبين .. بدل أن تكون سوط عذاب تدمى ظهور بنى جنسك !

وعقلك : ليكن زكاؤه .. فى خدمة السلام والحضارة ..بدل أن يكون آلة مرصودة لقد مير الشرية وخراب العالم ..

وقلبك : ليكن عشا رحيباً وجميلا تأوى اليه عواطف الخير ..

بهذا تكون مسلما .. وتكون متجاويا مع لسانك الذى نطق بهذه الكلمة الخالدة !

وقد يسعف الانسان الدهاء .. وقد تلجأ الأمة فى صخب الدعاية السياسية إلى أن توهم الناس بأن كل قواها وذكاءها ومصانعها إنما هى لخدمة السلام المحروب على ظهر الأرض ..

فى الوقت الذى تطعن فيه ذلك السلام .. تحت ستار من الكلمات الطنانة التى تسرى على الورق حبراً ..

ومن أجل ذلك لايقبل الدين من الفرد ومن الأمة أن يكون فقط مجرد دعاية لادعوة .. وسياسة لارسالة .. وإنما يحتاج الإنسان إلى الايمان .. يقف وراء هذه المظاهر يزكيها وينميها .. ويسخرها لخدمة الحياة .

إن الإيمان إذن عنصر فعال في كيان الانسان .. بل هو عنصر العناصر وسبب الأسباب فى نجاح كل نهضة .. وفكرة .. إن المسلمين والمسلمات .. والمؤمنين والمؤمنات .. والقانتين والقانتات .

والقنوت : العمل الصالح .. وهى يمثل بالنسبة للايمان فروع الشجرة .. وثمراتها ..

وإذا كان الايمان هو الجذع .. هو الأصل .. فإن هذا الجذع لولم ينبثق عنه الفروع .. وتورق الأغصان .. سوف يتعرض لعوامل التعرية .. وسوف تمتد إليه يد كل عابر سبيل .. وعلى مر الأيام سيتآكل .. ويصبح أثرا بعد أن كان عيناً !

الايمان أيها السادة .. والعلم المنبثق عن هذا الايمان .. وناهيكم بالمكاسب الكبيرة التى تنتظر على يد كل فرد فى الأمة إذا كان مؤمناً .. عاملاً بدافع من هذا اليقين :

لن يكون نفعياً .. لأنه يعمل بدافع من إيمانه لايبتغى عند الناس جزاء ولاشكورا .. إن كان صانعاً أجاد صنعته .. وإن كان فناناً نسق لوحته .. وإن كان مدرساً أخلص فى درسه .. لأنه حين يجيد .. وينسق ويخلص .. إنما يستجيب لطبيعته .. ويحقق نداء فطرته .. ولايدخل فى حسابه تقدير الجماهير التى لاتعلم إلا ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون .

إن العقيدة فوق الحاجة تصف الانسان الضعيف بالثقة .. والفقير

بالتعفف .. والغنى بالتصدق .. والطماع بالأمساك .. والمتهور بالصبر .. ..

لن يكون جباناً .. لأنه يعيش فى ظلال مبدأ يستهلم القوة والعزم إن عاش .. عاش سعيداً .. وإن مات مات شهيداً .. ولن يكون يائساً ضائقاً بالحياة .. إذا ماتصدر المنافقون الركب .. ووجد نفسه فى مؤخرة الصفوف .. لأنه يستمد من ذات عمله لذة هى عزاؤه فإن نال بعمله جزاء فى الدنيا فبها .. وإن تنكر له الزمان .. ولم يجد لجميله من يعترف به .. وهتفت به نفسه :

تقدمتنى أناس كان خطوهم وراء خطوى لو أمشى على مهل

إن حدث ذلك .. صبر وكابر الأحداث .. وأمل الجزاء الأوفى .. يوم لاينفع مال ولابنون إلا من أتى الله بقلب سليم « وإن الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون » .

وإلى هنا وضح التخطيط العام لشخصية الانسان .. وأصبح خلية حية نامية .. فى الجسم الكبير ..

فقد أسلم .. انقاد بجوارحه وأذعن للذى خلق السموات والأرض حنيفاً .. ثم تحول هذه الاذعان إلى عقيدة رسخت فى حنايا قلبه .. وبعد ذلك اهتزت جوارحه بالخير .. وترجح هذه العقيدة بالفرائض التى فرضت عليه .

إلا أن المؤمن ليس رجلاً سلبياً .. ينزوى هناك فى ركن قص .. يترك مشكلات مجتمعة ليحلها غيره من كبار النفوس ..

لا .. إنه مخلوق إيجابى .. لابد أن يقف في مهب الرياح ليأخذ بنصيبه فى الكفاح .

وهو إذ قد عمل .. إلا أن عليه أن يتقدم خطوة أخرى .. لينتقل من مرحلة التعلم .. إلى مرحلة التعليم .. عليه أن ينير لغيره من الناس الطريق .. يعظهم ويرشدهم .. ليؤمنوا مثلما آمن .. ويعملوا مثلما عمل .

وهذا مايشير إليه قوله تعالى ﴿ والصادقين والصادقات ﴾ أى الذين يصدقون فى نصحهم لغيرهم .. ويبصرونهم بالوجهة الصالحة والمنهاج الراشد .. ليمضى الجميع معاً على الطريق .. مسوقين بدوافع واحدة .. إلى تحقيق هدف واحد هو :

خلق مجتمع مثالي .. للفرد فيه شخصيته المستقلة المتميزة .. وإمكاناته التى لايضن بها على مجتمعه .. وفى مقابل ذلك يحميه المجتمع .. ويحقق له رغباته .. ويعترف به كإنسان له وجود وله تفكير .. وليس هو مسمار فى آلة هى « الدولة » يسخر تسخيراً لخدمة الدولة .. هكذا مسلوب الارادة مشلول التفكير كما هو الشأن فى المذهب الماركسى الفاشل !!

يقول الدكتور محمد البهى [١]

« وغاية مايهدف إليه التوجيه الإسلامى .. هو الحد من سيطرة الانانية حتى يترك الفرد فى المكان الذى يعيش فيه مكملا لوجود غيره .. وبذا تسير كل وحدات المجتمع سيراً غير متنافر .. لاصطدام ولااحتكاك فيه.

---

(١) من مقال بمجلة الشبان المسلمين تحت عنوان : كرامة الفرد بين الشيوعية والاسلام .

وهنا ترى المجتمع الاسلامى يخلقه التوجيه الاسلامى .. فهو نتيجة للإيمان بالإسلام .. ولذا نرى المسلمين لايفنون فيما يسمى بالمجتمع .. ولايذوبون فيما يسمى بالدولة .. فضلاً عن أن يكونوا مخلوقين للدولة والمجتمع .. بل خالقهم هو الله .. ولذا كانوا أحراراً كرماء ..

والاسلام لايخالف مبدأ التطور .. بل هو يحث على تطور الانسان .. ونقله من حال الطفولة إلى حال الرشد الإنسانى يمثل القيم الانسانية فهو يدفع إلى الوصول إلى هذه القيم ..

أما الشيوعية فتضع الفرد فى الوجود وضعاً ثانوياً .. وتصهره فى المجتمع .. بعد أن يوجده المجتمع .. والمجتمع الذى يوجده هو المجتمع المادى الاقتصادي ..

فالانسان منفعل بالمادة ومرتبط بها أيما ارتباط .. ولذا فهو مسير من قبل مجتمعه .. وليست له حرية ولااختيار .. فما يسمى بالمجتمع فى النظام الشيوعي قد سلب منه حريته في التفكير .. كما سلب منه إيمان القلب بالله»

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر شعار بارز من شعارات الأمة الإسلامية .. وهو الأساس الذى من أجله فضلنا الله على كثير من خلقه تفضيلاً « كنتم خير أمة خرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » .

ولايمكن أن يكون الانسان مؤمناً بفكرة ما .. إذا مارضى لها أن تظل حبيسة عقله .. ولم ينقلها إلى غيره من الناس ..

والشئ إذا ماعرفته .. ثم آمنت به .. وعملت له ...يسعدك كثيراً أن يجد جماهير الناس تؤمن به وتسير على هداه .. فالأمر بالمعروف قبل أن يكون تكليفاً .. إنما هو ضرورة نفسية .. إنك لاتحس بالنشوة وأنت تستمع إلى لحن وحدك .. ولو كان هذا اللحن رائعاً ..

إنما تتم نشوتك.. وتصل إلى قمة سعادتك .. عندما تستمع إلى اللحن بين مجموعة من الأصدقاء متجانسة .. متفقة فى ميولها وطباعها ..

كذلك الانسان المسلم .. لايمكن أن تتم سعادته إذا ماوجد نفسه يعمل فى مجال الخير منفرداً .. وإنما يبلغ منتهى أمله عندما يرى الفضيلة التى آمن بها دينا يعشقه الناس .. وطبيعة ثانية تشكل سلوكهم فى الحياة ..

ويتبع ذلك أنه ينكر كل مخالفة لهذه الفضيلة .. ويرد كل اعتداء عليها .. فيتبع الأمر بالمعروف بالنهى عن المنكر .

فأنت إذا أحببت فلاناً من الناس .. لاتدخر وسعا فى تقديم قلبك إليه هدية متواضعة .. ولايتم تقديرك له .. إلا إذا دافعت عنه إذا اعتدى فرد عليه.. ولن تكون على صلة بالله طيبة إلا إذا دفعت الناس إلى الإيمان به .. وأنكرت عليهم اعتداءاتهم المتكررة على حرماته سبحانه .

إلا أن هذا الموقف منك .. لن يمر هكذا بسلام .. فالنفوس عصية على الخضوع .. ومن الصعب عليك أن تجد الناس جميعاً وقد انصتوا لك .. وآمنوا بقولك .. فإن لكل دعوة أبا جهل وأبا لهب .. وسيضعون فى طريقك الأشواك .. قد يرمونك بالأحجار .. ولن يرضيهم منك أن تأمرهم بترك

ماألفوا من عادات ألفوا عليها آباءهم .. لقد استحبوا العمى على الهدى .. واشتروا الحياة الدنيا بالآخرة ..

وهنا .. وللتخلص من مثل هذه الأزمات .. يأمرك الله بالصبر .. ﴿ والصابرين والصابرات ﴾ .

والصبر نصف الأيمان .. بل هو عموده الفقرى .. ولولا الصبر مانبت زرع .. ولاتسامق بنيان .. ولولاه ماانطلقت عابرات القارات فى أجواء الفضاء .. إنه الدافع الأصيل لكل اختراع .. ولكل عمل صالح .

يلجأ المهندسون بالنسبة للقصور المرتفعة إلى مايسمى « بمانعة الصواعق » لتفريغ الشحنات الكهربائية وتصريفها فى جو السماء .. حتى لاتتعرض القصور للصواعق تنقض عليها فتدمرها تدميرا ..

والانسان بناء الله في أرضه .. قد يكون .. مؤمناً .. عاملاً .. صابراً .. وإن وصوله إلى تلك المرحلة ربما أغراه بالثقة بنفسه إلى حد الغرور الأعمى !!

فيحس الانسان مع هذا الغرور بأنه فرعون صغير .. يستطيع أن يخرق الأرض أو يبلغ الجبال طولا !؟

وهذا الطيش الأعمى .. إذا ماسمح له الانسان أن يفرح فى نفسه سيدمر الفضائل النفسية التى حصلها الانسان فى حياته .. الماضية .. سيتحول إيمانه إلى عنجهية وتسلط خلت من نوازع الخير .. وسلوكه إلى نماذج جامدة لاروح لها ولاحياة .. وأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر .. إلى

نوع من الإملاء .. وكأنه يحمل الناس على مباشرةفضائل من صنعه هو ..
ومن وحي عقله الذكي العبقري !!

وهنا لابد له من الخشوع .. من التواضع ﴿ والخاشعين والخاشعات ﴾
حتى تستطيع الفضائل السالفة أن تجد الطبيعة اللينة التي تضرب جذورها
فيها .. فلن تستطيع الزهرة الندية الطرية أن تمد جذورها أبداً في قلب
صخر .. جامد لايتحرك صلب لايرعوي لدعوة الخير !

وهدايات السماء لاتتنزل أبداً فوق القلوب المتكبرة المتأبية .. وإنما
تختار القلوب المتواضعة لتتخذ منها مستقراً ومقاماً .. تماما .. كأمطار
السماء .. إنها لاتستقر فوق الجبال .. وإنما تجتمع في الأرض المنخفضة ..
المتواضعة الخاشعة !!

ولولا روح التواضع السارية في كيان الانسان .. لولا روح الانقياد
لله.. ورد كل حركة وسكون إليه .. لانهار البناء من أساسه .. وأصبح
الانسان في فم الحياة ذكرى .

إلى هنا تكمل شخصية الانسان .. ويتم تكوينه الخلقي .. ومن حكمة
الله أنه لم يجعل الطريق أمامه سهلاً معبداً .. تغطيه الورود والأزاهير ..
فميلاده كما قلنا سابقاً في أول هذه الكلمة ميلاد لمرحلة من مراحل الكفاح.

إن الأعداء يتربصون به عبر طريقه .. أعداء من الداخل في صورة
شهواته النفسية .. وأعداء من الخارج في صورة جواذب الأرض من حب
الرياسة .. والسعي وراء بريق السلطان .. أعداء .. يجب على الانسان .. أن

يشحذ حده .. ويجمع جنده ليقضى عليها قبل أن تقضى عليه !!

وانتصار الانسان فى معركته مع نفسه أولاً .. أقوى الاسباب لانتصاره فى معركة الحياة الخارجية مع أعداء الدين ثانياً !

وبالتصدق .. على الفقراء والمساكين .. والاسهام فى مشاريع الدولة العمرانية .. ضربة قاضية لنزعة الشح فى نفسك لأنها « أحضرت الشح » .

يقول الشاعر :

لأجعل المال لى رباً يصرفنى ∴ لا بل أكون له رباً أصرفه

مالى من المال إلا ماأجود به ∴ فذاك لى .. ولغيرى ماأخلفه

من أجل ذلك شرع الله الزكاة تطهيراً للنفس من دوافع البخل .. وتزكية للمال وتنقية له أيضاً .

وينعكس كل ذلك على المجتمع يمناً ورخاء .. لأن مشاعر التربص والانتقام فى صدور الفقراء .. ستصبح عواطف حانية .. فيعيش الاغنياء والفقراء فى دائرة واحدة .. إخواناً متحابين .. يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة .. وماأسعده من مجتمع ذلك الذى يصبح أفراده كالبنيان المرصوص .. يشد بعضه بعضا .. والجسد الواحد .. إذا اشتكى منه عضو .. تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى .

﴿ والصائمين والصائمات ﴾ .. و بالصوم تتقلم أظافر الغرائز المتحفزة .. وينمو الانسان « الروح » ويضمر الانسان « المادة » فيكون الانسان أصفى نفساً .. وأرق قلباً .. فيعظم استعداده لتقبل هدايات السماء

.. وممارسة الفضائل في شوق وإقبال ..

وإن ﴿ الحافظين فروجهم والحافظات ﴾ يؤدون للمجتمع أجل الخدمات .. فيوم تحفظ المرأة والرجل عرضه عن أن يدنسهما دخيل .. تخرج الأطفال في مدرسة البيت صوراً واضحة غير مهزوزة .. ويوم تغض المرأة بصرها عن غير زوجها .. يوم تصفو الحياة المنزلية .. ويصبح البيت في ناظر الأب جنة وارقة الظلال .. وتغنيه عن التسكع في الطرقات .. والسهر في بؤر الفساد ..

وتأتي اللمسة الأخيرة في هذه اللوحة الفريدة .. إنه الذكر .. والذكر الكثير .. عند ممارسة كل فضيلة من الفضائل التي سلفت .. استعانة بالله .. وتذكرا له .. واستمداداً للعون منه .. وتبركاً باسمه الجليل .. عند مباشرة كل عمل من الأعمال إنها كلمة واحدة .. ينطق بها لسانك .. فيثقل ميزانك .. إنه الثواب أيها الناس مجاناً .. وبلا تعب أو مشقة.. ومع ذلك نعرض عنه .. وفي الوقت نفسه نطرق أبواب الشر .. في إصرار .. مع أنها تكلفنا من أعصابنا .. وأموالنا أثمانا باهظة .. ولكنه الانسان .. ماأكفره !!

أما بعد: فمذا سيجني الانسان إذا ماسار على هذا الطريق المستقيم؟

المغفرة والأجر العظيم :

أعد الله لهم مغفرة وأجراً عظيما إلا أننا نقف أمام المغفرة الموعودة قليلاً .. لنلمس ماتشير إليه وتدل عليه .. فالأجر العظيم أمر مفهوم .. ولكن المغفرة ؟؟ على أي شئ تدل ؟

إنها تشير إشارة ضخمة إلى أن الله سبحانه وتعالى وإن كان قد رسم لك مواقع خطواتك على الطريق .. إلا أنه لم يفترض فيك أن تكون ملكا يمشى على الأرض فلو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولا .

لابد للملائكة – لو قدر لهم أن يسيروا على الأرض – من أن يمسهم تراب الأرض .. وسوف يحتاجون إلى من ينفض عنهم ذلك التراب .. وإن كانت طبيعتهم من نور !؟

ونظر ة الله للانسان أنه بشر يخطئ ويصيب .. وهذه نظرة تقطع السبيل على من يقسون فى لومهم لأن إنساناً ما قد اقترف خطيئة أو إثماً .. ويعتبرون الانسان ملكاً .. متجاهلين طبيعته البشرية وأنه آدمى معرض للأخطاء .

فالله سبحانه وتعالى قال : ﴿ **إن الله يحب التوابين** ﴾ ولم يقل يحب الذين لايذنبون .

وقال : وإذا ماغضبوا هم يغفرون « ولم يقل : والذين لايغضبون .. وقال : ﴿ **والكاظمين الغيظ** ﴾ ولم يقل مثلا : والذين لاغيظ لهم .. بل إنه تعالى عندما أمر بالاستغفار .. كان شأنه تعالى إرادة المغفرة !!

وعندما نتفرس ملامح الآية الكريمة نخرج بأمور :

أولاً : ثقة القرآن بالمرأة .. وتكريمه لها .. فكل معنى من المعانى التى طالب بها الرجال .. كلف بها المرأة أيضاً .. فالفضائل كلها متاحة أمام

الجنسين من البشر .. وتطوير الحياة وإسعاد المجتمع لايستغنى عن كفاح المرأة وجهادها وقدرتها على أن تعمل شيئاً .. فى حدود وضعها كأنثى .. تؤمن بالله تعالى .. وتراعى حرمة الفضيلة .

وبذلك تصطفق الرئتان .. ويتلاقى السالب بالموجب .. لتنطلق من خلالهم شحنة الكهرباء .. لتدير المصنع .. وتبتهج الحياة .

ثانياً : إذا ماتأملنا الآية الكريمة من زاوية أخرى نجدها وقد اشتملت على مجموعة متكاملة من المثل .. ففيها : إسلام .. إيمان .. صبر .. خشوع .. عبادة مالية .. عبادة مدنية .

ومن أجل ذلك تظهر الآية الكريمة أمام النفس الذواقة التواقة إلى معرفة أسرار القرآن .. تبدو أمامها طاقة من الزهر منسقة الألوان .. متباينة الأنواع .. ليكون القلب أشد شوقاً إليها .. وأكثر تعلقا بها .

والتعبير بالجمع فى كل صفة من الصفات يشير إلى أن الله سبحانه وتعالى .. يريد لها أن تشيع وتذيع .. بحيث تكون شعاراً للجميع .

فالذين ساقهم الشيطان بوساوسه فأبعدهم عن الحق تبارك وتعالى .. فغابوا فى دوامة من الشهوات .. هؤلاء الناس لابد أن ينادوا من مكان قريب .. إن على الجماعة المسلمة أن تؤذن فيهم بالخير .. ليعودوا إلى خطيرة الإيمان .

وقد يسأل سائل : كيف هذا مع أن الله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ يأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم .. لايضركم من ضل إذا اهتديتم إلي

الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم تعملون ﴾

ونقول : إن الآية تشير إلى حالة خاصة .. عندما يؤدى الدعاة إلى الله دورهم .. ويوضحون دلائل اليقين أمام أبصار الغافلين .. فلا لوم عليهم إذن: إذا ماوضع الرجعيون أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكباراً !! ما على الدعاة إلا أن يطمئنوا إلى مامنحهم الله من هدى .. ولن يكون هناك حرج عليهم .. لأنهم بلغوا .. والله يشهد ﴿ فما على الرسول إلا البلاغ ﴾

وليس يصح فى الأذهان شئ إذا احتاج النهار إلى دليل

إن هذه الآية القصيرة من كتاب الله المجيد .. لتغنى غناء تاماً عن كل مذهب .. وعن كل نظرية نستوردها من الغرب أو الشرق .. وهى ترسم أنبل طريق .. لو سار فيه إنسان اليوم المحروب .. لخرج من الظلمات إلى النور عملاقاً قوياً .. وتشهد الدنيا ويسجل الزمان أن هذا الانسان الذى صنع فى مصنع ﴿ يس والقرآن الحكيم ﴾ قادر على أن يقود النهضة وأن يحقق الاستقلال .. وهو أجدر به .. لأنه :

(جندى عامل .. لافيلسوف مجادل .. وكتيبه فى ميدان .. لاكتاب فى مكتبة .. ومكافح فى معركة .. لامفاوض على مائدة .. لايراوغ كالثعلب .. ولايلين كالثعبان .. ولايختال كالطاووس .. ولايتلون الحرباء .. ولايلعب كالقردة .. ولايساوم كالتجار .. ولايتعاظم كالممثل .. ولا يتوقر كالقرد .. بل .. يتحفز كالأسد .. ويلين كالماء .. ويزهر كالسيف .. ويسمو كالنجم ..

يعيش فى الدنيا .. ولاتعيش الدنيا فيه .. ويأكل منها .. ولا تأكل منه .. يموت ولايأكل بشرفه .. كالحرة : تموت ولا تأكل بثديها !!)

إن هذه الكلمات المضيئة الواعدة .. لترسم صورة المسلم الأول .. وتعيد إلى أذهاننا صورته .. يوم أن حمل الأمانة فبلغها كأجمل مايكون البلاغ .. فاستطاعوا بهذا القرآن أن يخلقوا أمة فرضت نفسها على الحياة .. وأنشأوا مجتمعاً مثاليا .. لافضل فيه لعربى على عجمى إلا بالتقوى.

وعندما رسخت مبادئ القرآن في نفسوهم خرج حظ الشيطان من نفوسهم .. بل خرج حظ نفوسهم من نفوسهم .. وأنصفوا من أنفسهم إنصافهم من غيرهم .

(وأصبحوا فى الدنيا رجال الآخرة .. وفي اليوم رجال الغد .. لاتجزعهم مصيبة .. ولاتبطرهم نعمة .. ولا يشقيهم فقر .. ولايطغيهم غني.. ولاتلهيهم تجارة .. ولاتستخفهم قوة .. ولايريدون علوا فى الأرض ولااستكباراً .. وأصبحوا اللناس القسطاس المستقيم قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسهم أو الوالدين والأقربين) .

هذا هو القرآن الكريم : يخلق الفرد المثالى والأمة الفاضلة .. بل إنه قد خلقها فعلاً فى الأزمان الخالية .. وكيف لا .. وقد بلغ من عشقهم للقرآن أن رجلا حفظ ابن له سورة الفاتحة .. فسار أبوه إلى « سيدنا » وأعطاه مايوازى خمسة وعشرين جنيهاً .. فتعجب سيدنا وحملق فى الرجل متعجباً .. ماذا صنعت ياأخى حتى أنال منك هذه الجائزة ؟!

ويقول الوالد فى رضا :

لاتستغرب ماأعطيناه ولاتستكثره .. فلو كان معنا أكثر منه لمنحناه لك .. تعظيماً منا لكتاب الله تعالى !!

وهذا التجاوب بين الأمة المسلمة وكتاب ربها .. وماينشأ عنه من قوة عارمة تكسر شوكة المعتدين .. هو الذى حدا بإسرائيل أن تحاول تحريف القرآن .. وتوزعه فى بعض بلاد المسلمين .. فى محاولة لتعكير هذا النبع الصافى .. ولتبعد المسلمين عنه رويداً رويداً .. لكيلا يجد المسلمون بعد ذلك شيئاً يرتكزون عليه .. فيهوون فى الحضيض .

وقد أحسنت وزارة الأوقاف صنعاً فى شخص وزيرها الشاب المؤمن السيد أحمد عبد الله طعيمة .. إذ ردت على هذا التآمر .. فقامت بطبع آلاف من « التلمود » أوالدستور أسبرائيل .. ليعلم الناس ويروا .. كيف يفكر زعماء صهيون ويرون صو رة المبادئ المعوجة التي تحركهم وتشكل سلوكهم..

ولكى نعطي لكم صورة إجمالية عن هذا « التلمود » أو الدستور الإسرائيلى نذكر لكم بعض مايدعو إليه ويحض عليه :

فى عيد الغفران يدعو الحاخام الأكبر قائلاً :

« ولتعفنا يا الله من الوفاء بجميع العهود والمواثيق التى تقطعها على أنفسنا .. والايمان التى نتفوه بها ابتداء من يومنا هذا حتى اليوم المماثل له من العام القادم .. واجعلها عديمة الفاعلية عديمة القيمة .. كأنها لم تكن .. ولتكن عهودنا غير عهود .. وأقسامنا غير أقسام آمين » !!

وقرأ « النطفة المخلوق منها باقى الشعوب الخارجة عن الصهيونية هى نطفة حصان »

« إن الله يحقد على غير اليهود » « اقتل الصالح من غير اليهود » «إذا كان يجب التعامل بالربا مع غير اليهود .. فإنه يجب أيضاً غشهم فى البيع والشراء .. ولكن إذا باع اليهودى لأخيه اليهودي .. أو اشترى منه شيئاً لم يجز له غشه » !!

هذه هى مبادئهم تعكس على صفحة الحياة نفسهم المعقدة الحاقدة .. وإذا كان اليهود لايعترفون بإنسان لاتجرى فى عروقه دماء اليهود .. ثم يبيحون سفك دمه .. حتى ولو كان صالحاً ..

فانظروا ياسكان الكرة الأرضية .. وقارنوا بيننا وبينهم .. بين القرآن الذى حرفوه والتلمود الذى عبدوه !!

إننا نسالم من يسالمنا ونعادى من يعادينا .. « لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين .. إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم .. ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون »

حتى أن العداوة إذا طفح بها القلب .. بيننا وبين المشركين .. فلا ينبغى أن يكون ذلك مندوحة لنقض مابيننا وبينهم من عهود .. « ياأيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط .. ولايجرمنكم شنآن قوم على ألا

تعدلوا .. إعدلوا هو أقرب للتقوى .. واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون »

وقد بلغ من سماحة الإسلام أن المسافة مع بعدها .. والخلاف بينه وبين الأديان على أشده .. إلا أنها كلمة واحدة يقولها ثم يمضى : « لكم دينكم ولى دين » .

ومع هذه المبادئ السمحة الكريمة .. لاترى اسرائيل حرجاً فى أن تحرف الكلم عن مواضعه .. وتنكر الشمس فى رائعة النهار الأمر الذى لايملك الانسان إزاءه إلا أن يقول :

تعد ذنوبى عند قوم كثيرة	ولاذنب لى إلا العلا والفضائل
كأنى إذا طلت الزمان وأهله	رجعت وعندى للأنام طوائل
إذا وصف الطائى لبخل مادر	وعير قسا بالفهاهة باقل
وقال السها للشمس أنت ضئيلة	وقال الدجى للصبح لونك حائل
وطاولت الأرض السماء سفاهه	وفاخرت الشهب الحصى والجنادل
فياموت زر إن الحياة ذميمة	ويانفس جدى إن دهرك هازل !!

ولكننا نحن العرب .. لن نسمح لليأس أن يمتلك الزمام فنتمنى الموت .. بيد أننا سنكشف عن ساق .. ونشمر عن زراع .. لنبدأ الزحف المقدس .. حتى تكون كلمة الله هى العليا .. وكلمة الذين كفروا السفلى .

وسيظل القرآن مضيئاً كفلق الصبح .. وإن بسط اليهود أكفهم ليمنعوه.. فالله سبحانه وتعالى وكل أمر حفظه إليه تعالى .. ولم يكله إلى

أحد من البشر فقال تعالى :

﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾

على عكس الكتب السماوية الأولى .. فقد تركها وديعة فى يد الأحبار والرهبان .. فنالها التحريف والتبديل ﴿ إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور .. يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء ﴾ .

ونحب أن نقول إن ماتفعله إسرائيل اليوم حلقة جديدة . من سلسلة المؤامرات التى يشنها الاستعمار للقضاء على التراث الإسلامى .

فالمستشرق « زويمر » ينادى بضرورة الحيلولة بين المسلمين وبين كتابهم بشن حملة من الهزء والسخرية على علماء الدين .. لتنقطع صلة المسلمين بهم .. وإذا ماانقطعت هذه الصلة .. ابتعد المسلمون تلقائياً عن الدين !

وتجئ اسرائيل .. لتلبى هذا النداء .. فتحاول تحريف القرآن الكريم .. ومعها أيضاً الاستعمار البغيض يوالى حملاته لأقصاء المسلمين عن المفاهيم الاسلامية الصحيحة .. ومسح كل ماهو إسلامي من أذهانهم.

هل سمعتم عن مايسمى « بالقومية العالمية » التى يتناد به علماء النفس من الغربيين اليوم ؟! إنهم يقسمون النفس إلى :

« نفس صحيحة .. ونفس مريضة .. والنفس المريضة إنما يأتيها المرض من فقدان الأمن والطمأنينة .. وأن هذا القول بانعدام الأمن مصدره

عاطفة البغض التى تمتلئ بها النفس .. فما زالت نفس الانسان تمتلئ
كره حتى تفقد الثقة بالناس وبالأشياء ثم يسوقها البغض إلى تدمير
غير.. وينتهى الأمر عادة إلى تدمير النفس .. والأولى أن تنشئ المدرسة
طلابها على حب جميع الأشياء وحب جميع الناس .. فيستقيم السلوك ولقد
جتمع مردة الاستعمار وقرروا أن الوصول إلى تلك الغاية إنما يكون
بمتناع الأمم عن تعليم تاريخها القومى ..

وإذا علموه فلتنزع منه مواقف البطولة والأهداف الوطنية » [1]

إن ديننا الحنيف أيها السادة .. دين إنسانى .. لم يأت ليعمل فى
مجال واحد .. ويقود جماعة معينة .. بل جاء ليمد رواقه فى فجاج الأرض
جميعا .. وهو أبدا لايعترف بالحدود الوهيمة التى اصطنعها الاستعمار ..
وقسم بها خريطة الوطن الاسلامى .. فأصبحت مجموعة من الألوان بعد أن
كانت لوناً واحداً .

غير أن مايسمونه « بالقومية العالمية » شنشنة نعرفها من أخزم !!

وهى دعوة هدامة مقصود بها توهين الروابط الوطنية وإماته العواطف
الحية فى صدور العرب والمسلمين .. الذين صحوا فى غفوتهم ونادوا
بحقوقهم فى الحرية والكرامة .. وهيهات أن ينام العملاق بعد أن نفض عن
كاهله غبار السنين . ومن العجيب أن هذه الدعوة لاتجد نصيراً داخل حدود
الدول الاستعمارية نفسها .

---

[1] عن مجلة الرائد .

ففى الوقت الذى يتنادون فيه بالقومية العالمية .. وعدم الانحصار فيما يسمى بالوطن الأصلى .. نسمع ونرى صور التفانى فى خدمة الوطن الأصلى والاستشهاد فى سبيل رفعته .. داخل نطاق هذه الدول . الأمر الذى يدعونا إلى مزيد من اليقظة والتحفز .. وعدم الاغترار ببريق المذاهب الغربية الوافدة .. حتى نضعها أولاً على المشرحة .. والكشف عليها .. وقياس نبضها .. فى حدود امكاناتنا .. وتقاليدنا .. وديننا .. فإن وافقت هذه العادات واحترمت ذلك الدين .. فبها .. والحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها التقطها .. وإن لم تراع وضعنا وديننا .. نبذناها .. ولم نستجب لها طائعين!

هذا هو الدين .. فأين رجاله ؟

عندما يفتح الناقد البصير عينيه .. ليتحسس إلي أى حد تعلق الناس بهذا الدين .. ومدى تمسكهم بمبادئه .. سيرتد إليه البصير خاسئاً وهو حسير .. وستأخذ الدهشة على قلبه كل أقطاره .. وتساءل :

هل يعيش حقاً فى بيئة تدين بالإسلام وتبلغ رسالاته ؟ ولولا بقية من إيمان .. لولا مآذن باسقات يدعى من فوقها .. إلى الله .. ومساجد يذكر فيها اسمه .

ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات .. يستحثون الهمم الراكدة .. ويستنهضون القلوب الغافية .

لولا هذا لقلنا : على الإسلام العفاء !

لسنا من الذين يضعون فوق أبصارهم منظارا أسود .. فتبدو الدنيا من خلاله سوداء قاتمة .

بين أنه الواقع الماثل .. نستوحيه ونستهديه .. فيحكى لنا بصورة لاتقبل الجدل كيف جعل الناس أصول دينهم وراءهم ظهرياً .. وكيف أضحت مجالسة الأخوان أشهى فى أنفسهم من تلاوة القرآن !!

الأمر الذى نتوجه من أجله بخواطرنا ومشاعرنا نتخطى القرون لنقف خاشعين بين يدى عمر بن الخطاب رضي الله عنه نستحلفه بالله أن يعود .. ومعه درته .. فيلوح بها نحو هؤلاء الذين تاهوا فى غيهم وأسرفوا على أنفسهم.

وليرسلها من قلبه الحى صيحات راعدة .. فيزايل النفوس هزال ضرب جذوره فيها .. وتنكشف عنها ضعضعة سرت بين أعطافها .. ويعود إلى العقول خصبها بعد إجداب طال عليه الأمد !

إن المطبعة لتقدم للناس فى كل يوم ألواناً من الثقافة وصنوفاً من المعرفة .. لأناس يؤذنون بيننا بأفكار مستوردة من الشرق أو الغرب .. مشفوعة بإعجابهم الآخذ بها .. وبنتائجها الحتمية فى ترقية الفرد .. وإسعاد المجتمع .

وعلى قدر صلة هؤلاء الشبان بالإسلام .. يكون تلميحهم أو تصريحهم فى النيل منه .. والأزراء به .. والتشكيك فى قدرته على ترقية الفرد من الناحية الاجتماعية والسياسية والاقتصادية .

ونحن فى عصر يؤمن فيه الناس بالكلمات المطبوعة .. وبناء على ذلك .. فقد استطاع هذا الزيف أن يحتل مساحات واسعة بين أدمغة الأغرار وقلوبهم !! فتنادوا به .. ودافعوا عنه .. بعد أن أفلحت الثقافة الغربية الوافدة أن تخفف من قيمة المثل العليا فى قلوبهم .. لأن المثل العليا حق .. والحق مر فى حلوق بعض الناس !

وباسم التجديد .. وباسم التطور ومجاراة العصر .. ديست تعاليم الاسلام .. وأصبحت عقائده ومثله مجموعة من الصور الذهنية .. لا تشكل سلوكاً .. ولاتنال حظها من التقدير .

لقد جرب الاستعمار المتربص بنا لغة القوة فلم يفلح .. فحاول أن يغزو

عقولنا .. عن طريق مجموعة من المؤسسات الأدبية .. فقدمت لنا سمومها الناقعات فى أقراص واقية .. بحيث لانحس مرارتها .. ولانشعر بطعمها الحقيقى .. ورسخت فى كيان بعض الناس .. فشكلت أعمالهم .. وأصابت ملكة التمييز فيهم .. فلم يعد فى حسابهم تقدير لخلق أو ضمير .. وإنما هى المظاهر البراقة وحدها عنوان رقى الانسان !!

« [1] وسرعان ما احتلت الملابس الأوروبية أجسامنا .. والأثاث الأوربى بيوتنا والعادات الأوروبية فى الأكل والنوم - أحوالنا .. أما تألق الذهن .. وجودة التفكير .. واطلاق القوى البشرية من مراقدها .. فذاك شئ آخر .

ومن السهل على القدرة أن تقلد حركات إنسان ما .. أفتظنها بهذا التقليد السخيف تتحول بشرا ؟؟

ولقد رأينا المسنِّين من الرجال .. والأحداث من العيال يأخذون عن أوروبا الكثير من مظاهر المدنية الحديثة .. وهى مظاهر نبتت خلال حضارة الغرب .. كما تنبت « الدبيبه » خلال حقول الأرز .. إنها شئ آخر غير حضارة الغرب التى ارتفع بها واستفاد منها .

فهل هذا الأخذ الغبى رفع خسيستهم أو دعم مكانتهم ؟ كلا .. مازادوا به إلا خبالا .

والواقع أن اليابان نهضت نهضة كبرى فى أواخر القرن التاسع عشر للميلاد .

---

(١) عن كتاب الإسلام والطاقات المعطلة للاستاذ محمد الغزالى .

والصين نهضت نهضة أشمل وأخطر فى منتصف القون العشرين . .

وكلتا الأمتين حرصت علي تقاليدها الخاصة فى اللباس والطعام وماإليهما .. وعبت من مناهل المعرفة الحقيقية ماغير حالتها تغييراً تاماً

أما نحن .. فقد هجرنا الموضوع إلي الشكل .. بل تخبطنا فيما ندع وننقل علي حساب ديننا وتاريخنا .. فلم نصنع شيئاً »

وبدل أن توضع أخلاق الانسان فى ميزان التقدير .. بدل أن يوزن من الداخل .. وزن من الخارج : فيكفى أن تكون أنيق الملبس .. ضخم الجثة .. يفوح من حولك العطر .. لتنال اعجاب الناس وتقديرهم .

ولايعنيهم بعد ذلك أن كنت أبيض القلب طموحاً .. تتخذ من الدين صراطاً مستقيماً تنقل عليه خطاك .

فالدين – في حسابهم – هناك فى مؤخرة الركب .. مقطع الأنفاس والعلم هناك أمام القافلة .. يكتشف للناس المجاهيل .. ويهتك المساتير .. وليس من الحكمة أن نعطى العلم إجازة حتى يلحقه الدين .. لأن فى هذا قضاء على مدارك الانسان .. وحكماً على قواه وطاقاته بالاعدام !!

وهكذا يفعل الاستعمار الماكر بعقول الفارغين :

« ففتنهم على أدبهم .. وصرفهم عن تاريخهم .. وزين فى قلوبهم أن الآداب الغربية من لوازم المدنية الحديثة .. فكما تركنا فى الأكل اليد إلى الشوكة والسكين .. وفى اللباس الجبة والقفطان إلى الجاكتة والبنطلون .. ينبغى أن نترك فى الكلام اللغة العربية وآدابها .. إلى اللغة الأوروبية وآدابها

ليقال إننا متمدنون تقدميون ! نحفظ « هوجو » ولانحفظ المتنبى .. وندرس «فلتير » ولاندرس الجاحظ .. ونقرأ لامرتين ولانقرأ البديع » [١]

ويكفيك مظهراً يدل على فتور العاطفة الدينية عند بعض الناس ماقاله أحد رؤساء المصالح الحكومية :

لقد قيل له : إن فلاناً يصلى ويتقى الله فى أعماله .. فهو أولى من فلان بالوظيفة .. فقال :

إن التقوى سلوك شخصى .. لاصلة له بإتقان العمل !! وقد سمعنا أيضاً فى العام الماضى أن أحد المدرسين المبعوثين للأقطار الشقيقة رسب فى الاختبار الشخصى .. لأنه لم يستطع الأجابة عن سؤال بشأن أعلى مبنى فى ميدان التحرير !!

وعلى أساس هذا المنطق .. ينبغى أن يكون المبعوث فقط من سكان مدينة القاهرة .. ليكون على علم بعدد شوارعها .. وعماراتها وأزقتها أيضاً!!

وكأن الجمهورية العربية المتحدة خلت من ستة آلاف قرية يسكنها ملايين المكافحين الأذكياء .. الذين لايهمهم أن يعرفوا أعلى مبنى .. ولاأقصر مبنى !

لأنهم تعلموا من دراساتهم التاريخية ومن حياتهم الواقعية .. أن هذه

---

(١) من مقال للاستاذ أحمد حسن الزيات .

القصور لم تقدم للحياة إلا كل مستغل .. مضل ! ..

بينما ومن أكواخ الفقر .. تشرق العبقرية عبر الزمان !

والسؤال الآن :

ماالحكمة فى إيفاد المبعوثين إلى الخارج ؟

أليست الحكمة أن يكونوا رسل خير وسلام بيننا وبين شعوب الأرض.. حتى تتوثق العلاقات .. وتتقارب المسافات فنسير معاً على الطريق.. نرسى قواعد الحق والخير ؟

وماعلاقة هذه الرسالة بمعرفة أعلى مبنى فى ميدان التحرير أو الجهل به ؟

كنت أفهم أن يرسب هذا المدرس لأنه لم يستطع أن يقترح حلاً لمشكلة اجتماعية تتعلق بهذا المبنى وهى مسألة الانتحار مثلاً .. ولكن مرة أخرى .. نحن قوم نهتم بالمظهر .. ولابالمخبر .. بالشعائر لابالشعور .. بالمبنى لابالمعنى :

﴿ يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون ﴾

ألم نتابع بمشاعرنا زيارة امبراطور الحبشة للجمهورية العربية المتحدة ؟ لقد رأيت عشرات الصور للامبراطور فى شتى المناسبات .. إلا أننى وقفت طويلاً أمام مشهد يظهر الامبراطور وهو ينحنى ليقبل يد قسيس!

إنه رجل .. يمتلك من المال والرجال مايؤهله ليعيش فوق مستوى

الجماهير .. إلا أنه أراد أن يعيش كفرد من الناس .. وهو إذ يحترم رجل الدين فيقبل يده .. إنما يحترم نفسه .. ويقدر دينه فى شخص هذا القسيس .. فيرضى بذلك وجدانه الدينى الحى .

وإن التـاج من فـوق رأسـه تلمع درره .. ومظاهر الأبهـة والسلطان لتذوب فى معنى الدين الكبير .

وياليت عشاق الكرة عندما فتحوا أبصارهم قليلا ليروا شيطان الكرة البرازيلى « بيليه » قبل أن يبدأ الشوط ؟

لاشك أنكم لم تروه ياشبـاب .. وأنا ألتمس لكم العذر .. فلقد ركزتم أنظاركم على قدميه السحريتين .. لتروا كيف كان التجاوب شديداً بينهما .. وبين الكرة ؟!

ولو أنكم رفعتم رأسكم قليلاً عن « الأرض » لرأيتم عجباً .. إنه يتناول الصليب الذهبى فى خشوع ثم يشبعه لثما وتقبلا ويودعه ضراعاته ودعواته!

أى تقدير غامر للدين فى قلب هذا الشاب ؟

وأى نكران لمظاهر الحياة يتبدى فى مشهده هذا ؟

إن الأيدى التى تصفق له طويلاً .. لن تتحول إلى حبال تصله بالسماء .. وهناف الجماهير العالى لن يكتب له النصر أبدا .

إنما هو الرجوع إلى إلهه .. إنه إيمانه .. عقيدته .. مبدأه .. يستهديه ويستلهمه التوفيق والهدى .

وإذا كان انتصاره فى ميدان الكرة « وليد » فنه .. فإن الدين « والد » هذا الفن !

يالمواريث آبائنا أجدادنا .. يسرقها الغرب الذكى .. يالكنوزنا الضائعة .. تتناثر على سطح الأرض .. فيلتقطها غيرنا من البشر .. ثم يصوغها فى رسوم تحمل اسمه وتعلى رأسه !

ياللتواضع .. للعزة .. للوفاء .. للطموح .. للحزم .. تغيب فى دوامة النسيان .. وتهتف بنا .. نحن الذى ثبتنا دعائمها .. بيد أنها لاتجد صدىً .. وتمر على القلوب الغافية كما تمر النسمة العليلة على الحجر الأصم !

نحن الذين ندعى حمل أمانة هذا الدين .. وإعلاء كلمته نعيش فى وهم كبير .. ونقضى حياتنا عبيداً لشكليات وطقوس مستوردة من الغرب لاتغنى عن الحق شيئاً .

ومعنى ذلك أننا أخذنا عنه القشور .. وورث غيرناعنا اللباب ! أى أنه يتبختر فى ثوبنا القشيب كالطاووس يختال عجبا .. ونحن « نرفل » فى ثوبه المهلهل .. ثم لانستحى !!

إن الحضارة التى نشيدها اليوم إن لم تؤسس على مبادئ من الحق والخير .. على هدى من ديننا الحميد .. فإنها تصبح حصناً متداعياً يوشك أن ينهار ..

هذا الدين وأصوله .. وغرسها فى مدارك الناس .. ليس بالأمر سهل.. ولكنه يتطلب جهداً موصولاً .. وسعياً دائباً .

لقد ضاعت المفاهيم الدينية وسط ركام من أخطا الحكام المتسلطين .. وجمود الدعاة المتعصبين .

ولكى يأخذ الدين وضعه القيادى فى الحياة .. ولكى تعود إليه نضارته الأولى .

لابد من دعاة يجتمعون إلى صفاء الذهن سعة الأفق .. والاحاطة بمقتضيات الأحوال .. بحيث يعتقدون أن لكل مقام مقالا .. وأن الآية الكريمة .. والحديث الشريف .. إذا ذكرا فى غير زمانه أو مكان لم يأت بالثمرة المرجوة منه .. ثم هو يضر الدين من حيث أراد له نفعا !

ومتى توفر لنا هذا الطراز الذكى من الرواد .. استطاعت قوتنا الروحية أن تسابق تقدمهم المادى .

ووجد الشباب المفتون أصول الإسلام وأنظمته بيضاء .. سهلة .. تتجاوب مع عقولهم وقلوبهم وأرواحهم .

وبذلك يتخلصون من مذاهب هدامة تسمى الديمقراطية أو الوجودية .. لإن الفكرة لاتحارب إلا بالفكرة .. **﴿ أفمن يمشى مكباً على وجهه أهدى .. أم من يمشى سوياً على صراط مستقيم ﴾**

وهذه « الرسالة » التى أقدمها بين يديك ياقارئى العزيز محاولة لأبراز قيم الاسلام .. وبيان منهج القرآن الراشد ومدى قدرته على خلق الفرد .



غـدا ... نقـرع ابـواب الجنـة .

ذات يوم .. أوصى الرسول عليه الصلاة والسلام عائشة فقال :

داومى قرع باب الجنه .

ـ بماذا يارسول الله ؟

ـ بالجوع !

وها نحن أولاء نأخذ الأهبة .. لنقرع ابواب الجنان !

فمع شروق الغد القريب .. سيبزغ هلال رمضان .. ربيع الارواح .. يراقهاالى عالم الحب والنور .

ومن فوق هذا الكوكب الارضى .. نرصد هلاله فى أفقه العالى .. وعلى هداه سنبدأ مرحلة جديدة وسعيدة .. هى بالنسبة لنا نحن المسلمين عيد .. أى عيد .

عيد .. لا نجدد فيه ملابسنا وأحذيتنا .. وانما نطهر فيه عقولنا من الشك .. وقلوبنا من الحقد .. وأنفسنا من ضلال الهوى .

وسنلتقى جميعا فى سوق كبير وجليل .. رأس مالنا الاخلاص .. وعملتنا فيه التسامح .. ونتعامل فيه مع رب كريم .. سوق لا تتعاوى فيه الغرائز .. أو تتناوح الاطماع .. ولكنها الروح تشدو بأغنية السلام .. فاذا الحياة جنه مديدة الظل دانية القطوف .

وميلاد القمر يذكرنا بميلاد الانسان .. فالقمر يبدو خيطاً رقيقاً دقيقاً

.. ثم يتدرج في مراحل النمو هلالا .. فبدرا .. فمحاقا .. وتلك خلاصة عمر الإنسان في هذه الحياة .

﴿ الله الذى خلقكم من ضعف .. ثم جعل من بعد ضعف قوة .. ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة ﴾

غير أن القمر يبلغ مرحلة المشيب .. ثم يستأنف الرحلة من جديد .. أما أنا .. وأنت .. والآخرون .. فعندما تنسخ آية المشيب رونق الشباب .. سنمضى إلي هناك .. إلى حيث لايعود الذاهبون !!

والقمر رمز الحب :

فالناس من تحته صرعى الحقد .. يتدافعون بالمناكب .. ويتنابزون بالالقاب .. وهو من فوقهم جميعا يعيش فوق مستوى هذه الاحقاد .

والقمر رمز التواضع :

فهو يغمر بأشعته الرفافة جوانب الارض بما فيها من وهاد ونجاد .. وبحار وأشجار .. ويصيب بها الوزير والخفير .. الغنى والفقير .. فهو معهم جميعاً بأشعته .. ولكن المدى بينهم شاسع واسع .. انه متواضع لكن عن رفعه !

وهو أيضاً آية الكرم والايثار :

انه يبذل من ذاته فتضئ الحياة .. وينبت الزرع .. ثم لايسألنا على ذلك جزاء ولاشكورا .

وهكذا نراه فى صمته المطبق يعلمنا خلال الحب والتواضع والايثار .. وتلك هى الصفات التى جاء رمضان ليغرسها فى قلوبنا .

أليس رمضان ثورة على النفس لابادة رذائلها الاصيلة التى هى كما يقول حاتم الأصم : الكبر والشح والحسد ؟

نعم جاء ليغرس التواضع مكان الكبر .. والإيثار بدل الشح .. والحب فى موضع الحسد .. فعندما يصوم الغنى المتعالى سيمسك عن الطعام .. ويتناول الفطور .. مع الفقير فى لحظة واحدة .

والساعات التى يقضيها طاوياً .. لادخل له فى تحويرها أو تغييرها .. وفى ظل هذا الاحساس تضيق المسافة بينهما .. ومن شأن هذا أن يهدهد كبرياء الغنى وترفعه .. ويعامل الفقير بدافع من التقدير والاحترام .. وهذا هو التواضع .

والشارع الحكيم طلب منا أن نمسك عن الطعام .. ولكنه أمرنا فى نفس الوقت أن نبذل حق السائل والمحروم .. حتي كان الرسول أجود من الريح المرسلة فى رمضان .. وهذا هو الكرم .

وإذا ماتصدق القادرون على الفقراء .. ستنعطف قلوبهم إليهم .. وإذا مشاعر الحب والولاء تفيض بها الصدور .. وسيبادلهم الأغنياء نفس العواطف .. فيعيش الجميع فى جو من الهناء والصفاء .. وهذا هو الحب .. ومع تلك الفضائل .. ومن قبلها نتعلم الصبر .. إنه العصارة الحية .. التى تسرى فى كيانها فتغدو مورقة ناضرة ! ومعنى ذلك :

أن الصوم سيرخي الحبال التي تربطنا بالنفس الامارة بالسوء .. ويفسح الطريق للحب يتمكن في القلب .. ليصبح قوة دافعة .. تسوقنا إلى أعلى .. بعيداً عن جاذبية النفس .

تماماً كالقوة التي تدفع الاقمار الصناعية حتى تخرج من نطاق جاذبية الأرض !! ومتى ابتعدنا عن جاذبية النفس .. اقتربنا في نفس الوقت من الحقيقة العليا .

وإذا نحن في ظلال الحب نسبح في ملكوت الله سبحاً طويلاً .. نستشعر من اللذات مالو أحسها الملوك .. لقاتلونا عليها بالسيوف !!

وبالحب تتفتح عيون الروح .. التي فقأتها لذات الجسد .. وتصبح تلك العين كالمرآة المجلوة .. تنعكس عليها حقائق الأشياء .. في غير زيف أو ضلال .. بعيداً عن مقدمات العلماء ونظرياتهم وأخطائهم .

فنحن بالذوق والشعور .. نصل إلى آماد فساح .. لايصلون إليها بعقولهم أبدا .. لأن القلب المتفتح البصير .. الذى تجرد من عرض الحياة .. كالوعاء النظيف يوضع فوق نخلة فرعاء .. أنه لايخطئ .. فهو لايتلقى إلا طهور السماء !! والامام الشافعي رضى الله عنه يبصر شجرة التوت مرة .. فيتفجر قلبه بمعان جليلة :

ان النجار يقف أمامها .. فيتخيل بابا فخما .. أو محراثاً قوياً !

أما إمامنا فيقول :

هذا ورق التوت .. لونه واحد .. وطعمه واحد : يأكله الدود فيخرج منه

لحرير .

ويأكله النحل فيخرج منه العسل .. وتأكل منه الشاة أو البقر فتلقيه بعـرا أو روثا .. وتأكله الظبـاء فـيـخـرج منه المسلك .. وهو شئ واحـد .. ﴿ فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ .

وفرق هائل بين رجل يستضئ بنور الشمس .. وآخر يستضئ بأنوار القلب !

وإذا .. فلنقبل على رمضـان فى شوق ويقين .. ومن بحره الكبير نغترف رشفات الحب .. وهو خير علاج لا دواء البشرية الضاربة الجذور .

وهل كان رمضان بدعاً عندما يدعونا أن نحب ؟!!

إن الطبيعة من حولنا تغنى .. وتتعانق .. الزهر يقبل بعضه بعضا .. والجبال تعانق السحب .. والماء يحتضن بعضه البعض .. ونور الشمس يضم الارض ويقبلها .. ولسنا أقل من جماد .. أبى أن يحمل الأمانة .. يحملها الانسان فى عناد واصرار !

ان الناس يذهبـون إلى الصيـدليـات كل يوم .. لشـراء أدوية تبـرأ أسقامهم .. وما دروا أن سبب الامراض هو الحسد الكامن فى قلوبهم .. وأن دواءه الوحيد .. أن يتعلموا صناعة الحب .. وفى حرارته تذوب الأوجاع .. ومأصدق قول ابن العربى :

لقد صار قلبى قابلا كل صورة	فمرعى لغزلان ودير لرهبـان
وبيت لأوثـان وكعبـة طائف	وألـواح توراة ومصحف قرآن
أدين بدين الحب انى توجهت	كتائبه .. فالحب دينى وايمانى



الصوفية تحرر وانطلاق

هـذا الإنسان ..كيف كان .. وكيف أصبح ؟ قبضة من تراب سرى فيـها الروح الإلهى فكانت هذا المخلوق العـجيب .. بأفكاره .. ومشاعره وأشواقه ! ..

فطبيعته اذن مزيج من كدرة الارض .. ونور السماء .. ومن أجل هذا كان عنده الاستعداد لأن يصبح أخطر المخلوقات قدرا .. ولأن يكون أعلاها مقاما!..

وكما تلتقى ظلمة اليل المدبر ببياض النهار المقبل .. التقت فيه المتناقضات :

انه نور ونار .. حنان وقسوة .. رحمة وانتقام .

دواؤك فيك وما تشعر
وداؤك منك وما تبصر
وتزعم انك جرم صغير
وفيك انطوى العالم الأكبر

فحيث ان الإنسان سيد الحياة .. فقد تمثلت فيه كل خصائص هذه الحياة:

فيه شراهة الدب .. وعفه الملائكة .

فيه ضراوة الوحش .. ووداعة الحمل .

فيه روغان الثعلب .. وبراءة الطائر.

فيه رقة النسيم .. وزئير العاصفة !

ان فى الإنسان طاقات اقتــدار
آه لو يـعرفهــــا كيـف تـدار !
آه لو آمـن انـسـان بذاتــه ..
لآتى فى الأرض كبرى معجزاته
ربما كان وليا فى صفـــاته
حل منه الروح فى كل جهاتـــه
ليس للانسان الا ما ســـلك
فهو اذا شـــاء ولى أو مـــلك
واذا شــــاء تـردى فهـــلك
انه اعطى حـــق الاختيـــار!!

ولكن ..بأى شىء ينحط الانسان الى هوة سحيقة.. وبأى قوة يرتفع ليكون أسمى المخلوقات جميعا ؟ ..

ان الشيطان المريد يستثير القوة الغضبية والشهوية ويدفعهما الى الولوغ فى حمـأة الخطايا .. حتى اذااستمرأ الإنسان تلك الخطايا ومردعليها.. خفت صوت الضمير .. أو القوة الروحية المودعة فيه .. وضاع رنين أجراسها فى ضجيج الشهوات !

وتجد الانسان والحالة هذه لا يبصر الا بعينى رأسه محسوسات هذا الكون ..فيأكل ويشرب . وتلهيه نعماء الحياة عن حقائق الاشياءوأسرارها.

وهنا لابد من إرادة ماضية تقطع على تلك الرغبات المسعورة طريقها .وتقلم أظفارها . حتى تستطيع الروح أن ترى .. وأن تنطلق من بين جدران هذا الجسدالمترهل .

والانسان فى الحقيقة بروحه الهادية وارادتة الماضية.

وهذاهو دور الصوفية الخطير .. فهى بمبادئها وتوجيهاتها تصقل النفوس .. وتصفى الوجدان .. وتحد من سعار الجسد .. حتى اذا ما دق ورق ، استطاعت الروح الحبيسة أن تنطلق الى العالم الأسنى لتحلق فى سرحها الخصيب عبر السموات .. فتستعيد صفاءها ونقاءها .. رقة كالماء يجرى .. خفة كالضوء يسرى !

كذلك أرواح المحبين دائما
تحركها الأشواق للعالم الأسنى

فالصوفية اذن إرادة قوية تتحكم فى شهوات النفس .. وانطلاق بالروح الى الملكوت الاعلى .. لترى مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

وان الذاكرة لتتخطى القرون الطوال .. ثم تجتاز حدود التاريخ لتقف لحظات مع آدم عليه السلام وهو يتلقى من الله درسا بليغا ﴿ يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة ﴾فالله سبحانه وتعالى يعلم أنه سيكون خليفته فى أرضه..﴿ وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل ﴾

ومن شأن هذه النعم أن تلوى زمام الانسان اليها فينسى المهمة التى خلق من أجلها..

فلا بد له من سلاح يرتكز عليه .. ذلك السلاح هو الارادة القوية .فكأن الله سبحانه وتعالى كتب له العيش أياما معدودات فى رحاب الجنة .ثم حرم عليه الأكل من شجرة بعينها .. حتى اذا ما نازعته نفسه للأكل منها .. تيقظت الارادة .وتتكرر المحاولة .. ويتكررالدفع .فتشتد الإرادة

وتقوى .. فاذا هبط الى الارض .. هبط ومعه سلاحه الذى يعيش به سيد نفسه .. وفوق مستوى شهواته .

وتلك هى رسالة الصوفية .. كما كانت وكما ستكون أبدا ..

ان الصـــــوفية ليست دعوة الى الجبن أو الضعف والفرار من الحياة بأعبائها وتكاليفها ..

بيد أنها تتكشف للناقد البصيرقوة وتحرراوانطلاقا . .

ألم تر كيف تدعو الناس الى الزهد والبر والحلم ؟ ..

وما هذه الفضائل كلها الا مظاهر للقوة فى أسمى معانيها ..

الزهد قوة ..

لأنه انتصار على دفعة الهوى .. وفورة الغريزة ..

والصبر قوة ..

لان الرجل الضعيف يجزع دائما .. ولا يتحمل تكاليف البر وأعباءه..

والحلم أو الصفح قوة ..

فالذى يصفح عن غيره واثق من قوته ..يترفع عن النزول الى مستوى الانتقام . .

وخلاصة ما يقال فى الإنسان الصوفى انه :

صامت . . ولكن فى تفكير . .

منعزل . . ولكن فى تدبير . .

ساكن كالبنيان وفى صدره مايشبه البركان !

تماما كالبدر فى علاه،

انه يمضى فى مداره ساكنا هادئا . .

وهو نفسه الذى يهيج سكينة البحار مدا وجزرا !



مفارقات

بالأمس القريب كنت أقلب صفحات مجلة .. فوجدت قصيدة لشاعر فرنسي .. وتتبعت القصيدة بيتا بيتا .. لآخذ فيها معنى يحسن السكوت عليه ..

وراعني أنها ألفاظ مرصوصة .. وليس وراءها دلالات تشير الى معنى خفي أو وطني ،،

استميحكم عذرا إذا ما تلوتها عليكم لتروا مقدارما هى عليه من تفاهة.. ثم مقدار التفكير العجيب للقرآن وهداياته .. فى الوقت الذى يفسح محرر الأدبى صدر صفحته لنشر مثل هذه السخافات:

يقول الشاعر الفرنسى .. جاك بريفييرتحت عنوان :

«افطارالصباح » :

وضع القهوة	∴	وأزاح الفنجان
فى الفنجان	∴	دون أن يكلمنى
وصب اللبن	∴	وأشعل سيجاره
فى فنجان القهوه	∴	وصنع حلقات الدخان
ووضع السكر	∴	وأطفأ سيجاسرته فى المنفضه
فى القهوة واللبنر	∴	ودون أن يكلمنى
فذابه بالملعقه	∴	ودون أن ينظر الى
وشرب القهوة	∴	قام واقفا

ووضع قبعته على رأسه ..

وارتدى معطفه

لأنها كانت تمطر

ورحل تحت المطر

دون كلمة ..

ودون أن ينظر الى (!!!)

صدقونى بربكم إن هذا الكلام ينشرفى صحيفة عربية .. لشاعر فرنسى .. ومعارك الحرية تدور رحاها فى كل مكان من الوطن العربى الباسل .. وما أحوج هذه المعارك الى الوقود الدافع المحرك لتواصل مراحل الكفاح فى سبيل نيل الاستقلال .. الأمر الذى حدا بالاستعمار - ورأس حريته اسرائيل - أن يظن بأن المسلمين ناموا عن قرآنهم .. وأخذتهم سنه الكرى فغابوا عن أصلهم ..

ووجدوا أنها أثمن فرصة لسرقة البيت وأصحابه نيام .. فحرفوا القرآن .ووزعوه على الناس.. أو بمعنى أصح حاولوا إطفاء النور .. وقطع الأسلاك . حتى اذا عم الظلام .. وضرب على أصحاب البيت استطاعوا سرقة محتويات البيت بعدما نام صاحبه أو أنيم !! .. نعم فى غيبة القرآن .. يستطيع الاستعمار أن يسرق تراثنا الفكرى والروحى.. وهو زادنا فى الحياة.. ويا ليت قومى يعلمون .. وياليتهم إن علموا .. عملوا !!

ومثال آخر .. المؤتمر الرياضى الكبير .. الذى أقيم أخيرا لانتخاب

لاعب عام ١٩٦٠ ..

وتقرأ .. وتسمع أخبارهذا المؤتمر .. والوصف التفصيلى له .. مدعما بالصور .. ونقل أحاديث النجوم بالحرف .. "صورة اللاعب الكبير وهو يشعل سيجارة .. صورة البطل فلان وهو يدلى بصوته .. منظر اللاعب الكبير .. وهويغادر مكان الانتخاب !!!

ونحن لا نكره الرياضة ولا ننقص من قيمتها : فالعقل السليم فى الجسم السليم .وإنما نحب أن تتكافأالفرص .. فتفسح الجريدة صدرها .. فتنشر على الناس ـ بهذه الصورة ـ أخبار المؤتمر الاسلامى الكبير الذى دعا اليه أحمد عبدالله طعيمه لاتخاذ إجراءات حاسمة ضد تحريف القرآن .. ولكنها لم تعطه من الأهميه مالا يساوق خطورته!!

إننا لا ننكر أبدا دور الصحافة فى نشر الوعى القومى .. ولا ننسى لها سهرها الدائم لحراسة مكاسب الثورة المباركة .. الا أن واجب النصيحة لله ولرسوله وللمؤمنين .. يدعونا الى أن نتوجه بالرجاء الى صاحبة الجلالة أن تذكر دائما أن النهضه العربية الحديثه .. ينبغى أن يكون العامل الروحى أساسا فى كفاحنا لبناء مجتمعنا الديمقراطى التعاونى ..

وبعد..

فهل اترانى قسوت على صاحبة الجلاله فى الأسلوب ؟!

قد يظن بعض الناس ذلك .. ولكنى أمسك عن الكلام ..

وأترك الكلام لرائد من رواد الحرية فى افرقيا .. وهو الرئيس أحمد توري » ليقول رأيه فى هذا الموضوع :

«أعتقد أننانقدم أجل الخدمات للاستعمار ونحن لا ندرى ! أحيانا نلعب لعبة الاستعماريين : نقول كلامهم .. نردد خطاياهم .. دون أن ندرك أننا بذلك نهزم أهدافنا ونحارب ضد مبادئنا ..

وعلى سبيل المثال .. كل هذا الذى نشرناه عن الكونجو ..

فيما تلقته صحيفتنا الافريقية .. وفيما تلقته اذا عاتنا الأفريقيه..

رسمنا للكونجو نفس الصورة التى أرادالاستعمار أن يرسمها .ويثبت فى الأذهان معالمها ..

رسمنا صورة بشعة للتأخر فى الكونجو .. رسمنا صورة بشعة للخلافات الداخلية فى الكونجو.. رسمنا صورة للجهل فى الكونجو ..

واستغل الاستعمار ما رسمناه من الصور .. وتدخل بالشكل السافر المكشوف .. وفى الأذهان .. فى أذهان الجماهير الأفريقيه نفسها كان الاستعمار يجد المبرر لتدخله ..

ان الكونجو متأخر ..

ذلك تبرير لوجود الاستعمارليفتح طاقات للتقدم ..

ان الخلافات تحكم الكونجو.. ذلك تبرير لوجود الاستعمار حتى لا تقع الحرب الأهليه .. وهكذا وهكذا ..

ولقدكان يجب علينا أن نضع المقدمات قبل النتائج :

إذا كان التأخر نتيجة .. فإن وجود الاستعمار هو المقدمه ..

وإذا كان الخلاف الداخلى مستحكما .. فإن وجود الاستعمار وجهده فى تغذية الخلاف ..هو المقدمة..

كان يجب أن نلقى على الاستعمار مسئوليته .. ولكننا تركناه يضع المسئوليه علينا .. ودفعنا نحن قائمه الحساب !!

هذا هو القرآن الكريم أيها السادة ..قد علمتم قدرته على خلق مجتمع فاضل متكامل .. وعلمتم أيضا موقفنا منه .. وكيف ساعد هذا الموقف الاستعمار واعوانه على النيل منا .. ومحاولة اللقضاء على وجودنا المادى والروحى ..

ولكن ـ والحمد لله ـ ها نحن نفتح آذاننا منصتين .. فتحس بالرياح تنقل الى أسماعنا صيحة البعث الجديد ..على لسان قادة آسيا وإفريقيا ..

إن الاستعمار وإن أفلح فى قطع صلتنا بماضينا يوما .. فلن يستطيع أن يغير منا مرة أخرى فلا يلدغ المؤمن من جحر مرتين !!

وها هى ذى الشعوب العربية والإسلامية تخرج من بين الأزمة عاملة آملة .وها هو ذا المستقبل يفتح ذراعيه لها .. ثم يعطيها مفاتيح مستقبل حر كريم

نعم هناك متاعب .. وهناك خونه لا يزالون يعرقلون سير الأحرار .. ولكنها متاعب الصحة .. وليست متاعب المرض ..

فالذى يسلم نفسه لدفء الفراش أياما سيتصلب جسمه ويتألم .. .

والذى يرقد ليالى وأياما .. يده على السلاح فى وجه الغدر ..سيناله بعض الألم ..

ولكن هناك فرق كبير بين الأثنين ..

الأول سلبى .. والثانى ايجابى .وهو ألم الصحة .. ألم الكفاح .. وليس هو تعب الكسالى والعاجزين !!

وفى كل يوم وفى نار هذا الألم المتقدمة .. تبرز دولة حرة تأخذ مكانها بين دول العالم .وهكذا بسرعةأذهلت الاستعمار وأفقدته صوابه .. وأخذ يتسائل دهشا ما سر هذه السرعة العجيبة التى ينهد بها بناء الاستعمار !

وتجيبه الصحفية الامريكية «مرجريت هيجنز»:

إن القارة استيقظت فى الساعة الثانيه عشرة الا خمس دقائق .. وهى تريد أن تلحق بالدنيا فى اليوم الجديد ..

ولكنها ـ لكى تدخل اليوم الجديد مع مواكب الأحياء .. لا بد لها من زاديمنحها الحياة والنماء ..

وخير زاد يسكب فى أعصابها عصارة الحياة إنما هو القرآن الكريم فهو أقوى رابط يجمع الأفرادفى دائرة واحده .. وهو قوة تعلو فوق روابط النسب .. والدم ..

فمن أجل القرآن .. رفض زيد بن حارثه أن يرجع مع أبيه وفضل

لبقاء مع مح محمد صلى الله عليه وسلم ..

ومن أجل القرآن .. قاتل عبيده بن الجراح آباه فقتله !!

وبذلك استطاع أن « يربط امتداد الأرض .. ويربط امتداد الأمل .. ويربط امتداد الكفاح تحقيقا لهذا الأمل »

فحى على الوحدة .. يا من تريدون القوة !!

حى على الكفاح .. يا من تطلبون الحرية !!

حى على النضال .. يامن تريدون الاستقلال ..

حى على القرآن .. تكن لكم القوه والحريه والاستقلال !!

أما بعد : فإن موقف الإنسان هو موقف الإيجابية المطلقه التى لا يتعاظمها من علوه وسفله شىء» [١]

بسلبيه مطلقه بجانب الله .. وايجابيه مطلقه أمام هذا الكون ...

ومعنى ذلك تصل نفسك بالله .. وإيمانك به فى السراء والضراء بحيث تترجم هذه الصلة الى أعمال ناجحه فى المجتمع الذى تعيش فيه .. فلا يكفى أن تتربع هناك فوق القمة .. فى برجك العالى .. عالم المثل ..

ثم ترمق الوجود المائج بالحياة بنظرات لا تغنى عن الحق شيئا ..

بل لا بد أن تشمر عن ساعة الجد .. وتأخذمكانك هناك فى ممعان المعركة الدائرة .. لتثبت أنك حقا خليفة لله فى أرضه ..

---

(١) «عن التمدن الاسلامى »

وتخرج بدوافعك من جحر نفسك الضيق الى رحبات الحياة الوسيعة فلا يتوجه حبك فقط لنفسك .. بل الى وطنك .. الى الأنسانية جمعاء ..

وعملك ينبغى أن يكون فى نفسه وسيلة الى خدمة الجموع .

وأنت فى كل حركاتك سكناتك موصول القلب اليه..

تستمد منه العون .. وبهذا اليقين حلق فى أجواز الفضاء..

وغص فى أعماق البحار .. فالكون كله مسخر لك ..مطيع ذلول تحت إرادتك ..

﴿وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعا منه ﴾

العقـــاب

« ضـرورة نفسيــة »

نفوسنا تلك التى بين جنوبنا انما هى نفوس معقدة.. وهى بمساربها ودروبها وبما تحتويه من رغبات وقوى تلتقى وتتشابك عصية على الخضوع للملاحظة والتجربة فى معامل الكيمياء!

غير أن علماء النفس استطاعوا آن يسبروا أغوارها .. ويقفوا على بعض أسرارها .

وها نحن أولاء نصغى إليهم لنتلقى عنهم بعض هذه الأسرار ..إنها مركبة من :

- نفس همجية لا تفرق بين نافع وضار

- نفس واقعية .. اتصلت بالواقع .. وخضعت لقوانينة فتهذبت وتقلمت أظافرها .

- الضـمـير : وهو الديدبان اليقظ .. يقف حارسا بين النفس الأولى «السفلى» والنفس الثانية « العليا»

فلا يسمح للنفس السفلى بتحقيق رغباتها على شكل بدائي ويحاول دائما أن يوفق بين مطالب الثانية وقانون المجتمع .

والنفس الأولى تهز الثانية من أسفل .. والضمير يهزها من أعلى !

ثم يهددها إذا استمعت الى الأولى .

فإذا تمكنت النفس السفلى من تحقيق رغباتها على صورة بدائية..

فى هذه اللحظة يحدث نوع من التوتر داخل الأنسان .. تضطرب له حياته .. ويختل من أجله ميزانه

والشعوربالقلق هذا .. يدفع صاحبه إلى محاولة التخلص منه .. ولكن بماذا ؟

بطلب العقاب المناسب للجريمة التى ارتكبها .. وربما أوقعه هوعلى نفسه .. وكان أشد من غيره إيذاءلها !

ومتى وقع هذا العقاب زال القلق .. وتقلصت ظلال الحيرة .. حيث إن الضمير حينئذ سيهدأ.. وبذلك تسترد النفس صفاءها ونقاءها .. فالعقاب إذا ضرورة نفسيه نلح فى طلبها لتعود إلينا راحتنا المفقودة .

وليس هو بدعة استنها علماء النفس واخترعوها اختراعا من ذات أنفسهم ..

وعلى ضوء ما تقدم نستطيع أن نفسر موقف « ماعز » و"الغامديه"..

فقدأعترفا بذنبهما للنبى صلى الله عليه وسلم .وعلى الرغم من رد الرسول لهما .. إلا أنهما ألحا فى طلب العقاب ..

وإذا كان لنا أن نفسر هذا الموقف من الوجهة الدينية فنرد ه إلى الخوف من الله والندم الشديد على ما اقترف .. فلنا أيضا أن نرجعه إلى هذا القلق النفسى الذى يعانيه الفرد من الداخل وبذلك تجد فى العقاب راحة تخلصها من ألم الحيرة وعذاب القلق.

ويشير قول الله سبحانه وتعالى الى تلك النفوس فيقول فى حق ..
الضمير : « بل الانسان على نفسه بصيره .. ولو ألقى معاذيره »

ويقول تعالى مشيرا إلى النفسين : السفلى والعليا :

« ونفس وما سواها .. فألهمها فجورها وتقواها .. قد أفلح من زكاها
وقد خاب من دساها »

وبناء على ما تقدم .. وإذا ما أردنا للجريمة أن تنكس رايتها .

فما علينا إلا أن نعاقب المجرم ليزول هذا القلق .. وتزول معه نتائجه
الفردية والاجتماعيه ..

وجريمة العرض التى ارتكبها «ماعز » و"الغامديه" تذكرنا بجرائم
العرض التى يرتكبها اليوم خلفاء « جيمس دين » !!

وتدعونا فى الوقت نفسه إلى أن نضرب بيد من حديد على أيدى هؤلاء
المارقين . كى نردهم إلى صوابهم .. فنحمى المجتمع من شرور هم ..

ذلك بأن الجريمة الخلقية تستمد وجودها من غريزة ناشز .. هى
الغريزة الجنسية .. والاسلام ينظر اليها نظرة خاصة .. تكافئ مبلغ خطرها
وتأثيرها فى كيان الجماعة .

ولا ننسى ونحن قائمون على قدم وساق لبناء أمتنا من جديد ..

لا ننسى الصحافة الصفراء التى مهدت لظهور خلفاء لهذا

«الجيمس دين »!!

ومن العجيب أن الصحافة الملونة التى خلقته بالأمس هى نفسها التى تحاربه اليوم ! .. ولقد كان فى أوربا «جيمس دين » واحد فأصبح لدينا - والفضل لها - ألف جيمس وجيمس !

قرأنا على صفحاتها نبأ شاب حاول الانتحار من أجل عيون أحد المغنيات .. ولم تعلق بكلمه واحده تنطوى على الأزراء بمثل هذا الهراء..

ووجدناها تفتح عيون الشباب على الشاطىء وما فيه ومن فيه .. وليت الأمر وقف عند هذا الحد .. بل إنها لتهزأ من رجل الدين إذا ما قام بواجبه أمام هذا العبث ؟

نعم .. قرأنا أخبارها فألفيناها تدور جلها - إن لم يكن كلها - حول أهل الفن ولون معيشتهم الداخلية والخارجية .. فى حين أنك لو ذهبت لترفع شكوى من أجل مسجد تهدم فقد لا تمكن من ذلك إلا إذا دفعت اجرا يوازى ثمن إعلان عن نوع من الخمور جديد !!

فلماذا والحاله هذه لا يظهر «جيمس دين » فى المصنع والمكتب والمدرسة ؟

لماذا لا يجرى التميع فى عروق الشباب ما دامت تلك الصحف تقدم لهم الوجبات الشهية بدون مقابل !

ولقد أصبح موقف رجل الدين كما يقول الأستاذ محمد الغزالى . كرجل يقف على شاطىء البحرالأحمر .يريد أن يغير طعمه بجوال من السكر !!

فإذا أردتم أن يختفى «جيمس دسن » وكنتم صادقين فى دعوتكم هذه .. فلتختف جرائدكم من الوجود .. إن كنتم صادقين !

هذا أول .. وثانيا : قفوا تيار التبرج السافر عند حده .. فالفتنة نائمة ولعن الله من أيقظها ..

إننا نشاهد المرأة تسير فى الطريق فى ثوبها الشفاف .. فيصعب على العقل أن يحكم بأن وراء هذه المرأه رجل له حظ من شرف أونصيب من كرامة !؟

وعندما نقرأ قوله تعالى :

﴿ ولاتبرجن تبرج الجاهلية الأولى ﴾

سترتسم فى خيالنا صورة بشعة للمرأة فى الجاهليةومبلغ خروجها على الذوق والآداب .. وفى وجداننا إحساس بأن نساءنا مهما بلغت من الجرأة .. فلن يلحقن بالجاهليات فى هذا المضمار!!

ولكن استمع معى إلى المفسرين وهم يبينون لناتبرج المرأة فى الجاهلية .. لنفرق بين جاهليتنا وجاهليتهم :

قال قتادة: كانت لهن مشية فيها تكسر وتمايل ..

وقال مجاهد : كانت المرأة تخرج وتمشى بين الرجال ..

وقال ابن كثير : كانت تخرج كاشفة عن صدرها وربما أظهرت عنقها وذوائب شعرها .

هذه صورة عامة للتبرج فى الجاهلية .. وأين هو من تبرج بعض نسائنا اليوم؟

إن المرأة فى هذا العصر .. لم تكتف بالمشى بين الرجال .. ولكنها تأكل معه .. وتنزل البحر معه .. ويستلقيان على الشاطئ الممتد تحت أشعة الشمس وهبات النسيم ..

وفى الجاهلية الأولى كانت تكشف عن صدرها .. أما اليوم فقد أبرزت صدرها .. وساقها .. وشعرها .. وأصبح لبسها كثوب الرياء .. يشف عما تحته !!

ويكفى أن تمشى على شاطئ البحر مرة لترى الفضيلة هناك ثكلى .. تندب حظها التعيس ..

واقرأ معى « أضخم » استفتاء تقوم به مجلة الجيل الجديد بين طلبة الجامعات لترى أن : ٧٠٪ من الفتيات / و ٦٠٪ من الطلبة فى حالة حب!

وتنشر المجلة مثل هذا الكلام .. دون أن تستوحى رسالتها التى آسست من أجلها فتنطق بكلمة حق أمام هذا التيار الجارف !!

بل إنها لتفتح صدرها .. وتحشر كل امكاناتها .. من أجل موضوع تافه كهذا .. يضيع فى لحظة واحدة . ما يبنيه زعيمنا فى عام : زعيمنا يسافر الى الهند .. ثم الى الباكستان .. ثم الى اليونان .. فيرفع بذلك كلمة الاسلام .. وكلمة العرب .. ولكن هذه الحملة تنسى .. أوتتناسى أن تعيش فى جو هذه الاحداث التاريخيةالتى تصنع مستقبلنا .. وتصوغ مجدنا ..

وتتحدث عن القلوب والحب .. وعن الحب من أول نظرة ..وعن النظرة كرسالة القلب إلى القلب !!

والقصة كلها تتلخص فى كلمات :

نظرة .. فابتسامة .. فسلام .. فكلام .. فموعد .. فلقاء فخراب بيوت ؟

إننا فى حاجة الى حملة تطهير واسعة النطاق ..

فجميل من ولاة أمورنا أن نحتفل معهم بأسبوع النظافة .. حتى تبدو الطرقات نظيفة تشرح الصدر وتسر النفس .. فالبيئة النظيفة انعكاس للوجدان النظيف ..

وأجمل من هذا أن تتوجة الحملة إلى داخل النفس .. الى منعطفاتها الملتوية فتسلط عليها الأضواء .. وتمد الضمير بألوان من التهذيب والمعرفة .. حتى تخرج جيلا نظيف القلب .. عفيف النفس .. فيعكس صفاءه على الحياةنفسها ..

نفعل هذا وبأيما نا «درة » عمر العظيم .. وفى قلوبنا عزيمتة التى لم تلن أمام أحداث الحياة .. ولم تأخذها فى الحق لومه لائم ..

وبها عاشت مبادئ الاسلام حيه فى قلوب المسلمين .. وكان هناك شيئ اسمه : الكرامة الأنسانية !

لا يكفى أن نشرح الفضيلة للشباب بطريقة ذهنية عقيمة..

ولا يكفى أبدا أن نبين لهم عواقب الرذيلة بصورة نظرية باهته ..

دون تعرض لعقاب .. وهو نفس اتجاه بعض علماء التوبية فى عصرنا الحاضر .. بل لا بد من العقاب ..

وقد أخذ الاسلام بهذا المبدأ .. فقرر علماؤ ه ضرب الطفل وهو ابن عشر إذا ترك الصلاة . وهذا هو الدكتور « بنجامين سباك» عالم النفس الأمريكى يقرر أن الضرب أمر ضرورى فى تربية الطفل .

وأنه بحث حالات كثيرة فوجد أن أقوم الشباب خلقاهم الذين كانوايضربون فى صغرهم جزاء أخطائهم .

وإن أفسدهم خلقا وأضعفهم شخصية من سلم من الضرب صغيرا .

ومع هذا يجب أن تسلط الأضواء وتبذل الجهود لتطهر الضمير هذا الحرس اليقظ .. حتى يستطيع أن يؤدئ رسالته النبيلة على خير وجه وأكمله يجب أن تساوق جهودنا لرفعته دوره الخطير الذى يقوم به فى بناء حياتنا

ومتى تخلص الضمير من أو شاب الحياة .. ومتى تركزت فيه خصائص القاضى النزيه والحكم العدل .. أصبح صراطا مستقيما ننقل عليه خطانا فى ثبات .. فلا تزل قدمنا فنقع فى بئر رغباتنا الهابطة فلانشعر بمن حولنا .. ولا نقع فى معمعان المجتمع الصاحب فننسى نفوسنا بما لها من حقوق وماعليها من واجبات ..

« إن الناس حين يفقدون الضمير لا يغنيهم عنه شيئ .. فالضمير الانسانى قبس من نور الله . لا يكون للناس هدى بغيره ..

وكل فضيلة تنقلب نقضا .. وكل خير يصبح شرا .. وكل عقل يصير

خبالا.. ما لم يكن لناس من ضميرهم هاد .. - ...

مثلهم فى ذلك مثل المدينة المظلمة :

إذا طلع عليها القمر كانت معالمها ومبانيها هدايه لأهلها .. تريهم أى طريق يسلكون ..

أما إذا أظلمت عليهم حقا .. فإن هذه المعالم الجميلة .. والمبانى الرائعة تصبح كلها عقبات وعثرات يصطدمون بها فتؤذيهم وتضلهم ..كذلك الناس فى حياتهم :

إن يشرق عليهم الضمير .. تكن فضائلهم رشدا .. وإن يظلم عليهم يكن كل ما فيهم من عقل وخير وبا لا عليهم » [1]

وأين هو الضمير الذى يربيه الأسلام فى الأنسان ليتخلص من دوافع الجريمة ؟

لعل أجمل لوحة فى تاريخنا الاسلامى تصور لنا هذا الضمير فى بهائه وصفائه تلك الحادثة:

استعمل عمر رضى الله عنه « النعمان بن مقرن » على كسكر » ليجمع الزكاة من أهلها .. وليس عليه رقيب أو حسيب إلا ضميروحده .. وفى استطاعته أن ينهب ويسلب ما شاء له النهب والسلب .. وطرق التخلص من المسئولية كثيرة .

---

(١) من كتاب « قرية ظالمة » للدكتور محمد كامل حسين .

ولكن النعمان العظيم يتحرك ضميره . . فيرى المال الكثير ..

والمال الكثير دائما يطرق القلب فى إصراروغوايه .. فيكتب إلى عمر قائلا:

«يا أمير المؤمنين : إن مثلى ومثل كسكر .. كمث رجل شاب عنده مومس تتلون له وتتعطر .. و إنى أنشدك الله أن تعزلنى عن كسكر .. وبعثتنى فى جيش من جيوش المسلمين » !!

لك الله أيها النعمان العظيم !

إن قصف المدافع .. والدم المسفوك .. وأهوال المعارك .. كلها تهون .. بل هى أهون بكثير من خطيئة يرتكبها الأنسان فتلوث صفحة الضمير البيضاء ..

ولتذهب يانعمان إلى أرض المعركة .. ولتقطع يدك .. وقدمك.وليدق عنقك دقا .. ولتهزم فتدوسك الخيل المنطلقة فى ميدان القتال .. كل ذلك يهون ..

لأن هزيمة الأنسان فى معركة الحرية فيحيا وهو ميت ..

خير من هزيمة الضمير أمام المال فيموت الأنسان وهو حى !!

وما أروع ما سطره الشاعر « أحمد الزينى » يصف سلطان الضمير

هو صوت السماء فى عالم الأرض ..

ض وروح من اللطيف الخبير

وشـــعـــاع تذوب تحت سناه

خدع العيش من رياء وزور

هو ســر يحــار فى كنهــه اللــ

ــب وتعيابه قوى التفكير

كل حى عليــه منه رقــيب

حل من قلبه مكان الشعور

حل حيث الأهواء تنزو إلى لأثــ

م وتهفو إلى مهاوى الشرور

جامحات أعيت الناس كبحا

رغم إنذارها بسوء المصير

ثم صاح الضمير فيها نذيرا

فأصاخت إلى صياح النذير

هو روح من الملائك يسمو

بسليل الثرى إلى عالم نور

قد تولت بالأنبياء عصور

وهوباق على توالى العصور

حافظا فى الزمان ما خلفوه

قائما فى الصدور بالتذكير

حاملا من شرائع الخير كتبا

قد ست من صحائف وسطور

ليس يعفو عن الهنات وإن ها

نت ملح فى اللوم والتعزير

وإذا كان الضمير قبسا من نور الله .. وإذا كان رقيبا وحسيبا يثبت الأنسان إذا أصاب .. ويؤنبه إذا غوى ..

فإنه ـ لكى يقوم بمهمته تلك ـ لا بد من مقومات يستمد منها أسباب بقائه ونمائه ..

وفى استطاعة الضمير أن يحل مكان السلطة القائمة .. ومحل العرف والعادة فى مجتمعه ..إذا ما وجد القلب المتصل بالله .. الذى ربطته بالسماء أسباب .. فأمد الضمير بروح من عزه .فقاد الإنسان على هدى وبصيره ..

والإنسان بغير قلب : كومة من اللحم والدم والعظم .. ثم هو بالقلب : قوة بانية تقول للشئ كون فيكون !!

القلب :

هذا الخافق المعذب !

هذا الانسان بحجمه الصغيروعمر القصير .. بالنسبة إلى الارض التى تقله والسماء التى تظله .. قشة حائرة تذروها عواصف الرياح .. وعمره القصير فى هذه الدنيا معدود .. وهو بالنسبة للزمن الممتدد ومضة .. أوسحابة صيف !

وهل تعرف العناصر التى يتركب منها هذا المخلوق العجيب ؟

هذا إحصاء دقيق وضعه بعض الاطباء عما يشتمل علية جسم الرجل العادى – نقلا عن مجلة الهلال

١٢ جالون من الماء ..

أوكسيجين .. إذا حول غازا صارت كميته ٩٠٠٠ جالون

٧أرطال من النيتروجين .. كمية من الملح تملأخمسين أوستين " ملاحة " ادروجين يكفى لتطبير بالون فوق جبال الالب .. كمية من الحديد يمكن أن يصنع منهامسماران طويلان ..

فسفور يمكن أن يصنع منه ١٠٠٠٠ عود ثقاب .. رطلان من السكر .. جرعة من الجنيزيا .. دهن يكفى لصنع ٥قطعة صابون .. جير يكفى لتبيض حجرة صغيرة كربون يمكن أن تصنع منه ٧٢٠٠ قلم رصاص ..

كبريت يكفى لتنظيف كلب من البراغيث التى تعيش فى فروته

ثم سرى الروح الالهى فى تلك الكومة المادية.. فغدت هذا المخلوق العجيب بأفكاره ومشاعره واشواقه ! فطبيعته مزيج من كدرة الارض ونور السماء .. وبناء على هذا فعنده الاستعداد لأن يكون أخطر الكائنات قدرا .. وأن يكون أيضا أعلاها مقاما !

وكما تلتقى ظلمة الليل المدبر ببياض النهار المقبل .. التقت فى نفسه المتناقضات :

إنه نور ونار .. حنان وقسوه .. رحمة وانتقام ..

دواؤك فيك وما تشعر وداؤك منك وما تبصر

وتزعم أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الاكبر

فحيث كان الانسان سيد الحياه .. فقد تمثلت فيه كل خصائص الحياه :

فيه شراهه الدب .. وعفة الملائكة ..

فيه ضراوة الوحش .. ووداعه الحمل ..

فيه وغان الثعلب .. وبراءة الطائر ..

فيه رقة النسيم .. وزئير العاصفة !

ولكن بأى شيء يتخلص الأنسان من جوازب الأرض .. ليسمو بروحه إلى الملإ الأعلى ..

إن فى استطاعة هذا المخلوق الضعيف أن يكون فى الحياة شيئاً مذكورا .. فى استطاعتة أن يكون سيد الحياة ..

فى استطاعه فقير مثلى ومثلك أن يتحول من ذرة تافهة .. فى فضاء الكون الى عملاق يملأ الفضاء طولا وعرضا !

هل تصدق ؟

رجل واحد .. فقط أكبر من الدنيا بمافيها !

ليس هذا الرجل صاحب ضياع تهمهم فيها الخيل .. آوتورق فى أكنافها جنات من أعناب ونخيل ..

وليس هو بطلا شجاع القلب يقتحم الصفوف قاهرا آسرا ..

وليس هو سلطانا ضخم الموكب .. لامع التاج .. ولكنه شخص عادى .. قد يكون أنت أو زيدا أو عبدا من عباد الله الفقراء !

لن أطلب منك المستحيل فأكلفك أن ترقى إلى السماء بسلم ..

إن الثمن ازهد بكثير من هذا .. امدد يدك فى سماحة ورضا .. والتقط بها شيئا من مالك أو متاعك .. ثم تسلل فى رفق .. بعيدا عن الرقباء وامنحه فقيرا كسيرا .. لتسهم به فى بناء حياة إنسان مثلك .. فإذا فعلت هذا فسر على الارض .. لا بل ضع قدميك على جبين الحياة !

وخير دليل نسوقه كشاهد على هذه الدعوى ما قصه علينا الخبر :

عندما خلق الله الارض .. جعلت تميد وتتحرك .. فلما خلق الله عليها

الجبال سكنت وهدأت .

فقالت الملائكة :

ربنا خلقت خلقا أعظم من الجبال ؟

قال نعم : الحديد ..

فقالوا : ربنا خلقت خلقا أعظم من الحديد ؟

قال نعم : النار ..

فقالوا : ربنا خلقت خلقا أعظم من النار ؟

قال نعم : الهواء

فقالوا : ربنا خلقت خلقا أعظم من الهواء ؟

قال نعم : ابن ادم .. يتصدق الصدقة بيميئه .. فيخفيها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه "

إن صدق العاطفة التى تكمن وراء الصدقة .. ونبالة الشعور الدافع إليها وذلك عندما يبذلها الانسان بعيدا عين اعين الرقباء محيز دليل على أن القلب متى صدقت نيته .. وخلص من دواعى الهوى ارتفع بالانسان ليتربع فوق قمة الحياه ! لخير ضمان لقبول تلك الصدقة .. بل وارتفاع الانسان بها ليتربع فوق قمة الحياة !

فليس المهم هو الكم.. ولكن المراد هو الكيف .. فقد يتصدق إنسان بألف جنيه .. ولكنه كاره لهذا البذل مجبر عليه .. ومن أجل ذلك لن ينال من

الثواب حسنه واحدة !

وقد يبذل إنسان اخر درهما واحد .. غير انه صدر عن عطف اصيل ورغبه صادقة فى نجدة الغير .. فيصبح هذا عند الله أكبر من الالف وأكبر!!

فالمدار على نية القلب .. وهو وحده مركز الثقل .. وبه وحده ترجح كمفة الاعمال .

أرأيت إلى الكوب وقد امتلأ ماء ؟

إن الريح العابر لابستقر فيه ابدا .. وجود الماء يمنع دخول الهواء .. وهذه حقيقة يؤمن بها العقل والقلب معا ..

حتى إذا خلا الكوب من الماء .. استطاع الهواء أن يجد لنفسه مستقرا ومقاما .. وكذلك قلبك إيها الانسان :

فعندما يمتلئ بما فى الحياة من نفاق وشقاق .. وطمع وجشع .. وحقد و حسد.. فإن رياح الإيمان لا تهب عليه .. والأنوار التى يصطفى الله بها عباده ستنحسر عنه .. وتعيش بعدها فى ظلام مخيف .."ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها

وياويح إنسان تخلت عنه رعاية السماء؟!

انه ضعيف .. ولو كان مفتول العضلات ..

فقير .. ولو امتلك ملء الأرض ذهبا ..

غريب ولو كان يعيش بين أهله وذويه ..

وحيد..ولو التف من حوله الأتباع والأشباع !

وكل أعماله ومكارمه .. عمله زائفة..لأنها «شيك » بلا رصيد !!

والفلاح الكادح قد ينام ليلا على أنين الساقية .. وتنطلق وحوش الأرض وهوامها.. وتمر به .. ومن تحته.. كصديق حميم تحييه وإن لم يرد السلام !!

وقد تتخلى عناية الله عن أمير يعيش فى قصر حوله الجند شاكى السلاح..ولكن بعوضة صغيرة ..« تنقض» عليه انقضاضا..ثم تسلبه الحياه فى لحظة !!

وعندما تتخلى أنوار السماء عن انسان .. فإن دوامة الشهوات ستذهب به .. بعيدا ..الى حيث لا يعود الذاهبون .. الى حيث ينادى فلا يجيب .. ويدعى فلا يسمع .

وحيث ابتعد الإنسان عن مصدر الإلهام .. اختلطت عليه القيم ،، تشابه الخبيث والطيب ..الجميل والقبيح .. الرفيع والوضيع ..

تماما كرجل يقف على أرض منخفضة بجانب جبل .. وعلى قمة هذا الجبل يقف رجل جميل الوجه .. وآخر قبيحه !..

إنه لبعده عنهما .. لا يستطيع أن يميز الخبيث من الطيب .. وهو فى حاجة إلى أن يرتفع قليلا قليلا .. حتى إذا اقترب منها ميز بينهما .. فجاء حكمه سليمان

وعندما يرتفع القلب .. ليعيش فوق مستوى الدنيا بشهواتها ..

ويتخلص من طمعها وجشعها .. ونفاقها وشقاقها .. فإن رياح الايمان ستهبط عليه .. وتحل فيه .. وستربطه بالسماء أسباب .. فإذا هو شيء آخر إنه قوى .. ولو لم يكن له اتباع وأشياع .. عزيز .. ولو لم يعره الناس التفاتا .. غنى .. ولو لم يجد من متع الحياه إلالما ما .. وسيصبح مسلما حقيقيا كما اراده الله تعالى .. مسلما إيجابيا يصفه لنا الدكتور محمد اقبال فيقول : " يمتاز بين أهل الشك والظن بإيمانه ويقينه .. وبين أهل الجبن والخوف .. بشجاعتة وقوته الروحيه .. وبين عباد الرجال والاموال والاصنام والملوك .. بتوحيده الخالص .. وبين عباد رالاوطان والالوان والشعوب .. بآفاقيته وانسانيته .. وبين عباد الشهوات والاهواء والمنافع .. بتحرره من الشهوات .وتمرده على موازين المجتمع وقيم الاشياء الحقيرة ..

وبين اهل الاثرة والانانية .. بزهده وايثاره وكبر نفسه .. انه الذى يعيش برسالته .. ولرسالته .. ذلك المسلم الحق .. الذى لايزال هو الحقيقه الثابته التى لاتتغير مهما اختلفت الاوضاع وتطورت الحياه "

إن قلوب الابرار من عباد الله كالمدن .. كل قلب كمدينة ـ كما يقول ابن عطاء الله السكندرى ـ سورها نور الله .. وقلاعها مقامات اليقين .. والشيطان يطوف بالقلب فلا يجد ثلمه فى السور ولاضعفا فى القلاع .. فليس للشيطان إليهم سبيل ولاله فى داره مقيل ..

" أن عبادى ليس لك عليهم سلطان "

" اتقوا فراسه المؤمن فإنه ينظر بنور الله .. بالقلب الانسانى إذا .. تستطيع آن تتحول الى عملاق .. الا أن فى الجسد مضغة : إذا صلحت

صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله .. الا وهى القلب .. إننا لا إنتلا نسوق هذا الحديث مدفوعين بخيال شاعر أو نزعة أديب .. ولكن واقع الحياه يؤيدنا فيما نقول .. ولايرتفع القلب الطاهر بالانسان فوق الحياه فقط .. بيد انه ينطلق به عبر السماء ليهز العرش هزا !!

ذات يوم دخل الرسول صلى الله عليه وسلم داره .. فوجد عبدا له يسمى .. " ثوبان " وجده مهموما .. كاسف البال حزينا .. ويسأله الرءوف الرحيم عن حاله !

ماذا دهاك ياثوبان ؟

هل ضاع مالك ؟ هل جاع عيالك ؟

ويتطلع إليه ثوبان بعين ضارعه باكية .. ثم لا يتكلم !

لقد كان يعيش فوق مستوى المال والبنين .. كان يحلق بخيالة فى رحاب السموات بجنانها وأنهارها وأشجارها ..

آن المال لم يكن ليشغله عن الرسول ابدا .. فالمال عصفور فوق غصن

يطير فى هذه اللحظه .. ثم يعود بعدها .. ولم يكن نعيم الحياه كله ليحرق من أعصابه شيئا .. ثم يلتفت الى الرسول هاتفا بكلمات تكاد تخفيها العبرات ..

يا رسول الله : أنا أحبك .. كل ذرة فى دمى .. كل خلية فى جسمى تحبك .. وأنالااطيق فراقك لحظة واحدة .. واذا ما حدث وغبت عنى يوما

فإنى أعزى نفسى الولهى بل قاء قريب .. ولكن الذى ابكانى واشجانى هو هو وضعى .. فى الاخرة !!

أنا عبد .. فقير .. أسمر .. وبين الجماهير المنتشرة ضائع ..

أما أنت يارسول الله فمكانك من الجنه أعلى درجة فيها ..بينما أكون أنا فى الزحام فكيف أطيق البعد عنك .. كيف يستقر قلبى بين ضلوعى .. وبين مرتبتى فى الجنه ومرتبتك بعد بعيد !؟.

وسكت ثوبان .. وسكت الرسول .. ثم تكلمت السماء .. وينزل جبريل ترف آجنحته البيضاء فوق هضباب مكه .. ثم أوحى إلى النبى بهذه الايه الكريمة ..لترد على إلى ثوبان الحائر بهجته الغاربة :

﴿ ومن يطيع الله والرسول فآلئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا .. ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليما ﴾

وياليت قومى يعلمون .. أن ثوبان هذا عبد فقير .. أشعث أغبر ..

لامال .. لاولد .. ومع ذلك سما قلبه فاتصل بالله .. فاستطاع أن يسود الحياة .. وما الحياة .. ما الشمس .. ما القمر ؟!

إنه تخطى هذه الدنيا .. ثم هز بقلبه العرش هزا .. فنزلت الآى تترى !!

وصدق الرسول الكريم إذ يقول :

" رب آشعث آغبر لو أقسم على الله لأبره "

القلب إذا كنز .. وأنت أيها الانسان تحافظ على بيتك .. وتحميه من سطوة اللصوص .. وتحمى قمحك من هجمة الغادرين .. فأى شيىء اعز عليك من قلبك .. وهو سر وجودك .. بل سر خلودك ؟!

إنك فرطت فيه مع الاسف .. وإنك لتسمح للسهام المهلكات أن تخترقه فى كل لحظة .. فتموت وأنت لاتدرى !!

قد يصيب غيرك نجاحا .. فتسمح لسهم من الحقد أن يخترق قلبك !

وتلد زوجة جارك ذكرا بينما تلد زوجتك أنثى .. فيملا الهم قلبك !

لم تعلم بأن ذلك يرجع الى حكمة الهيئه عليا لاتعرفها أنت .. والله سبحانه وتعالى ﴿ يهب لمن يشاء إناثاويهب لمن يشاء الذكور ﴾

أرى ولدالفتى عبئا عليه   لقد سعد الذى أمس عقيما

فإما أن تربيه عدوا   وإما أن تربيه يتيما !!

ومع هذه الهموم التى تتهدد قلبك .. يتحول الى مرآه مقعره محدودبه : تمر الحقائب أمامها .. فلا تأخذ أشكالها الحقيقية .. فبعضها يعظم جدا .. ويصغر الاخر جدا .. وانت واهم فى كلتا الحالتين !

وينبغى أن تتقدم بإرادتك الماضية فتضع حدا لهذا الصراع !

تقدم وانتصر لقلبك المفترى عليه .. وحارب نفسك الامارة بالسوء فهى عدد ذلك لدود .

ثوروا على النفس ..

قبل أن تثور

الصراع بين النفس والقلب .. قديم قدم الحياة نفسها .. وكل منهما يريد أن يقود الانسان ليكون فى خدمة أغراضه وامانيه ..

النفس الامارة بالسوء تجذبك إلى الارض بما تزينه لك من شهوات ومباهج .. والقلب يصعد بك فى السماء ليصلك بالله .. حتى تتحسس بروحك مدارج الكمال والجمال .. وتمرح الروح فى سرحها الخصيب فى الملأ الاعلى .. كما كانت قبل أن تسجن فى هذا الجسد العتيق .. رقة كالماء يجرى .. خفة كالضوء يسرى !!

وللقلب جنود .. وللنفس جنود ..

أما جنود القلب فهى :

كما بينا آنفا نور يقذفه الله تعالى فى قلوب المصطفين من عبادة .. فإذا هم قوة خلاقة بانية .. تعمر الارض وتصنع المستقبل ..

آما جنود النفس فهى :

شح مطاع .. وهو متبع .. وإعجاب المرء بنفسه .. ومتى آحيط الانسان بهذا الثالوث البغيض ..اهتزت فى ناظرة القيم والفضائل .. فإذا آجهزة الارسال معطلة : فلا ينطق لسانه بكلمه رطبة تهدى حائرا .. أوفكرة نيرة تبهج الحياة .. وتتعطل فيه ايضا أجهزه الاستقبال : فلا يؤثر فيه وعظ .. ولاينصاع لمرشد آمين :

لقد أسمعت إذ ناديت حيا   ولكن لاحياة لمن تنادى

وإذا رأيت ثم .. رأيت النفس وقد شهرت أسلحه الرغبات .. وسيطرت بهذه الاسلحه على ارض المعركة .. والقلب هناك يستنجد .. ويستنهض الارادة لتنطلق .. وترسلها صيحة مدوية تقطع على تلك الرغبات المسعورة طريقها .. بيد آنها منكمشة عاجزة .. أمام هذا الطوفان الغامر .. لاتملك من امر الانسان شيئا .. ونحن مطالبون والحالة هذه أن نشحذ لهمم .. ونوقظ الضمائر المؤمنه .. وأن نفتح أعيننا على الخطر المحدق بنا .. لنرى الا عيب النفس ومكرها بالانسان .

وعلى أساس هذه المعرفة نستطيع أن ننتصر بقلوبنا عليها فتصفو لنا الحياة .. والانتصار على النفس وهواها مطمع بعيد المنال .. وما بعث النبيون وآرسل المرسلون إلا من اجل هذه النفس وتهذيب رغائبها .. وتسخير قوها لصالح البشر .. بدل أن تندفع قوة عمياء مدمرة .. لاتذر من شيىء أنت إلا جعلته كالرميم .. إن نفسك أعدى أعدائك .. لان عدوك يسلبك سعادة مؤقته .. أما هى فتحرمك سعادة الابد !

فليس من الغريب أن يكون انتصارك على عدوك أيسر من انتصارك على نفسك الامارة هذه !!

لانك تستطيع آن تحاور عدوك وتداوره متأكدا من عداوته لك .. أما نفسك .. فهى ترتدى لك ثوب الصديق .. فتبدو ناصحة أمينه .. فتزين لك مطالبها .. وتقدمها لك فى صورة تقبلها وترتاح إليها :

تصور لك التهور قائلة :

إنه شجاعة .. وتريك إيذاء الناس " فتوة " .. ومدا هنتهم سياسة !

وتريك البلادة رزانه .. والثرثرة بلاغة .. وإذا بك من حيث لا تدرى فى هوة سحيقة مالها من قرار ..

وهنا أذكر الحكمة القائلة :

" كل شيىء يعوزنا إذا ما أعوزتنا نفوسنا "

فأذا ما تمردت النفس .. وولغت فى حمأة الخطايا .. إذا ما أفلت زمامها وشلت الارادة أمام قوة اندفاعها فسنخسر كل شيىء تملكه ايدينا .. وسيفصلنا عن الفضائل برز برزخ كبير !

لن نحس لذة الصدق .. لانها لاتطيقه !

لن تتذوق طعم الصراحة .. لانها ليست لغتها .. لن تشعر بدافع الكرم .. لأنها احضرت الشح .. لن نعتنق مبدأ الاتحاد .. فهى تفرق بين الأخ وآخيه . وصاحبته وبنيه .. ولن نتفيأ ظلال الحب .. لانها لاتنمو إلافى لهيب الاحقاد !

وتصور معى إيها القارىء العزيز مجتمعا ثارت فيه النفس .. فقضت على تلك القيم جميعا ؟!

ألا يستحق منا عطفا ؟!

ألايستحق منا أن ندق اجراس اليقظة فى فجاج الارض جميعا ..

لتصحو القلوب من غفوتها .. وتسد على الشهوة الملحة الطريق ؟ إن الصواريخ الموجهة عبر السموات .. وحول الشمس والقمر .. لن تفجر فى قلوب البشر ينابيع الرضا .. والسعادة .. ولن تدفعهم الى غد اسعد .. ومستقبل أرغد ..

فإذا ما نافس الطيور وهزمها فاخترع الصواريخ .. وإذا ما نافس الأسماك .. فأنشأ الغورصات .. وإذا ما اتخذ من الجبال بيوتا ومن الوحوش الضاريه مركبا .. إذا ما فعل كل هذا .. فلا يركبنه الغرور .. فلم يزل مع هذا طفلا يحبو .. على اربع .. ويجب عليه أن يكبر .. وينتصر على نفسه أولا .. وقبل كل شيء ومن هذه النقطة بالذات .. يستطيع أن ينطلق فى أمان .. وأن ينادى فى سمع الزمان : أنا خليفة الله فى ارضه !!

إن مشكلة الانسان كما صورها بعض العلماء تتلخص فى انه يتقدم فى أسباب قدرته اكثر مما يتقدم فى اسباب حكمته :

فهو قد أغلق الابواب فى وجه الدوافع الشريفة .. التى تزرع فى القلوب ازاهير الحب والسلام .. وفى الوقت نفسه .. فتحه على مصراعيه .. واطلق العنان امام غرائز السيطرة والطموح .. هذا الطموح .. يمتطى ظهر القوة العنيفة الساحقه .. ليوجه القنابل .. ويطلق الغازات السامة الخانقة لتحصد الارواح البريئة .. ثم إذا هتفت قلوب رحيمه :

الذرة فى خدمة السلام .. تتقدم الحكمة .. يتقدم القلب الحانى .. ليمسك بالمطيه الخطره .. فتشرد .. وتتمرد.. وهيهات ان يصل بها الى شاطىء النجاة !

وهنا أقرر مع جان جاك روسو : إن العلم والمدينة .. سبب فى تدهور الاخلاق .. وحيث فشل العلم .. وفشلت المدينة الحديثه فى حل مشكلات العالم وحماية السلام الجريح .. فما على الدين الان يتقدم .. ليقود القافله إلى الغاية التى خلاق الانسان من أجلها .. إلى غاية الغايات .. ومنسئ الكائنات .. إلى الله عز وجل .

فلتتعانق قلوبنا .. ونمضى معا .. على الطريق .. نتخطى رغبات نفوسنا فى عزم واصرار :

ليس فى الوقت فراغ فاعتزم   واملأ الدنيا بأعمال شريفة

أنت نور الارض تهدى أهلها   لن يرى غيرك فى الارض خليفه

ولايمكن أن نتخلص من أوشابها بدون قائد نستهلمه الرشد والهداية .. وخير دليل لنا على الطريق هو كتاب ربنا الكريم :

﴿ وننزل من القران ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ﴾

ولكن القرآن الكريم ليس الفاظا تتلى .. والحانا توقع .. وإنما هو حقائق .. وايمان راسخ بهذه الحقائق .. حتى تتحول الى حركة ملموسه تراها العين .. وتلمسها اليد .. ويسجلها التاريخ .

فى القرآن الكريم دعوة الى الصدق : فيجب ان يكون إيماننا بالصدق أقوى من إيمان الاستعمار بالكذب ..

والقرآن يأمرنا بالعزه ويربينا عليها .. فيجب آن يكون إيماننا بالعزة أعمق من إيمانه باستعمارنا واستذلالنا ..

وذلك هو سر انتصار المسلمين في القرون الاولى :

وجاء القرن العشرون .. وشهد العالم مولد ثورة مباركة على آرض النيل .. وفى سجوة الليل قادها رجل منا لم يكن يحتمى فى قوة مادية تسنده وتشد ازره .. وانما كان فى جيبه شيئ صغير الحجم كبير الخطر .. إنه المصحف الشريف !!

لقد أيقن الزعيم الواعى أن القرآن يأمر بالحريه : فكان ايمانه بالحرية أقوى من إيمان الاستعمار بالفوضى .. فانتصرت الحريه .. وعلم أن اساس دعوة هذا الكتاب هو التوحيد .. فكان ايمانه بوحدانية الله اقوى من إيمان المحرين بهواهم !

فانتصرت قضيه التوحيد .. وآمن بدعوته الى الوحدة وحثه عليها .. فرسخت في فؤاده وضربت جذورها فى قلبه .. ثم عكسها على دنيا العرب .. فإذا النشاز المتنافر .. لحن الى متناغم . وخير شاهد على هذا .. يوم آن عتلى منبر الازهر المعمور وكان صوته اعلى من ضجيج الطائرات .. وصخب القنابل .. ذلك بانه يستمد قوته من ثقته بنفسه .. وبعدالة قضيته .. ومن ثقته فوق كل هذا بالله تعالى ..

فهل ترسمنا هذه الخطى الرشيده ؟ وسعينا لها سعيها ؟

اننى آعلنها - والحسره تسرى فى دمى - اننالم ننفعل حتى الان بالدور الذى جاء القرآن العظيم به .. ولا يزال بيننا كتابا نقراه فنحفظه ..ولا نتعدى معانيه ومفاهيمه فراغ الفم .. وفراغ الآذان!!

لم تعمل على ان تتخذ منه رائدا لنا فى حياتنا كى نسور هذه الحياه كما اتخذه آباؤنا الاولون من قبل .. فسادوا .. وتركوا من بعدهم ميراثا من المثل العليا .. لاينال منه الجديدان .. ولايبلى على مدار الزمان ..

وهذا هو الفارق بيننا وبينهم .. وانا اتساءل مع الداعيه الكبير الاستاذ محمد الغزالى :هل سمعتم محطة "صوت امريكا " أو محطة لندن ! إنها تذيع القرآن الكريم موجها الى المسلمين !

ودعوا افكاركم تذهب معى الى الماضى تتخطى القرون .. لنرى قريشا وقد ضربت حصارا شديدا حول بيوت أصحاب محمد .. حتى لاتتسرب آى القرآن العذبه إلى قلوب شباب قريش فتأسرها !

واليوم .. يوجه لنا أعداء القرآن اياته فى كل يوم مرة او مرتين .. إن قرآن اليوم .. هو قرآن الامس .. فما الذى دعاهم الى إرسالها إلينا نحن المسلمين ! ذلك .. لانه إذا كان القرآن هو القرآن .. فأن المسلمين ليسوا هم المسلمين !! إن اسلافنا الاولين .. لم يعتنوا بألفاظ القرآن بقدر اعتنائهم بتحقيق مدلولاتها : كان الواحد منهم قرآنا يمشى على الارض .. وحقائق الكتاب الكريم تتحول فى قلبه إلى مبادىء تفرض نفسها على الحياه فرضا .. فهم إذا آناس جادون .. فعمل لهم العدو آلف حساب .. أما نحن فلا نملك فى عصرن هذا الاتحريك لسان .. ومصمصة شفاه .. اما تحقيق مثله فوظيفه غيرنا من عبادة الله .. لقد حفظنا أولادنا الاغانى .. ولم نحفظهم كتاب الله .. وحديث الاخوان فى سمعنا الذمن سماع القرآن ! ومن هنا قلّ

خطرنا .. وصغرنا فى اعين أعدائنا ..حتى وجهوا إلينا القرآن من اذا عاتهم .. أى أنهم يضعون فى ايدينا سلاحنا .. ثم يتحدوننا آن نضرب به .. وضحكة السخريه ترتسم على الشفاه !

وبذلك أوشكت خطة الاستعمار فى عزل القرآن عن الحياة العامة .. توشك آن تتم فصولا .. ولقد سبق آن هتف آحد رؤساء الوزراء السابقين فى بريطانيا : مادام القرآن فى صدور المسلمين فلن يتم لنا بقاء بينهم !

ومن اجل ذلك يجب آن نفتح أعيننا جيدا .. ثم ننفض عن كواهلنا غبار السنين .. لنعرف حقيقة النوايا الخبيثه .. التى يريدها بنا الاستعمار .. الذى لاتنام له عين .. ولايغمض جفن ..

إن وسائل الاستعمار للقضاء على الاسلام متشعبة متنوعه .. وحملته عليه دائبه لتشويه جماله .. والقضاء على رجاله ..

وهذا هو " زويمر " المبشر الاستعمارى يرفع تقريرا الى أسياده من زعماء الاستعمار مفاده :

انه قلب الامر على كل وجه .. فهداه بحثه الطويل الى اقصر طريق لأطفاء نور الايمان فى قلوب المسلمين وهو :

شنه حملات دائبه من السخريه ولاستهزاء على رجال الدين الاسلامى لتهتز صورهم فتتسع الهوة بينهم بين المسلمين .. ليزهد الناس فى الدين الذى يمثله هؤلاء العلماء .. وهذا غايه القصد والمراد من رب العباد !

ومن السهل علينا ان نرد هذا الاى الى اصوله التاريخيه .. إنه نفس

الاتجاه الذى سار فيه اجادهم فى مكة ازاء الرسول عليه الصلاة والسلام .. نفس المقدمات .. التى تمهد لنفس النتيجه :

لقد لجأوا الى طريقة الصبيان عندما وضحت لهم تفاهه آرائهم فقالوا " وقالوا : لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعا . أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الانهار خلالها تفجيرا . أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا .. أو تأتى بالله والملائكة قبيلا "

ثم وصفوه بانه شاعر .. ساحر .. ومجنون .. ومفتر على الله الكذب : آفسحر هذا .. أم أنتم لاتبصرون "

" أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون .. قل تربصوا فإنى معكم من المتربصين .. آم تأمرهم احلامهم بهذا أم هم قوم طاغون .. أم يقولون تقوله .. بل لايؤمنون فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين .

والصحافه الملونه تقوم بدورها المشبوه فى خدمه اغراض الاستعمار التى سلفت .. وعندما يقف رجل الدين ليرسلها من قلبه زفرات .. ضد الذين يحاربون هذا الدين .. وضد الذين يرصفون لهم الطريق من رجال الصحافة .. تسمع الصفير يعلو .. وضحكات السخريه تنبعث من كل مكان .. تندد بالرجعيه .. وتطالب بوضع حد لتدخل علماء الدين .. فحريات الناس الشخصيه .. وآراؤهم .. ولو كانت مستورده من الخارج .. كنز من الكنوز يجب أن يحافظ عليه .. ويسجن الانسان .. ولاتسجن حريته !!

أما التلاعب برجل الدين .. أو بمعنى اصح : التلاعب بالدين فى

شخص رجل الدين فهذا أمر مباح .. والدفاع عنه رجعيه تشدنا إلى الوراء قرونا !!

اللهم إن كانت هذه رجعيه .. فاحينى رجعيا .. وأمتنى رجعيا .. واحشرنى فى زمرة الرجعيين !!

ومن عكان بركان .. أن يذهب أحد المحررين يستطلع رأى شيخ كبير فى مسأله تمس حياتنا .. وكان بصحبته محرره .. ثم كانت أسئله .. وكانت أجوبه .. أيدها الشيخ الجليل بوحى من دينه وضميره .. ولكن مصور المجله الماكر .. انتبذ مكانا قصيا .. وسجل بعد سته لقطات سريعه للشيخ مع المحررة السائله .. ثم اعمل فيها فنه الصحفى .. وفى الصباح .. قدمها للقراء كدليل قاطع يثبت يقظه الغريزة عند كبار الشيوخ !؟

وهكذا .. فى سبيل " سبق صحفى " مزعوم .. وفى سبيل قروش تكسبها المجله .. تداس الفضيله بالاقدام .. وتنطلق السهام المحمومه لتستقر فى قلب هذا الدين .. فى شخص رجاله المدافعين عنه .. والساهرين عليه !

ثم تقفى على اثارها صحيفه اخرى .. فتسرح بقرائها على الشاطئ السعيد .. فى الاسكندريه .. ثم ماذا ؟

ثم تركّب رأس العالم فوق جسد شاب ماجن .. وبجانبه فتاة عاريه ؟!!
ولو ستغلها بعض السذج من الناس فى الحط من قيمه العلماء .. لكانوا من كل هذا السخف براء .

انها نفس خطه المبشر الاستعمارى " زويمر " .. وآراه الآن بعين خيالى يبتسم .. جذ لان مبتهجا .. فلم يكن يخطر بباله أن اناسا مسلمين .. يوحدون الله .. يؤدون مهمته على ما يرام .. ويكفونه مونه السعى .. ومشقه الكفاح . وياليت قومى يعلمون !!

إن طفلك الصغير يصاب بأذى .. فتخف لنجدته مسرعا .. وحقلك الاخضر .. يقتلع منه عود تافه .. فتشنها حربا شعواء من اجله ..

فأين همتك هذه .. لتواجه بها معركه طويله الامد مع الاستعمار .. الذى اعتدى على دينك .. على حياتك ؟

لاأظنك من الذين عناهم الشاعر بقوله :

ابنىّ : إن من الرجال بهيمه	فى صورة الرجل السميع المبصر
فطن بكل مصيبة فى ماله	وإذا يصاب بدينه .. لم يشعر !!

فلنعلنها حربا شعواء على الاستعمار وأعوانه .. ولنسلط من اشعه ايماننا ضياء يكشف الاعيبهم ومكرهم بهذا القرآن المجيد وهو اساس حياتنا وحضارتنا ..

لتتحول فى كياننا العواطف.. الى عواصف تهد جدر الفرقة التى افتعلها الغدر بيننا افتعالا .. وسننتصر حتما .. لاننا دفعنا الثمن .. ثمن هذا النصر .. وما على المسلمين إلاأن يتقدموا الصفوف ليقودوا السفين .. الى مرفق النجاه .. لسنا ضعافا : إن صواريخهم واقمارهم لن تقف امام سلاحنا القوى .. امام ثقتنا بالله .. ثم ثقتنا بانفسنا .. ودخان مصانعهم

وهو يتصاعد فى الجو لن يخفينا .. فعدنا " مصنع " القرآن المجيد .. يخرج فى كل يوم أبطالا ..

واذا كنا أضعف عدة وعددا .. فلا ضير علينا من ذلك .. فضعفنا ضعف سلاح .. ضعف مادى .. لاادبى .. وهو ضعف شريف .. يقف امام قوة سافلة !! ولابد ان ينتصر الشرف .. وإن تاخر النصر قليلا :

إن هذى القلوب وهى دماء قد تفل السيوف وهى حديد !

لقد استعمر الرومان اليونان .. ولكن الحضارة اليونانيه أثرت فى الشعب الرومانى .. فصبغته بصبغتها .. وخلعت عليه رداءها .. واتخذ الرومان من ثمرهة الفكر اليونانى الحر زادهم فى رحلة الحياة .. وهل ينسى التاريخ الواعى يوم ان تسلط الرومان على المسيحيه ؟

فما الذى حدث بعدها ؟

لقد اثرت المسيحيه السمحة فيهم .. وغزت قلوبهم وعقولهم ثم طبعتهم بطابعها .. ونشأتهم فى مهدها الناعم الوثير .. وحيذ شاهد على ذلك ان احد الجنود الرومان فى موقعة فاصله قصر فى اداء واجبه العسكرى .. وفضل ان تهزم دولته الرومان .. وينتصر المبدأ الذى يسرى فى عروقه دما !

وحركة التاريخ الاسلامى .. وسعيه فى الحياه بين وجزر .. شاهد صدق أيضا على أن الحق ينتصر وإن تأخر يوم النصر عنه زمنا :

لقد غلب السلاجقه المسلمين فى القرآن الحادى عشر الميلادى .. ولكنهم أسلموا !

وغلبهم المغول فى القرن الثالث عشر .. ولكنهم ايضا اسلموا ..أن الحق ينتصر .. وإن بدا للاعين المجرده أنه هزم مره .. تماما كالوردة : يقسو عليه الطفل فتتناثر بين اصابعه .. بيد انها تترك آريجها بين يديه !!

فتقدموا ايها المسلمون .. فإن المجد يناديكم .. افتحوا اعينكم جيدا .. فأشعة الفجر ظهرت فى الافق القريب ..

إن اجدادكم كرماء .. يرقدون خلف اسور الحياة .. يرمقونكم بعين حذره .. وقلب متطلع !!

لقد تركوا لكم مواريث من الاخلاق الكريمه ..

النجده .. العفه .. الشجاعه .. الايثار .. الطموح .. وحرام ان تغيب هذه المعانى فى زحمة الحياه الصاخبه .. إنها فى حاجه الى حزمكم وعزمكم .. حتى تشكلوا فيها هرما رابعا .. تطلون من قمته العليا .. على الحياه .. وتنشرون من فوقه مبادئ السلام ..

وغدا .. وغدنا قريب .. سننتصر على اعدائنا .. أعداء الحياة .. وسنقف على اشلائهم .. نرتل نشيد السلام .. ونشرب فى جماجمهم نخب انتصارنا على اعداء الحياه .

﴿ الحمد لله الذى هدانا لهذا .. وماكنا لنهتدى لو لا ان هدانا الله ﴾



كان الانسان فى مستهل البعثة كالنائم الحالم .. يعيش فى لذة وهمية.. ويسبح فى جو قاتم .. يعكس طبيعته القاسية .. ومشاعره الجامدة.. مبتوت الصلة بالحياة .. ورب الحياة .. الذى خلقه فسواه وألهمه فجوره وتقواه .

وعلى دقات الحقيقة الراعدة .. فتح عينيه .. فدبت الحياة فى جسده الهامد .. وصحا النائم يوماً .. ورأى النور .. فما أغفى !!

بيد أنه انتفض عملاقاً جباراً .. ليحول مجرى التاريخ .. ويغير وجه الحياة .

وقد فعل !

فأى سحر كان فى هذا الدين الجديد .. وأية حكمة احتواها عقل محمد عليه الصلاة والسلام .. حتى استطاع أن يحول الضعف إلى قوة .. والفرقة إلى جماعية .. والنشاز البغيض إلى لحن طلى .. وإيقاع ساحر ؟

كيف استطاع هذا الدين بمبادئه أن يخلق من نواة ضائعة وسط الصحراء الممتدة شجرة باسقة .. أصلها ثابت وفرعها فى السماء .. تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها .

إن الجواب يسير .. لايختلف فيه اثنان .. ولاينتطح عنزان .. كما قيل: أرأيت إلى العرب وهم يندفعون نحوها .. فتجرى فى عروقهم دماً ..

وفى أعصابهم قوة ؟

لقد وجدوا فى الرسالة الجديدة إشباعاً لرغباتهم النفسية .. التى كانت تعتلج فى صدورهم .. وتحقيقاً لرؤى طالما داعبت أخيلتهم وتمثلت على لوحات أذهانهم .

ومتى كان فى العقيدة اشباع رغبات النفس بما تحتويه من قوى وملكات .. دفعت بيدها السحرية معتنقيها إلى مواطن الرجولة .. فيلقون بأنفسهم فوق لجج الكفاح .. كأنهم ذاهبون إلى رحلة يستروحون خلالها نسيم العافية .

ومعنى ذلك أن الدين الاسلامى دين :

رضى به العقل .. وقبلته النفس .. واطمأن إليه القلب .. فلم تبق هناك فى طبيعة الانسان .. ولا فى مسارب نفسه منطقة مجهولة لم يشرق فيها شعاعه [illegible] .

ومتى أصبح الدين كذلك .. ترابطت ميول الانسان ومشاعره كلها . وتضامنت فى حزمة متكاملة متناسقة .. ثم اتجهت نحو غاية واحدة .. فى سبيل خدمة الانسان وترقيته .

ويبرأ الفرد من الانفصال الشبكى بين ملكاته .. فيغدو لبنة حية فى البناء الكبير .. وخيطاً فى نسيج الكون العريض ..

وتلك دعوى .. تحتاج إلى دليل يبين لنا كيف خاطب القرآن كل هذه

الملكات الثلاث :

إن صلاة العقل التفكير .. ومن هنا فتح الاسلام للعقل أبواب الفكر الحر على مصاريعها .. لينظر ويعتبر .. ويستكنه اسرار الحياة المحيطة به.. ويغرد على شجرة الحقيقة ماشاء له التغريد .

اقرأ قوله تعالى :

﴿ فاعتبروا يأولى الأبصار ﴾ ﴿ قل انظروا ماذا فى السموات والأرض ﴾ إن الأمر ليس مجرد نظرة يرسلها الانسان فى مناكب الطبيعة .. ثم يمصمص بعدها شفتيه .. بل إنه الاعتبار .. الاستنتاج والموازنة بين الخبيث والطيب .. ومن خلال هذه الحركات الذهنية يزكو العقل .. وتسرى بين أعطافه روح الشباب .. فيمارس وجوده فى رأس الانسان .. كجوهرة غالية .. هى كمركز الثقل فى حياة البشر !

اقرأ إن شئت قوله تعالى :

﴿ ياأيها الناس اعبدوا ربكم لذى خلقكم ﴾

﴿ ياأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون ﴾

﴿ ياأيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً . وسبحوه بكرة وأصيلا .. هو الذى يصلى عليكم وملائكته ﴾

فى كل آية من الآيات السابقة دعوى مؤيدة بدليلها .. فأمرنا بعبادته..

لأنه خلقنا .. وكتب علينا الصيام .. لنحصل التقوى .. وأمرنا بالذكر والتسبيح .. لأنه يصلى علينا وملائكته .. فما سر اقتران كل دعوى بدليلها .. فى كل ماأمرنا به الشارع من عقائد وعبادات ومعاملات ؟؟ :

إنك إذا كلفت طفلاً صغيراً أن يعمل شيئاً .. فإنك تكلفه دون أن تذكر لذلك سببا ..

وهذا اعتراف منك بقصور عقله .. وبأنه يعيش تحت مستوى الفهم والادراك .. فلا يزال عقله غضا طرياً ..

فإذا ماترقى فى مدارج النمو وأصبح رجلاً .. فإنك تكلفه بالأمر ثم تشفعه بدليله !

وفى هذا إقرار منك بأن له عقلاً يميز به الخبيث من الطيب .. ثم هو دفع له من طريق غير مباشر إلى أن يحكم عقله فى كل مايأتى ويدع من الأمور.. إن الله سبحانه وتعالى .. عندما يأمرنا بعقيدة أو شريعة ثم يذكر لنا حجتها .. إنما يرفع من شأن العقل الإنسانى .. ويعلى منزلته .. فلا يجبهه بأمر يأباه وينكره .. وفى ذلك تزكية للعقل .. وتكريم له

وعندما نقرأ قوله تعالى متأملين : ﴿ **ومن يدع مع الله إلها آخر لابرهان له به .. فإنما حسابه عند ربه** ﴾

سنجد كيف كرم الدين الاسلامى العقل .. ووصل به إلى قمة الحرية .. حتى إذا تعلق الأمر بالتوحيد .. فمن حيث المبدأ يقبل منك أن تفكر فى ذلك .. ولكن بشرط أن تذكر دليلاً يؤيدك فى دعواك هذه .. وإلا فأنت امرؤ

لايحترم نفسه .. لأنه لايحترم عقله !

وأكاد أسمع الآن سائلا يسأل : ألا يوجد فى الإسلام مبادئ نكلف بها .. ثم لانعرف سر هذا التكليف كتقبيل الحجر الأسود مثلا .. الأمر الذى دعا عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى أن يقول :

(اللهم إنى أعلم أنك حجر لاتضر ولاتنفع .. ولولا أنى رأيت رسول الله يقبلك ماقبلتك)

ونقول أولاً : إن هذه الأوامر لا تأخذ صفة التعميم ..

وثانيا : إن المصطفين الأخيار من عباد الله يستطيعون أن يسلطوا أضواء البصيرة عليها .. فيفهموا أسرارها .. ويدركوا مراميها ..

فإذا قيل إن هذا الدين لم يتنزل من أجل الصفوة فقط .. وإنما لهم وللجماهير ! ضربنا لهم مثلاً .. ولله المثل الأعلى :

سيد يمتلك عبداً .. وكلما أمره بإنجاز عمل .. بين له حكمته والغاية منه .. وذات يوم .. أمره بإنجاز عمل .. ثم لم يبين سببه .. وحينئذ فالعبد واحد من اثنين :

إن أنجز العمل دون تطلع إلى معرفة سببه .. فهو واثق بعدل سيده.. مدرك لعلمه وحكمته !

وإن سأل وألح فى السؤال .. فحصيلته من الثقة بمولاه إذن خاوية !!

ومن أجل ذلك جاءت هذه الأمور التعبدية .. لتكون محك الثقة بالله .. وشعاعاً كاشفاً .. حتى يتبين الذين صدقوا .. ويعلم الكاذبين .

قيمة الجمال

لم يأت « كونفو شيوس » حكيم الصين بشئ جديد عندما قال : إنه لاموضع لأنسان فى المجتمع إلا إذا درب نفسه أولا على إدراك الجمال .

لأن الإسلام أول من هتف بهذا المبدأ .. ونادى به .. ودعاً إليه :

اقرأ قوله تعالى :

﴿ وهو الذى مد الأرض وجعل فيها رواسي وأنهارا .. ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين .. يغشى الليل النهار .. إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾

فالله سبحانه وتعالى يهيب بالعقل أن يتقدم .. وأن يكون تقدمه انطلاقاً .. وأن يكون انطلاقه واعياً .. بعد أن هيأ له الجو المناسب .. الذى يحيا فيه بعيداً عن الجمود والانطواء .. والمتأمل فى هذه الآية الكريمة يحس بأن السياق القرآنى يستحث القلب أيضاً .. وفى نفس الوقت .. إلى أن يزامل العقل فى رحلته تلك .. ليتملى هذه اللوحة البهيجة .. التى رسمتها ريشة القدر الأعلى .. حتى يجد فيها هو الآخر غذاءه وبقاءه ..

فهنا – فى الآية – جبال راسيات عاليات .. تمسك الأرض أن تميد .. وأنهار تجرى فى رفق وحنان .. وثمرات يانعات .. راق منظرها .. واختلفت ألوانها .. وتنوعت أحجامها .. وهنا ليل عسعس .. وصبح تنفس .. وتلك لوحة جميلة .. يقف حيالها القلب الذكى نشوان مغتبطاً .

وإذن .. فقد وصلنا إلى النقطة الثانية وهى :

أن الاسلام يحرص على تربية الذوق الجمالى فى قلب الانسان .. داعياً البشر إلى أن يملأوا قلوبهم بعاطفة الحب .. تلك العاطفة النبيلة .. التى هى الاساس الركين فى بناء كل مجتمع ينشد لنفسه الخلود .

وكما يجد الانسان متعة كبرى عندما يكون موضع حب غيره من الناس .. فإنه يجد متعة أكبر إذا ماوجد قلبه يحب كل مافى الحياة من صور الجمال .. فى عالم الحيوان أو النبات أو الجماد !

كان عليه السلام – وهو يخطب الجمعة .. قبل أن يتخذ لنفسه منبراً – يقوم إلى جذع نخلة .. فلما صنع المنبر – ووقف عليه الرسول لأول مرة .. أدار وجهه حيث الجذع الذى طالما وقف عليه من قبل .. ودمعت عيناه .. وغادر منبره متجهاً إلى الجذع فى هيام جارف .. واحتضنه .. ثم عاد وصعد المنبر .. ولما فرغ من الخطبة ومن الصلاة أوصى أصحابه أن يضعوا الجذع فى سقف المسجد حتى لايستهلك فى غرض آخر .. تكريماً له ووفاء .. !!

ياابن عبد الله :

مِن مثلك .. يجيد الحب .. ويجيد الوفاء ؟!!

ألا وإن هذا المشهد لاينبغى لأحد أن يتطفل عليه بتعليق وكلام .. فلنقف أمامه فى انبهار وخشوع .. وهذا حسبنا . (١)

---

(١) من كتاب « انسانيات محمد » للأستاذ خالد محمد خالد .

وبالحب الطاهر الصدوق تينع الحياة .. وبالحب تأخذ العبادة طريقها إلى ساحات القبول ..

ويستحيل عليك أن تخلص فى عبادة ربك .. إلا إذا كان له فى قلبك رصيد من الحب مذخور !

ولنا فى رسولنا الكريم أسوة حسنة :

فـ« محمد ﷺ محب ودود .. أطاع الله كثيراً .. لأنه أحبه كثيراً .. وبرَّ الناس كثيراً .. لأنه يحبهم كثيراً .. وأقبل على الفضائل والواجبات جذلان مبتهجاً .. لأنه أحبها .. وأحب من كل قلبه الطهر .. والنقاء .. وهذا هو سر تفوق عظمة محمد ﷺ .. أنه أحب عظائم الأمور .. ومارسها فى شغف عظيم .. ممارسة محب مفطور .. لاممارسة مكلف مأمور .

ووراء كل سلوكه ومواقفه وحياته نجد الحب .

إذا سجدو أطال السجود وسمع وجيب قلبه .. ونشيج تضرعه وبكائه .. فذاك لأنه فى غمرة شوق جارف .. ومحبة آخذه .. ولهذا كان ينتظر الصلاة على شوق .. فإذا جاء ميعادها قال لمؤذنه : « ارحنا بها .. يابلال»

أجل .. ارحنا بها .. لا أرحنا منها .. وهذا هو الفارق بين الحب .. والواجب .

إن الواجب قد يؤدى على كره ومضض .. أما الحب فيأخذ طريقه إلى أشق الأمور فى ابتهاج وغبطة .

وإذا شغل – الرسول – نفسه وباله بأمور الناس .. وجد فى الواجب لم يعد له إلى روح محمد ﷺ سبيل ..لقد سيطر الحب وساد .. وأصبحت الواجبات هواية .. لابل فوق هذا .. وأجل من هذا .. صارت شعائر يحبها .. ويعشقها .. ويأنس بها ومعها .. والحب عند محمد ء ليس شهوة .. إنما هو فطرة ..

وفطرته تنساب ألفة .. وتتفجر محبة .. هكذا كان طفلاً .. وفتى .. وكهلاً [1] .

وتربية الذوق الجمالى تظهر واضحة على لسان صاحب « فى ظلال القرآن » عند تفسيره قوله تعالى :

(ومن الجمال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود)

قال : (واللفتة إلى ألوان الصخور وتعددها وتنوعها داخل اللون الواحد بعد ذكرها إلى جانب ألوان الثمار « فأخرج جنابه ثمرات مختلفا ألوانها » تهز القلب هزا .. وتوقظ فيه حاسة الذوق الجمالى العالى .. التى تنظر إلى الجمال نظرة تجريدية .. فتراه فى الصخرة .. كما تراه فى الثمرة..على بعد مابين طبيعة الصخرة وطبيعة الثمرة »

وفى ظلال هذا ينمو الوجدان ويسمو .. فى هذا الجو النقى النظيف .. الذى يدعو إليه خلال آياته الكريمة :

---

(١) نفس المرجع السابق .

﴿ إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين ﴾

﴿ يابنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد ﴾

أما فيما يتعلق بالنفس .. فنجده وقد ساير طبيعتها ابتداء .. ولم يحاول أبداً أن يكبتها .. أو يقف حجر عثرة فى سبيل متعتها .. واشباع رغبتها .

فليس هو بالدين القامع .. الذى يضغط على الطبائع .. بيد أنه حاول تطوير رغباتها .. وتهذيبها .. فيصعد بها نحو غاية أسمى .. بعيداً عن جواذب الأرض .. بحيث تشبع رغبتها بطريقة شريفة .. تليق بكرامة الإنسان .

فأنت إذا قلت لطفلك الصغير : إن اللعب حرام .. وليس من حقك أن تمارسه .. ثم شددت عليه النكير فى ذلك .. حقد عليك .. ووجد فيك متعصباً يريد أن يسلبه حقاً منحته إياه الحياة .. ويمارسه رفاقه كل وقت وحين .. أما إذا اعترفت له بهذا الحق .. وفى الوقت نفسه تبين له أنسب الألعاب .. وأوقاتها المفضلة .. استمع إليك .. وجاءت تربيتك بثمرتها المرجوة ..

والنفس الانسانية .. كالطفل .. وموقف الاسلام منها كموقفك من طفلك هذا : خذ مثلاً : حب المال مركوز فى جبتها مغروس فى تربتها :

« وأحضرت الأنفس الشح » إنها تسعى فتكدسه .. ثم تقدسه !

فلم يسلبها حقها فى الحياة .. بل ساوق منطق فطرتها فقال تعالى :

فهو شئ مرغوب فيه .. لأنه بهجة الدنيا .. والعمود الفقرى لها .. ولكنه حينما تنزل إليها لم يقف عند رغبتها .. ولم يعش معها فى مستواها الخفيض .. بل إنه أخذ بيدها فى رفق .. إلى أفق أعلى .. فبين لها أن هذا المال وإن كان أساس الحياة .. ومبعث الحضارات .. إلا أنه ينبغى أن يكون وسيلة لعمارة الآخرة .. ﴿ وإن الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون ﴾

وهكذا .. فتح الدين الإسلامى للعقل .. والقلب والنفس نوافذ تطل منها على عالم جديد رشيد .. فخرج العقل من كهف مظلم .. إلى ميدان فسيح الرحبات .. ووجد القلب فيه متعته .. فحقق رغبته .. فرعت النفس فى مرعى خصيب .. فكتسبت بين مرابعه خلقاً جديداً .. وإلى هنا يظهر جليا أن الإسلام خاطب ملكات الإنسان كلها .. واعتبره وحدة متكاملة .

ولكنه لو أقنع العقل .. ولم يمتع العاطفة .. لما بلغ بالإنسان هذا الشأو البعيد .

ومن هنا اختلف اتجاه القرآن الكريم عن مذاهب الفلاسفة الغربيين .. فهذه الآخيرة تخاطب فى الانسان عقله فقط .. والحقيقة التى يكتشفها العقل.. تصدر جافة جامدة .. قليلة الجدوى فى حمل الإنسان على الدفاع عنها .. والإيمان بها .. على عكس النظرة الشرقية .. التى يشترك فيها البصر مع البصيرة فى البحث عن حقائق الكون والحياة .. «وهذا الانفراج والتفاوت بين النظرتين هو الذى شهداه مدى قرنين أو ثلاثة فى التاريخ

الحديث بين الشرق والغرب .. فللأول منهما نظرة تدرك الجزئيات العابرة .. لتكون منها علماً .. فتدرك هذه اللمعة من الضوء تجئ وتذهب .. وهذا اللون القرمزى يظهر ويختفى .. وهذا الصوت يطرق الأذن ثم يفنى ..

وللثانى منها نظرة أخرى .. نظرة تلتمس شيئاً لايتحقق فى هذه اللمعة وحدها .. ولا فى هذا اللون القرمزى وحده .. ولا فى ذلك الصوت المسموع .. ولكنه يتحقق فيها على سواء :

الأول منهما يهزأ من زميله الملغز الحالم .. وكذلك يهزأ الثانى من زميله الأول .. لتفاهة إدراكه ولغروره الصبيانى .. الذى يرضى ويقنع بالعوابر الزائلات ..

ألا إن سر الشرق وروحه .. أو إن شئت فقل إن سر الفن وروحه .. هو فى الغوص وراء هذه الجزيئيات العابرة .. كأنها الموجات الصغار تضطرب على سطح المحيط [١] .

إن الحقيقة التى يكتشفها العقل تظل جافة محدودة الأثر .. إذا لم يسعفها القلب بحرارته .. لتتحول فى أطوائه إلى يقين راسخ .. دونه رسوخ الجبال .. ومتى استقر المبدأ فى القلب .. سرى فى العروق دما .. وعاش فى السلوك عملاً .. بعد أن كان فى القلب أملا!

لأن النفس – على أثر إيمان القلب – ستصدر أوامرها للأعضاء

---

(١) الدكتور زكى نجيب محمود فى رسالة « الشرق الفنان » .

فتنشط فى العمل .. وتبذل الجهد مضاعفا .. فتبصر العين الخير .. وينطق اللسان بالحق .. وتهتز الأعصاب بالهدى .

فإذا الانسان شعاع من النور يهدى الحائرين .. وقوة دافعة .. تمتطى ظهر الحياة .. فتسخرها لخدمة بنى الانسان .

إن الايمان معرفة تتجاوب أصداؤها فى أعماق الضمير .. وتختلط مادتها بشغاف القلوب .. فلا يجد الصدر منها شيئاً من الضيق والحرج .. بل تحس النفس فيها ببرد وثلج .

الإيمان تذوق ووجدان .. يحمل الفكرة من سماء العقل .. إلى قرارة القلب .. فيجعلها للنفس رياً وغذاء يدخل فى كيانها .. ويصبح عنصراً من عناصر حياتها .. فهنالك تتحول الفكرة قوة دافعة .. فعالة .. خلاقة .. ولايقف فى سبيلها شئ فى الكون إلا استهانت به .. أو تبلغ هدفها .[1]

إن حديثك وإن كان فى سمعك سلسلاً عذباً .. لايخط لنفسه مجرى .. عند رجل خامد الفكر .. بارد الشعور .

والمبدأ الذى تدعو إليه .. وإن كان رائعاً شاملاً .. غير أنه لايستقر إلا فى قلب ذواقه .. رقيق وحساس !

هيئ لحديثك الجو .. وأعد لمبادئك التربة الصالحة .. كى تنمو وتزكو .. وتتخذ لها فى قلب صاحبك مستقراً ومقاماً .

---

(١) من «الدين » للمرحوم الدكتور محمد عبد الله دراز .

تماماً كالفلاح بين الحقول :

إنه يوجه نشاطه أولاً إلى تطهير الأرض من الطفيليات والحشرات .. وبعد ذلك .. يستطيع أن يبذر البذور .. فتهتز وتربو تباهى بخضرتها زرقة السماء !

وكذلك فعل الإسلام الخالد : أيقظ العقل .. وطهر النفس .. وزكى الشعور .. فأباد أوضاراً وأباطيل رانت على النفوس دهراً طويلاً .. فأوجد بذلك المجال الحيوى .. الذى ستثمر فضائله ماشاء لها من شمائل ..

ثم بدأ يرسل إشاراته « اللاسلكية » إلى جهاز محكم .. مستعد للاستقبال !

هذه الاشارات هى مجموعة القواعد والعقائد .. التى نادى بها الاسلام .. وأخذ بها المؤمنين به .. لتكون نواة طيبة لحضارة ستبقى على مدار الزمان..

فما هى تلك العقائد .. وأين فى القرآن هذه القواعد ؟؟

وقبل ذلك فإن خطة القرآن أن يبدأ من *الواقع الماثل* ويقدره .. ويمضى فى التدرج منه إلى مافوقه .. آخذاً بيد البشرية إلى أقصى ماتستطيع أن تبلغه من تقدم .. لافتالها لفتاً متصلاً إلى الملأ الأعلى .. والمثل الأسمى .

يغريها به .. ويعدها عليه الجزاء الحسن فى الدنيا والآخرة جميعاً .. ويتركها مع هذه التوجيهات والأغراءات لتناضل فى سبيل مثل سام سام ..

رفيع رفيع .. تظفر منه بما تسعفها عليه قوتها .. ويمكنها منه جهادها .

(ومن هنا نرى فيه الواقعية والمثالية جميعاً .. دائماً .. وفي كل شئ .

نرى فيه الواقعية الواضحة التى كان يستطيعها – ولا يقوى على أكثر منها – أولئك المخاطبون به .. ويطيقها هؤلاء المكلفون بحمل دعوته وأداء رسالته .. فلا يعجزهم بما لايتحلون .. ولايأخذهم بما لايفهمون وهم فى ذلك المستوى العقلى والاجتماعى لحياة جزيرتهم .. وحياة الأمم حولهم .. فهو يقر ماهم فيه أو بعضه .. وينظمه .. ثم يلطفه ويهذبه .. ويأخذ فى لفتهم برفق وأناة – ولكن بعمق وأصاله – إلى أهداف بعيدة وآفاق راقية .. لم يكونوا لهذا العهد يتصورونها إلا صوراً مبهمة .. خفيفة الألوان .. مظللة الملامح .. فإن استشرفوا .. أو استشرف الراقون منهم إلى أبعد من ذلك .. فبها .. وإلا فهى محفوظة فى الكتاب .. مرددة فيه .. يتعبدون بتلاوتها .. ويسمعونها ممسين ومصبحين .. غادين رائحين .

تسير بهم الحياة .. ويخالطون الأمم .. ويشاركون فى سير الحضارة المشترك المتكامل .

فكلما اتسع أفقهم وأورق حسهم ازدادت بصيرتهم استشفافاً لتلك الصورة اللائحة فى آفاقهم .. المرددة على اسماعهم .. المرفوعة أمام مداركهم .. يرددونها فى المكتب .. والمعهد . والمعبد والمنزل .. والموسم المفرح .. والميقات المحزن فيزدادون – على الزمن – تبينا لها . ويستوضحون – على الأجيال – أسرارها .. ويسعفهم على ذلك جهدهم

العقلى الخاص فى تفسير الحياة وتدبيرها .. وهذه الواقعية وتلك المثالية تتوزع فى القرآن :

تتجاور وتتفارق .. وتتصل وتنفصل .. لتظل على الأيام طلقة غير محدودة .

وهذا الجمع فى القرآن بين الواقعية الصارخة والمثالية الشامخة هو ماتجده - عند النظر المتتبع والاستقراء الشامل مطرداً دائماً . ثابتاً فى كل شأن من عقيدة وعبادة ومعاملة .

فتجده فى علاقات الجماعات الصغرى والكبرى .. كما تجده فى علاقات الأفراد بعضهم ببعض وبمجموعهم .

فهو واضح فى الايمان والعقيدة .. واضح فى العبادة والرياضة .. واضح فى نعيم الآخرة وعقابها .. واضح فى نضام الحياة وتدبيرها ..) [1]

(١) أمين الخولى مجلة العربى ع ١٣ .



الإسلام.. يصوغ المؤمن المثالى

بينا فيما سبق كيف خاطب القرآن ملكات الانسان كلها فأيقظها من سباتها .. حتى تكون مهيأة لتلقى قواعده وأنظمته .. وسنرى الآن كيف صنع الله الانسان على عينه .. ليقود الركب الحائر إلى ربوة النجاة .. فعندما نقرأ نحن المسلمين كتاب الله ونتدبر آياته لنبصر فى مرآته أنفسنا وما أعد لنا .. أفرادا وجماعات .. سيخفق فى قلب كل إنسان منا إحساس غامر بالعزة .. وشعور بالكرامة .. حتى لكأنه ملاك يطير عبر السماء بأجنحة علوية .. وستدرك الجماعة المسلمة إلى أى حد كرمها القرآن .. ودفع بها إلى أقصى مايمكن أن تبلغه من رفعة وسمو .

وكنتيجة طبيعية لهذه الأحاسيس .. سيشتد تعلقنا بالدين وآدابه .. وتزداد ثقتنا بتشريعاته .. لاسيما فى هذا الوقت العصيب .. الذى تجند فيه الشيوعية جندها .. وتشحذ سلاحها .. لتقطع علي الدين زحفه الصاعد من أجل تحقيق سعادة الانسان .. « يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون »

فتعال معى أيها القارئ العزيز إلى كلمة سواء :

أن نقف وقفات قصاراً أمام بعض آياته الكريمة .. حتى نستشف بعض ماتدل عليه .وتدعو إليه من القواعد والأصول لنهتف معاً :

إن هذا الدين كان قيما عالية .. ارتفعت بالانسان إلى مستويات مثالية عاليه .. وكان بوتقة انصهر فيها الانسان .. ليخرج إلى الحياة ذهب

خالصاً .. يخطف بريقه أبصار الناظرين .

اقرأ قوله تعالى :﴿ وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من طين فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين ﴾

﴿ ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم فى البر والبحر .. ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً ﴾

تشير الآية الأولى إلى أن الانسان قد وقع عليه الاختيار ليكون نائباً عن الاقدار العليا فى عمارة الأرض .. وتدبير الحياة وتسييرها .

وتفيد الثانية : أنه أشرف مخلوق ينقل خطاه على ظهرها .. فإذا كان هو عبداً لله .. ففى نفس الوقت هو سيدها ورائد الاصلاح فيها .. والسؤال الآن :

ماهى النتيجة الخلقية والاجتماعية لشعور المرء بأنه أكرم مخلوق ؟ إن إحساسه بهذا من شأنه أن يغرس فى قلبه الطموح . والثقة بالنفس . والترفع عن الدنايا التى لاتليق بمقامه كرائد خلقت له الأرض مطية ذلولا .

ولاستقرار هذه الفضائل فى النفس نتائج طيبة .. ذات أثر فعال فى ترقية الحياة .

فالرجل الطامح :

لايقدم رجلاً ويؤخر أخرى .. بل إلى الامام دائماً .. شعاره :

الإقدام عندما تزل الأقدام !

وبذلك لايجد التردد إلى قلبه سبيلاً .. وسوف يستريح الفرد من رذيلة طالما أضاعت فرصاً سانحة .. بل صفقات رابحة !

والرجل الواثق بنفسه :

ليس به حاجة إلى أن يتزلف إلى غيره من الأقوياء الأغنياء ابتغاء عرض الحياة الدنيا .

وليس هو فى حاجة إلى جنون العظمة .. وإلى حاشية من المنافقين تملأ فراغ أذنيه بمدائح جوفاء .. هو منها براء !

فاعتزازه بنفسه واعتماده عليها يدفعه بعيداً عن أرض النفاق .. تلك الرذيلة التى تشوه جمال الحقيقة وتطمس معالمها فى سبيل مغنم تافه .. لايسمن ولايغنى من جوع .

وعندما يبتعد الفرد عن محقرات الأمور ويتطلع إلى معاليها :

سيغادر هذا الجو الخانق الكريه .. ويحلق فوق مستواه .. إلى رحبات فسيحة ممتدة الأطراف .. إلى أجمل بيئة يصقل فيها الضمير .. وتجد النفس عندها مقومات الرشد الانسانى . فالثقة بالنفس مفتاح شخصية الانسان .

وبدافع من هذه الثقة : وقف الرسول الكريم وسط الأزمات شامخاً كالطود .. لايدعو فرداً .. أو قبيلة .. وإنما يدعو أمم الأرض جميعاً إلى اعتناق دينه الجديد !

وعلى يد الرسول الكريم تلقى صحابه الكرام خير درس فيها .. ارجع معى - ياقارئى العزيز - إلى حقبة من تاريخ الاسلام خلت .. يوم غادر الرسول وصاحبه مكة مع سجوة الليل فراراً بعقيدته من الغدر المتربص ..

ولننظر إلى فراشه : لنرى شاباً فتياً يتقلب عليه وحده !! لنرى عليا كرم الله وجهه .. رانياً بعينه عبر جموع قريش .. وعلى شفتيه بسمة استهزاء سخرية !! لم يكن على يعتمد على سيفه .. فسيوف قريش أمضى منه وأشد بأساً ..

ولم يكن يعتمد على قوة عضلاته .. ومتانة بنائه .. ففى جموع الأعداء عضلات مفتولة وأيد مصقولة !!

وإنما كان يعتمد على شئ أعمق من هذا وأشد .. إنه يعتمد على ثقته بالله ثم بنفسه ! .. ثقته بعدالة القضية التى يدافع عنها .. ثقته بالرجل الذى يقدم حياته رخيصة من أجله اليوم !

ومع هذا .. وقبل هذا .. فثقته بربه أكبر .. وإذا كانت الثقة بالله .. وبالنفس مفتاح شخصية الانسان .. فإن القرآن الكريم كثيراً مايوقظها فى كيان الانسان .. ويمدها بتوجيهاته لتستوى على سوقها قائمة :

« وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس .. ويكون الرسول عليكم شهيداً »

ثقوا بأنفسكم .. واستجمعوا قواكم لتتقدموا الصفوف .. فأنتم مركز

الثقل فى هذا العالم .. وكل الطوائف .. كل الأمم .. تتطلع إلى كلمة تخرج من أفواهكم :

إلى كلمة تخرج من أفواهكم .. لتخط مصيرهم المحتوم .. وثقوا بالله « وهو معكم اينما كنتنم » « ومن يتوكل على الله فهو حسبه » « كتب الله لأغلبن أنا ورسلى »

وإذا كانت الثقة « مفتاح » شخصية الفرد .. فإنها فى حاجة إلى «أسنان »لأن المفتاح بدونها قد تديره فى الباب وتديره .. ولكنه لايفتح الباب! وكذلك الثقة بالله .. وبالنفس : قد تكون موجودة .. بيد أنها فى مسيس الحاجة – لكى تمارس نشاطها – إلى « سنّ » يمدها بالقدرة على تنفيذ الرغبات !

وما « سنها » إلا الارادة الماضية المتحررة !! فلا عجب أن كان تربية الارادة أول درس تلقته البشرية فى شخص أبيهم آدم عليه الصلاة والسلام.

فقد حذره الله تعالى من الأكل من الشجرة فقال :

﴿ ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين ﴾

وبهذا التحريم ستتربى الارادة .. ويشتد عودها .. وكيف ؟!

إن آدم عليه السلام بشر .. وبحكم بشريته ستنازعه نفسه وتسول له الأكل من هذه الشجرة بدافع من نزغ الشيطان .. ولكنه ينتصر عليها فلا يحقق لها رغبتها فى الأكل .. ثم يعاوده الحنين مرة أخرى .. ثم يرجع .

ومن خلال هذا المد والجزر .. ستتشب إرادته عن الطوق .. وتغدو صالحة لعمل شئ ما .. حتى إذا ماهبط إلى الأرض .. هبط إليها ومعه سلاحه !!

ذات يوم .. وقفت في الفصل أمام الطلبة .. وكنت أفسر لهم قوله تعالى : ﴿ الحمد لله فاطر السموات والأرض جاعل الملائكة رسلا أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع يزيد في الخلق مايشاء إن الله على كل شئ قدير .. مايفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم ﴾

ودار النقاش حول « أل » وهلى هى للعهد أم للجنس ؟ وما معنى فاطر لغة .. وما علاقة معناها اللغوى بالمعنى هنا .. ثم ماهو الفتح فى قوله : مايفتح الله للناس .. الآية ..

وأحسست فى قرارة نفسى بأن تدريس التفسير على هذا النحو .. قد يخرج مدرسين .. ولكنه لن يخرج أبداً مربين !

لأن المنهاج المقرر يعتمد أول مايعتمد على تربية الملكة اللغوية عند الطلاب .. الأمر الذى طالب الامام محمد عبده من أجله بألا يكون التفسير مجالاً لتربية هذه الملكة .. فلها مجالاتها الخاصة بها !

وينبغى أن نستشف المعانى الخلقية .. التى تنطق بها الآيات .. بين السطور .. ووراء السطور .. فى حدود الدلالات اللغوية المصطلح عليها .

وليس معنى ذلك أننا نطالب بإلغاء المباحث اللغوية إلغاء تاماً !غير أننا نرجو أن تكون وسيلة .. تساعد على فهم المقصود من الآية .. بدل أن تكون هى غاية فى نفسها .

إن القرآن الكريم كما بينا يحفل بأسس الرقى الانسانى .. ومن ضيق الأفق أن تضيع هذه الأسس .. ويخفت صوتها فى زحمة الخلافات اللفظية والاعرابية !

فالذين يدرسون هذه الآيات شباب فى ميعة الصبا ومقتبل العمر .. يتخطون أخطر مرحلة فى حياتهم .. وهى مرحلة المراهقة .. ومعنى ذلك أنهم تربة صالحة .. تتطلع إلى مبادئ صالحة .. تملأ الفراغ الذى يحسون به فى نفوسهم .

فيجب أن نفتح أعينهم على مقومات شخصيتهم من خلال آيات القرآن العظيم .

ولا بأس من أن يشمل منهج التفسير على التنصيص والاشارة إلى الغرض المسوق له الآية .. وبذلك ترتبط بالحياة .. ويشعر الطالب وهو يحمل كتابه بيمينه فى شعاب الحياة أنه يحمل دواء يذهب آلام الانسانية المبرحة.. ويمشى مع مواكب الحياة المتدافعة كحادٍ لها .. وليس غريباً عنها !

ومن تعاجيب الليالى .. أننى حضرت محاضرة فى قسم الدراسات العليا بإحدى كليات الأزهر .

واشتد الحوار .. وثار الجدل .. حول مسألة إعرابية .. كان من الممكن أن يستوعب الانسان آراء العلماء فيها فى دقائق .. بدل أن يشغل ثلاثون عالماً أنفسهم بمثل هذه المسألة الثانوية أكثر من ساعتين !!

إذن لاستطعنا أن نوفر قدراً كبيراً من هذه الأعصاب التى احترقت .. لنواجه بها تلك الدعاوى الباطلة .. وهذا الغزو الصليبى الوافد من الشرق .. أو من الغرب !!

وثالثة الأثافى أن السيد الاستاذ طالب أحد زملائى ببحث يدور حول آية .. بشرط أن يدور البحث حول مشكلة اعرابية أيضاً .. وهو إجراء متعمد لتضييع ساعة ونصف أخرى أدراج الرياح !! وأيقنت يقيناً جازماً .. أن الدراسات العليا فى أى قسم .. لاتكون تحت سقف .. وبين جدران أربعة !!

إن ميدان الحياة رحيب .. وماعلى الحر إلا أن يستلهم عقله وقلبه .. ثم يشق لنفسه بين الحياة طريقاً مستقيماً .

وبعد .: فما صلة هذا الكلام بما نحن فيه ؟ .. بتربية القرآن للارادة ؟ إننا لو تأملنا قوله تعالى : ﴿ الحمد لله ﴾ : نتساءل : لماذا لم يقل سبحانه وتعالى : احمدوا الله .. وآثر هذه الصيغة الاخبارية ؟

إنه يربى فينا الارادة ... وكيف ؟

فأنت إذا قلت لتلميذك : ذاكر « بالأمر » كان هذا تكليفاً منك .. كان ضغطاً .. يحس معه بأن شيئاً ما يفرض عليه فرضاً .. وقد لايكون من

الناحية النفسية مستعداً للمذاكرة .. وهنا نقع فى خطأ كبير ..

فالذين يتكلفون شيئاً تأباه طبيعتهم .. وتنكره .. سيقعون فى أحد أمرين لاثالث لهما :

إما النفاق .. وإما الاخفاق !!

ومكلف الأيام ضد طباعها ∴ متطلب من الماء جذوة نار

أما إذا قلت له :

فى المذاكرة فائدة جليلة . وهى غذاء لروحك وقلبك .. كما أن الغذاء حياة جسمك وعصبك .. فلان ذاكر ونجح .. وفلان تكاسل فلم ينجح .

هذا الاسلوب .. رذاذ رطب .. ودود .. على اثره تستيقظ نفسه .. وتنشط إرادته .. فستعمل فى جوحر طليق .. اقتنع هو شخصياً بضرورة العمل فيه .

وسقى الله عنترة الاسمر الشجاع .. لقد حملته أقدامه .. فدخل باب التاريخ .. ومتى ؟

عندما منحه أبوه الحرية .. أى عندما انتصب للارادة فى نفسه مثال صارم ..

وفى الوقت الذى أحس بالحرية تسرى فى دمه كتيار من الكهرباء .. ناضل .. وناضل .. حتى عادت للقبيلة المهزومة مكانتها الأولى .

نفس هذه المعانى تتداعى فى الذهن .. ونحن نقرأ الآيات الكريمة السابقة .. الحمدلله .. كل حمد .. كل مدح .. كل شكر .. فهو لله تعالى .. فهو الذى شق العدم شقا .. فبرزت منه السموات بنجومها وأقمارها .. والأرض ببحارها .. وأشجارها .. وأطيارها .. فهو قادر .

وكل رحمة تغمر الانسان : صحة .. مال .. رزق .. علم .. جاه .. سلطان .. فليس فى استطاعة قوة فى الارض أن تقف زحفها .

وإذا ماأمسك الله هذه النعم .. فلا مرسل لها من بعده .. فهو مريد نافذاً المشيئة .

ومن كان قادراً .. مريداً .. فهو وحده الحقيق بالحمد .. وكان الانسان مع هذه الآيات يسبح على جناحى طائر .. سبحاً رقيقاً رفيقاً .. وبدون دهشة .. وبدون ضغط ستهتف كل ذرة فيه : الحمد لله !!

ولكن الانسان قد يمتلك مثل هذه الكنوز من الفضائل التى بيناها آنفاً ثم لايجد أسواقاً رائجة لينفقها فيها .. وقد يتسرب اليأس إلى قلبه ويشيع القنوط فى نفسه .. إزاء عصر ترك الناس فيه الصلاة واتبعوا الشهوات .. حتى كاد ليكفر بجدوى هذه القيم فى دنيا الناس ..

ويتحول النسيم من حوله إلى غازات خانقة .. والأرض بمارحبت

تستحيل سجنا ضيق النوافذ .. موصد الأبواب !

ولكن .. سرعان مايتبدى له فى الأفق البعيد .. مواكب الآمال رفافة كأنها أسراب الحمام ؟ .. إن نداء حبيباً ليهبط عليه من لدن الحق تبارك وتعالي يذكره بأن هناك حياة أخرى يوفى الصابرون أجرهم فيها بغير حساب.

وهنا نستنبط قاعدة هامة .. أريد بها إحكام بناء الانسان الروحى .. وهى : الايمان بالآخرة .. ومافيها من حساب .. فالايمان بيوم الحساب يطرد اليأس من قلوب العاملين انتظاراً لهذا اليوم .. الذى سينعمون فيه بمالا عين رأت .. ولاأذن سمعت .. ولاخطر على قلب بشر .. بعد أن جنوا فى حياتهم أشواك الحرمان « والجحود! »

« فالنفوس البشرية المتعة بالعقل والادراك .. والشعور الحاد بالجمال والقبح .. إذا نالها البشم من معاناة الحياة الأرضية وأصابها الرهق من مغالبة حوادها .. وشعرت بالهلع والوحشة من تعاقب الكوارث عليها لجأت إلى ذلك العالم المحجوب عنها فاستمدت منه القوة والصبر على تكاليف الحياة .. واستلهمت الروح الذى يشع منه المبادئ العليا .. لمعالجة العوادى التى تحيط به من كل جانب .. فتشعر بنفحة مشجعة .. وطمأنينة مثبتة .. قد لاتبالى بعدها إذا لقيت حتفها .. لأنها تعتقد أنها ستنتقل بعد هذا الجهاد الموبق إلى ذلك العالم العالى .. لتعيش فيه مع الأرواح العالية .. والنفوس الطاهرة » (١)

---

(١) من مقال للمرحوم محمد فريد وجدى .

والايمان بالآخرة أيضاً يطرق قلوب الجاحدين .. ويهزها هزا حتى تصحو من غفوتها .. وتشعر بوجود يوم يجعل الولدان شيبا .. السماء منفطر به .

وبذلك تذيع الفضائل .. ويفوح أريجها .. فى ظلال الايمان بيوم القيامة .. فيتجدد تعلق الناس بها .. والاستمساك بحبلها .

فليس اليوم الآخر رجماً بالغيب الذى لا يقوم عليه دليل .بيد أن الأدلة الحسية .. والعقلية يأخذ بعضها بحجز بعض لتجعل من هذا اليوم مبدءاً هاماً يأخذ مكانه اللائق بين بقية العقائد الاسلامية التى تصوغ شخصية الانسان..

ومنذ سبع سنين تقريباً صدر كتاب « لكيلا تحرثوا فى البحر » للأستاذ خالد محمد خالد .

وقرأت بين سطوره – وكنت يومئذ طالباً بكلية أصول الدين – بعض فقرات تنسج بعض الشبه حول هذا اليوم وما أعد للناس فيه .

وقد رددت عليه يومها على صفحات جريدة منبر الشرق الغراء .

قلت :

فى كتاب « لكيلا تحرثوا فى البحر » للأستاذ خالد محمد خالد .. ينكر المؤلف أن يكون التخويف باعثاً على الفضيلة حاثاً عليها .. ويؤكد أن آيات الوعيد فى القرآن .. قد أدت رسالتها إزاء أناس كانوا يخافون ولايخجلون .. ولم تعد لها فائدة فى القرن العشرين .

وأريد أن أسأل الاستاذ :

هل نفهم من هذا التصريح أنه ليست هناك طرق أخرى للقصاص غير النار .. أم أن هناك وسائل أخري يعذب بها العصاة .. ولكنك لم تذكرها .

على أن عدم ذكرها يدل على أنك غير مصدق بوجودها .. لأن عدم البيان فى مقام البيان .. بيان للعدم !

وبذلك فالمؤلف لايعترف إلا بالجنة فقط .. أى أن الخلق كلهم ملائكة مقربون .. أو أطفال مدللون سيساقون إلى النعيم سوقاً .. ظالمهم ومظلومهم.. قاتلهم ومقتولهم .. سارقهم وشريفهم .. كلهم سواء ؟

ومتى ثبتت هذه القضية فلن يمتاز الشرير عن الخير .. وبالتالى تنتفى عن الآله خاصية العدالة – والعياذ بالله – ومتى انتفت العدالة لحقه النقص فانهارت الألوهية من أساسها .. تعالى الله عن ذلك علوا كبيراً .

ويؤكد المؤلف وجهة نظره حيث آثر لفظ « إنساناً » ولم يقل مثلاً :

إنه لن يطرح « مسلماً » واحداً فى النار .

أيحسب أن الجنة هكذا خطيرة من غير باب .. يستوى فى دخولها أناس حاولوا قتل عيسى ومحمد .. مع آخرين نصروهما وعزوهما ؟

« كبرت كلمة تخرج من أفواههم .. إن يقولون إلا كذبا »

« وكان الانسان أكثر شئ جدلا »

ثم إن الحديث يقول : إن الله لأرحم بعبده المؤمن »وأحب أن يجيب الأستاذ خالد عن الأسئلة الآتية :

أين هو العبد المؤمن .. ؟

أوكل من نطق بالشهادة نستطيع أن نسميه عبداً مؤمناً ؟ هل حققنا مدلول كلمة « عبد » فامتثلنا لأوامر الله .. وصمنا وصلينا.. وأمرنا بالمعروف ونهينا عن المنكر ؟ فأصبحنا حقاً عبيد الله الذين لن يدخلهم النار؟

هلى يسمى عبداً مؤمناص ذلك الذى يخاطب « ستالين » المسجى : لقد كنت بالأمس سيد الأحياء .. فأصبحت اليوم سيد الشهداء » ؟!

هل يسمى عبداً مؤمناً ذلك الذي يصوب رصاصاته الغادرة إلى قلب زعيم وهب حياته للوطن ؟

أم هل يكتسب هذا الوصف رجل يترك أولاده يتضورون جوعاً .. ثم يقضى ليلة بين رقص وخمر .. وقيان ؟

وإذا لم يكن هؤلاء عبيداً مؤمنين فما هو مصيرهم ؟ هل يدخلون الجنة فى وقت واحد .. مع المصلحين الطاهرين .. الذين لم ينافقوا .. ولم يقتلوا .. ولم يتركوا أولادهم يتضورون جوعاً ..

كلا يا أستاذ خالد .. ماأنت إلا مجحف فى القسمة !!

وأنا أدعوك مخلصاً .. إلى أن تتدبر مرة أخرى فى هذا النص .. حتى

تلتقى بالحقيقة التى تبحث عنها ..

إن من المؤسف حقاً أن عالماً أزهرياً يؤذن فى الناس :

إن الدين غير قادر على حل مشكلات الانسانية الخلقية والاجتماعية .. ثم يطلب فى إلحاح أن يتسلم العلم مقود الشعوب ..

وفى نفس الوقت نسمع صوت البابا « بيوس الثانى عشر » يقول :

« إن الحياة التى تتفق وكرامة الانسان .. يجب أن تقوم على أسس دينية »

وبعد أن يبين البابا إلى أى حد فشل العلم فى حل مشكلات الحياة .. يدعو فى حرارة إلى أن يتقهقر العلم .. بملاحظاته ومعامله .. ثم يترك المجال للدين .. فهو وحدة رائد لايكذب أهله ..

وياله من درس نقرؤه .. لنفهمه .. إن كنا من الذين يقرءون .. ويفهمون!!

وإذا كنا ننكر هذه الروح المسرفة فى التفاؤل .. فتصل به إلى قمته العليا .. لأن فى هذا التوجيه قضاء على وازع رادع يأخذ بحجز الناس إلى الخير ويمنعهم من الشر .

فإننا لاننكر أن تصبح الآخرة سوط عذاب يسوق به الناس سوقاً .. وكأن يوم القيامة فقط .. حساب .. وعقاب .. وليس فيه مكان لجنات عرضها السموات والأرض !!

أمـا بعـد :فـفى هذا الجـو الصـالح .. وبمثل هذا التـوجيـه السـديد ..

تستطيع الإرادة أن تجد نفسها .. وتثبت وجودها .

ثم تتـابع قـواعد الاسـلام تتـرى لتفـسح الطريق أمـام الارادة وتمهـده

لها .. فهى :

١- تعنى « كمـا يقـول الدكتـور محـمد إقبـال » انتـهاء عـهد الوصـاية على الانسان فى قيادته .. بمعنى أن وقت خوارق العادات قد انتهى أمده .. وعلى الانسان أن يحصل كمال معرفته بوسائله الخاصة ..

٢- وتعنى إبعاد ظهور الفكرة المجوسية .. وهى فكرة الترقب لظهور أبناء «زرادشت » الذين لم يولدوا بعـد .. وشـأن الإيمان بهـذا ترك الحـرية للانسان فى سيطرته على الكون والحياة .

ونأتى عـقيـدة الاجـتهـاد فى مجـال الشـريعـة أيضـاً .. فـتفـتح للعقل وللإرادة ميدان العمل الحر .. والنشاط الحر .. فهل حمل الإنسان سلاحه .. أعنى إرادته .. ثم اقتحم العقبة ؟! وماأدراك ماالعقبة !

إنها هدم الحواجز المادية .. بإطعام المحروم .. واسكات عواء المعدة .. وهدم الحـواجـز المعنوية .. بفك الرقـاب .. ومنح الحـرية للعـبـيـد .. ومنحـهم فرصة العمل الحر .. نتيجة لارادة حرة تنتج من إحساسهم بحريتهم ..

فتتلاقى الجـهود .. وتتـعانق الآراء .. لترقيـة الحياة المادية .. والحياة الروحية .. وهذا هو مفهوم الاسلام !!



وهناك اجراء لايقل خطراً عن سابقه فى إحكام بناء الفرد والجماعة :

فالاسلام يغرس فى وعى الجماعة الاسلامية أنها فوق الجميع :

« كنتم خير أمة أخرجت للناس »

والأمة التى تعيش فى ظل هذا الشعور .. لاتسمح لأمة أخرى .. مهما كان شأنها أن تسبقها فى ناحية من نواحى النشاط :

ثقافية كانت أو أجتماعية أو صناعية .. فكلما أتاها نبأ اختراع جديد.. حاولت أن تساوقه .. أو تسبقه !وكلما نالت أمة مجداً .. أو حققت معجزة .. اندفعت بكل قواها وإمكاناتها .. لتثبت وجودها .. حرصاً منها على ذلك الوسام الخالد الذى وضعته على صدرها يد الحق سبحانه وتعالى.. وناهيك بالنتائج الرائعة .. والمستقبل الواعد الرشيد . الذى ينتظر مثل هذه الأمة الطامحة .

غير أن الخبير بالنفوس وطبائعها .. العليم بالأمم واتجاهاتها .. لم يشأ أن يشكل شخصية الفرد والجماعة على هذا النحو الفريد .. دون إجراء وقائى .. يحكم غرس هذه المبادئ فى النفوس .. حتى لاتنمو فى أرض رخوة لاتمدها بنماء أو بقاء .. فيكون ظاهرها رواء .. وباطنها خواء !

فعندما بين الله سبحانه وتعالى أن الانسان أكرم مخلوق .. بين فى موضع آخر مقومات هذه الكرامة فقال تعالى :

﴿ إن أكرمكم عند الله اتقاكم ﴾

فالعمل الصالح وحده كفيل بأن يحشر الانسان فى زمرة الأبرار. ولم يرد سبحانه أن يصرف انتباه الناس إلى الدار الآخرة وحدها .. وإلا خربت الدنيا .. وتعطلت الحواس التى لم تخلق إلا لتعميرها وتطويرها .

ومن ثم وجهنا عز وجل إلى التمتع بما فيها من مباهج :

﴿ وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة .. ولاتنس نصيبك من الدنيا ﴾

﴿ كلوا من طيبات مارزقناكم ﴾

وقبل أن تدق الجماعة الاسلامية أقدامها فى الأرض زهوا .. وقبل أن تشمخ بأنفها فى السماء كبراً أمام شهادة الله لها بالسمو .. نراه وقد أخذ بخطامها .. وملأ وعيها بالأساس الوطيد .. الذى بنى عليه هذا الحكم فقال تعالى بعد ذلك :

﴿ تأمرون بالمعروف .. وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ﴾

أى أن وضعكم كحملة المشاعل عبر الطريق .. كرواد يبشرون بمبادئ السلام والحق .. وينفرون من رذائل النفوس ونزغات الشيطان ..

كل هذا .. إنما هو حيثيات .. جاء على اثرها الحكم الخالد :

﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس ﴾ !!

فما أروع هذه المبادئ .. التى تبسط جناحيها لنا « كى تحملنا » وتحمل العالم المكدود إلى واحة جميلة ظليلة .. يحس فيها بوجوده .. ويستشرف غاياته البعيدة .. بعيداً عن سعار الشهوات .. وغوغاء المذاهب الهدامة الوافدة إلينا من الشرق .. ومن الغرب :

إن « العالم اليوم قد أصبح مفتقراً إلى تجديد بسيولوجى .. والدين الذى هو فى أسمى مظاهرة « وهو المظهر الصوفى » ليس عقيدة فحسب أو كهنوتا .. أو شعيرة من الشعائر .. هو وحده القادر على إعداد الإنسان العصرى إعداداً خلقياً .. يؤهله لتحمل التبعة العظمى التى لابد من أن يتمخض عنها تقدم العلم الحديث .. وأن يرد إليه تلك النزعة من الايمان التى تجعله قادراً على الفوز بشخصيته فى الحياة الدنيا والاحتفاظ بها فى دار البقاء .

إن السمو إلى مستوى جديد في فهم الانسان لأصله ولمستقبله : من أين جاء .. وإلى أين المصير .. هو وحده الذى يكفل له آخر الأمر الفوز على مجتمع يحركه تنافس وحشى وعلى حضارة فقدت وحدتها الرحية بما انطوت عليه من صراع بين القيم الدينية والقيم السياسية .[1]

« التجربة بينت أن الحقيقة التى يكتشفها العقل المحض لاقدرة لها على إشعال جذوة الايمان القوى الصادق .. تلك الجذوة التى يستطيع الدين وحده أن يشعلها .

وهذا هو السبب فى أن التفكير المجرد لم يؤثر فى الناس إلا قليلا .. فى حين أن الدين استطاع دائماً أن ينهض بالافراد . ويبدل الجماعات بقضها وقضيضها .. وينقلها من حال إلى حال .

إن مثالية أوروبا لم تكن أبداً من العوامل الحية المؤثرة فى وجودها .. ولهذا انتجت ذاتا ضاله .. أخذت تبحث عن نفسها بين ديمقراطيات لاتعرف

---

(١) من كلمات الدكتور إقبال : نقلاً عن كتاب : الفكر الإسلامى الحديث للدكتور محمد البهى .

التسامح .. وكل همها استغلال الفقير لصالح الغنى .

وصدقونى : أن أوروبا اليوم هى أكبر عائق فى سبيل الرقى الأخلاقى للانسان [1]

فهل قمنا الآن على قلب رجل واحد .. لنعيد النظر فى هذا الدستور الخالد مرة أخرى .. بعين يقظة وذهن بصير .. لنعرف إلى أى حد سيبلغ بنا هذا الدين من الرفعة والتقدم ؟

لقد حمى وطيس المعركة بيننا وبين طغمة الشيوعيين . الذين جحدوا الدين .. وجعلوا القرآن عضين .

هل سينتصر الشيوعيون .. ورائشوا بنبالهم .. والحاطبون فى حبالهم؟

لا .. وألف مرة لا !!

لأن الجندى المسلم .. الذى صاغه الله تعالى على تلك الصورة .. مستحيل أن يهزم أبداً .

ومهما كثر فى يد الشيوعيين السلاح .. ومهما لاحت لعيونهم بوارق الوعود .. عبر الحدود ! فهم بغاث من الطير .. اجتمعن على صقر !!

وسينتصر الصقر .. وسيقف على أشلائهم .. يزف إلى الحياة مصرعهم .. أما أنتم أيها الشيوعيون فمغانمكم ستكون : أحزان يعقوب .. ومواعيد عرقوب !!

---

(١) المرجع السابق

الـديـــن
بين صديق جاهل .. وعدو عاقل !



عرفنا كيف أحكم الله بهذا القرآن بناء الانسان المادى والروحى .. بحيث أصبح وسيلة فعالة لتعمير الحياة والمحافظة علي الأمن فيها ..

ووضح لنا أن هذا الدين دعوة .. لادعاية .. رسالة لاسياسة .. رسالة بزغت شمسها فوضعت الحرب أوزارها .. وانقلب البشر بنعمة الله إخواناً .

ومع هذه الآيات البينات .. هناك أناس ينكرون الشمس في رائعة النهار ويقولون : إن الدين قد ذهب بأمن الحياة !!؟

وإذا كان الاسلام وهو خلاصة الأديان كلها - وردة ناضرة تنشر أريج الحب والسلام .. فإن لهذه الوردة شوكاً تدافع به عن نفسها .. إذا ما جد الجد .. وحمى وطيس المعركة بيننا وبين أصحاب العقول المستوردة من الخارج !

ونحن مضطرون « قبل استكمال بحثنا » أن نناقش هؤلاء الحساب ونعود أدراجنا للدفاع عن الدين والدعوة إليه .

جاء فى بعض المجلات التى تصدر فى هذا البلد :

« الحى يسعى لتأمين الحياة .. وبالدين هو يسعى لتأمين مابعد الحياة.. والتجربة الانسانية عبر القرون دلت على أن الدين .. وهو وسيلة الناس لتأمين مابعد الحياة .. ذهب بأمن الحياة ذاتها «!!» فلم يبق عاقل يفكر ويستمسك بحرية الفكر التى هى هبة من هبات الله إلا أن يقول اليوم :

دعوا الناس تسلك إلى الله أى طريق تشاء !!

وقد كنت أوثر السكوت أمام هذا الهراء .. فهو لايصبر على النقد

الصحيح .. لأنه كما يقولون : أو هي من إيمان المنافق .. وأضعف من قلب العاشق !

بيد أنه قد تراءى لى .. أن هناك قلوباً فارغة .. قد تستقبل هذا الهراء فى شوق غامر .. والفكرة إذا صادفت قلباً خالياً .. تتمكن .. وواقع الناس وحركة التاريخ .. يكشفان عن وجود هذا الصنف من الناس .. الذين يستقبلون كل جديد بمظاهر الاعجاب والاكبار .. خاصة بين طوائف المتعلمين .

وإزاء هذا .. أجد من واجبى كمسلم محاولة تفنيد هذا الزعم ماستطعت إلى ذلك سبيلا « إن أريد إلا الاصلاح ماستطعت وماتوفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب »

إن الدين ياأخى لم يذهب بأمن الحياة .. ولكن سوء تطبيقه .. هو الذى أطاح به !

فهناك شئ اسمه الاسلام .. وشئ آخر أسمه المسلمون .. وفرق واضح بين الاثنين :

فإذا نبذ المسلمون مبادئ دينهم واتخذوا إلههم هواهم :

إذا ماغاب أحد الفنانين .. فحسبوا مدة غيابه بالثانية ! إذا ماحفظوا أولادهم أغانيه .. وأهملوا كتاب ربهم .. وإذا ماحرصوا علي اقتناء الثياب .. ونسوا ادخار الثواب .. إذا مافشت بينهم النميمة .. والأنانية فاشتعلت بينهم الحروب الضروس .. ونكس الأمن لواءة .. إذا ماوصل المسلمون إلى هذا

الدرك .. فماذنب الاسلام إذن ؟!! ماذنبه .. أيها العزيز ؟

ولو أن أهل الدين صانوه صانهم ∴ ولو عظموه فى النفوس لعظما

ولكن أهانوه .. فهانوا ∴ ودنسوا محياه بالأطماع حتى تجهما !

ثم إن الكاتب ينادى بحرية الفكر المفترى عليها .. فراراً من الدين بتكاليفه وأعبائه .

وهذا كلام يذكرنا بنغمة قديمة .. سمعناها .. فنبذناها وهى : « أن الدين لايعيش إلا فى ظلال السلطان .. بينما لاتعيش الفلسفة إلا فى جو .. حر طليق »

ومن هنا نرى هذا الكاتب وأمثاله يؤمنون بالفلسفة أكثر من إيمانهم بالدين .. مع أن الفلسفة لاتخاطب فى الانسان إلى جانباً واحداً فقط وهو العقل .. بينما يلمس الدين ملكات الفرد كلها ..

والفلسفة رأى نابع من قلب مخلوق .. والدين مبدأ شرعه الخالق .. وأين قدرة المخلوق من قدرة الخالق ؟!

والتاريخ نفسه يكذب هذا الزعم الخاطئ .. واحد من العلماء يذكرنا : لقد أراد الله لهذا الدين أن ينشأ فى أرض عربية .. على يد رسول عربى مبين .

وكانت هناك امبراطورية هندية .. وأخرى صينية .. وثالثة ورابعة .. ولكن الله الحكيم لم يكتب له الميلاد هناك .. لأن الهند والصين – حينئذ – بمالها من جيوش منظمة .. وحكومة متسلطة .. تستطيع أن تتحكم فى سير

هذا الدين .. فيولد .. ليموت !

أما في بلاد العرب فليست هناك حكومة ولا جيوش .. وإنما حرية وانطلاق .. على يد عربي كريم .. أولى صفاته : عشق الحرية .. وحب الانطلاق .

وهذه هى سمة الاسلام الظاهرة : بيئة حرة .. تنبت فيها مبادئ الحرية .. على يد زعيم تضافرت عوامل البيئة .. وعوامل التربية على أن يكون خير هاتف بها ..

فكيف يستقيم فى أذهاننا أن الدين سجن كبير .. ينبغى أن نتسلق أسواره إلى الفضاء المتراحب ؟!

. وإن الحرية لتذكر بالأكبار موقف الاسلام منها .. ودفاعه عنها .. وكيف ننسى أنه أعطى العبيد حرية يحلم بها كثير من الأحرار ُى أوروبا !!

والتاريخ يذكر « أبا حنيفة » الذى أنكر أن يحجر على السفيه صيانة لماله .. مقررا أن الحجر عليه وإن حفظ ماله « إلا أنه هادر لأنسانيته .. وإرادته .

فليسقط المال .. ولتحيا حرية الانسان !!

وإلى متى سيظل الدين مظلوماً فى أوطانه .. غريباً بين أهله !؟ بينما موقفه من الحضارة يذكر فيشكر :

إن تمثال « رودس » أحد عجائب الدنيا السبع .. وكذلك تمثال «زيوس» .. كانا بين عجائب الدنيا لأن وراءهما عاطفة دينية أبرزتهما إلى

الوجود .

والأهرام .. رمز الخلود .. هل جاءت آية الفن الجميل إلا لأن المصريين أعتقدوا بأن هناك يوماً آخر يجزون فيه بما قدموا فاقهم إلى بناء هذا الاهرام؟

ألا ليت هذا الاتهام يأتى من أعداء الدين .. ولكنه يأتيه .. ويأتيه فى تحد سافر من أناس « مسلمين » مرة أخرى :

اللهم أحم هذا الدين من أصدقائه .. أما أعداؤه فهو كفيل بهم !

ثم .. إن الكاتب يدعو إلى فتح الأبواب على مصاريعها .. ليسلك الناس أى طريق يوصلهم إلى الله تعالى ..

والسؤال الآن : أى الطرق أفضل فى الوصول إليه تعالى ؟!

طريق يرسمه الذى يعلم السر وأخفى .. أم طريق يحدده إنسان مغرور .. لايرى أبعد من أنفه ؟!

طريق يوضحه الذى يعلم الماضى .. والحاضر .. والمستقبل .. أم طريق يوضحه إنسان لايعرف نوع غذائه بالأمس ؟

نعم .. إنه الطريق الذى يحدده الحكم البصير .. والقاعدة الشرعية تقول : « لايعبد الله إلا بمايشرع »

وإذا كان صانع الطائرة هو أدرى الناس بدقائق تركيبها .. وطرق استعمالها .. كذلك .. لايعلم سر الانسان .. إلا خالق الإنسان الذى خلقه

فسواه .. وفى أجمل صورة ركبه !

إنه طريق الدين : بعقيدته .. وعباداته .. ومعاملاته .. وهو وحده صخرة النجاة .. فراراً من موجات الألحاد الطاغية .. وما أروع ماقاله المرحوم الشاعر على الجارم .. ناعيا على أمثال هؤلاء الفارغين .. الذين يستوردون آراءهم من الخارج :

سكت العندليب فى قمة الدو ∴ ح .. وغنت نواعق الغربان

أسمعونا من النشوز أفا ∴ نين يرعن صادح الأفنان

أسمعونا برغمنا .. فصبرنا ∴ ثم ثرنا غيظاً على الآذان

جلبوا للقريض ثوبا من الغرب ∴ وماجلبوا سوى الأكفان !!

وأنا سأسلم مع السيد المحرر أن الدين قد ذهب بأمن الحياة .. ولكنى أسأله : أية حياة هذه التى ذهب الدين بأمنها ؟

إنها حياتكم الفارغة العاطلة .. حياة لاخير فى كثير من نجواها .. حياة تضيعون فيها بياض النهار فى جدل لايسمن ولايغني من جوع .

وفى حمرة لياليكم .. تساقط الفضيلة صرعى .. بين وهج المصباح .. ورنين الأقداح !

وهل غاب عنا أمر صديق الاسلام الجاهل .. ذلك الذى أذن فى الناس : بأن يطهر كل إنسان ضميره .. وينقى قلبه .. ولو لم يمارس شعيرة من شعائر الدين !

وكأنى بالإسلام المفترى عليه ينادى :

كنت مغــروراً بكم إذ كنتمــو ∴ شجرا لاتبلغ الطير ذراهــا

لاتنـــام الليــل إلا حولهـــا ∴ حرس ترشح بالموت ظباهــا

وإذا امتدت إلــى أغصانهـــا ∴ كف جان قطعت دون جناها

فتراخى الأمر : حتى أصبحت ∴ هملا يطمع فيها من يراهـــا

وكأنى به يصرخ قائلاً :

اللهم احمنى من أصدقائى .. أما أعدائى فأنا كفيل بهم .. فمذا يقول هؤلاء الاعداء .. وماهى نظرتهم إلى الدين وأثره فى تقويم النفوس : فى الوقت الذى يتنادى فيه أصدقاء الاسلام الجاهلون بالفرار من تكاليفه .. والخروج من حظيرته .

يقول الدكتور « ويلسون » الرئيس الأسبق للولايات المتحدة "

« إن حضارتنا إن لم تنقذ بالمعنويات .. فلن تستطيع المثابرة على البقاء بماديتها .. وأنها لايمكن أن تنجو إلا إذا سرى الروح الدينى فى جميع مسامها .. ذلك هو الأمر الذى يجب أن نتنافس فيه معابدنا ومنظماتنا السياسية .. وأصحاب رؤوس أموالنا .. وكل فرد خائف من الله محب لبلده .

ويقول المارشال « مونتجومرى » فى خطبته أمام الجيش الثامن :

« إن أهم عوامل الانتصار فى الحرب .. هو العامل الاخلاقى .. ولايمكن لقائد أن يدفع جنوده إلى بذل أقصى جهودهم فى العمل .. إلا إذا

كانت ضمائرهم مرتاحة إلى مايعملونه .. ويقيني أن الجيش إذا سار على غير مرضاة الله سار على غير هدى .

إن خطر الانحطاط الخلقي في أفراد الجيش أعظم من خطر العدو .. ولذلك لانستطيع أن ننتصر في معركة إلا إذا انتصرنا على أنفسنا قبل كل شئ .)

فأين منطق رجال الغرب الذين تاهو بين صخب المصانع .. وضجيج المجامع .. أين منطقهم .. من منطق رجال الشرق .. مهبط الرسالات .. والديانات العليا ؟

لقد أصبحت حصيلتنا من فهم الإسلام لانحسد عليها !

لقد قرأت اليوم كلاماً على صفحت مجلة سيارة .. كتبها يراع صديق للاسلام ولكنه عالم !

قال تحت عنوان « الأخاء والمساواة » :

« ومافتئ رسول الله ﷺ يحمل المسلمين على الأخوة .. ويدفعهم إلى وسائلها باللين تارة .. والعنف أخرى »

وأحب أن أقول لفضيلته : إن الرسول الكريم لم يلجأ في حياته إلى العنف أبداً .. حتى وهو يدعو المشركين إلى الاسلام .

والحركات العسكرية التي قام بها .. إنما كانت رداً لعدوان واقع .. أويوشك أن يقع .. تأميناً للدعوة وحماية لها .

ونجاح الانسان فى نشر فضيلة طويت .. لايتوقف على مبلغ عنقه وهو يدعو الناس إليها .. وليس هو فى حاجة إلى عضلات مفتولة وخطط مدبرة.

ولكن على قدر رسوخ المرء فى فضيلة من الفضائل .. يكون نجاحه فى نشرها .

لقد كان الرسول ﷺ تطبيقاً عملياً لهذه الفضيلة .. كان أخ الكبير .. ووالد الصغير .. إنه الوجه المشرق الجميل لهذه العاطفة الشريفة .. التى اختلطت بالأطماع والأحقاد .. وسار بها الناس فى مسالك ضيقة .. على غير ماأرادها الاسلام .. فغاض رواؤها .. ولكن الناس وجدوا فيه عليه السلام طرازاً فريداً .. لم يألفوه من قبل .

يضاف إلى ذلك .. أن ذوات المسلمين .. أعدها الله سبحانه وتعالى لتكون خير تربة تستنبت فيها الفضائل الانسانية .

ولما ساحوا فى الأرض .. كانوا صوراً عملية للأخوة .. للمساواة .. للحب الطاهر العفيف .. فكتب الله لهم النجاح .

ولايمكن أن يكون للعنف مجال والحالة هذه :

فهنا قائد ذكى العقل .. كبير القلب .. ومعه جنود أوفياء شرفاء .. يحدوهم الشوق إلى الفضيلة .. فكان التفاعل بين الطرفين ..فرست دعائم الأخوة .. ورفرفت أعلامها .

ولم يكتف الاستاذ بما قاله .. بل كتب فى موضع اخر يقول :

« وأزال الحواجز بين البيض والملونين .. وجعل الناس فى نظره

سواء.. لافرق بين غنى وفقير .. وعالم وجاهل »

وصحيح أن اللون .. والجنس فى الاسلام لايترتب عليه جزاء .. لأنه ولد مع الانسان .. ولاحيلة له فيه .. على أنه آية من آيات الله فى الكون .. وأثر من الآثار التى تطبع بها البيئة الانسان:

« ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين »

والفقر أيضاً ليس عيباً يشين الانسان ويحط منزلته بين الناس .. لأن الغنى ليس دليلاً على نقاء القلب .. كما أن الفقر لم يكن عنوان سواده !

وكم من أغنياء .. رن فى أيديهم الذهب .. وفاح من حولهم العطر .. ولو قدر لك أن تصل مركز الشم عندك بما تكنه قلوبهم من عواطف .. لشممت رائحة الجيف !!

وكم من فقراء .. خمص البطون .. شعث الرءوس .. ولو كشف لك الغطاء عن نواياهم .. وماتضمره صدورهم .. لشممت روحاً وريحاناً .

ورب أشعث أغبر .. لو أقسم على الله لأبره »

غير أننى لاأوافق السيد الكاتب على أن الاسلام نظر إلى الجاهل والعالم بعين واحدة .. ووزنهما بميزان واحد !

كيف .. وأول آية نزلت على الرسول ﷺ دعوة إلى العلم .. وحث عليه:

﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق ﴾

ثم .. إن تسوية العالم بالجاهل انتكاس .. وإجراء مضاد لهذا المبدأ الخالد .. الذى أريد منه أن يكون دعوة للعقل الجيس حينئذ أن يثبت وجوده فى مجالات الحياة .وفى ميدان الصناعة والزراعة لايسوى بين عالم وجاهل : « هل يستوى الذين يعلمون .. والذين لايعلمون »

إنما يخشى الله من عباده العلماء .. فالعلم وصول بالانسان إلى مخ العبادة ولبابها .. بحيث يتذوق الانسان طعمها .. ويدرك حكمتها .. ورب فقيه أشد على الشيطان من ألف عابد لم يتذوق للعبادة طعماً !

« فما من مصلحة الانسانية جمعاء .. أن يتساوى فيها العلم والجهل.. والسعى والكسل .. والطيبة والخبث .. والفطنة والذكاء .. ومامن أحد يرضى عن هذا التساوى ويطلبه ويجعله أساساً للمعاملة فى المجتمعات الانسانية .. إلا أن يكون من أراذل الخلق .. الذين وطنوا أنفسهم على الاخلاد إلى الضعة .. واستراحوا إلى نصيبهم من الجهل والعجز .. وأضمروا الحسد والضغينة على من يسمو بهمته إلى نصيب فوق هذاالنصيب » (١)

---

(١) من مقال للاستاذ عباس محمود العقاد .



المـــاء...
والحيـــاة...
والديـــن...



وتسامى البلبل الشادى فى جو السماء .. يرقص على متن الصبا
ـعوب منادياً : ابتسمى أيتها الحياة .. فقد جاء الربيع .. وسرى لحنه
ـأخاذ فى أجواز الفضاء ندياً .. وتفتحت أكمام الزهر نشوى بالعيد الجديد!

وغير بعيد .. أبصرت أمواج النهر تضطرب .. وعهدى به ساكناً
هادئاً .. وما أجملها من لحظات تلك التى يهرب فيها الانسان من صخب
حياة وفتنتها .. ثم يلقى بنفسه بين أحضان الطبيعة يتملاها .. ويرى فى
هذه الطبيعة الفسيحة .. صفحات منشورة تنطق بقدرة الله وجلاله .

ماأرقك أيها الماء .. إنك عنصر الحياة .. وسيد الشراب .. وركن
ـعالم الركين .. « وجعلنا من الماء كل شئ حى »

ألم تر إلى هذا النهر يتدفق هينا رفيقاً .. وهؤلاء الصبية يقذفونه
ـبالحصى مرة .. وبالحجارة أخرى .. وكلما ألقى فيه حجر تبسم له .. ثم
ـبتلعه وكأن شيئاً لم يكن ؟

بل إنهم ليقذفونه بالجحارة لهواً ولعباً .. بينما يقذفهم من لدنه لحما
طرياً .

وهكذا الرجل الحليم فى دنيا الناس !! إن قلبه الكبير ليسع من إيذاء
ـناس أشتاتاً .. وتضيع فى خضمه الكبير قذائف الحاقدين .. وتهم المبطلين
.. وفى نفس الوقت .. يبتسم أمام عدوانهم وحمقهم .. ثم يمنحهم من قلبه
عطفا .. ومن بين شفتيه كلمات رطاباً !

أريد حياته .. ويريد قتلى !

ثم .. ألا ترى المشابه واضحة بين الماء والمال ؟ نعم . هناك أكثر من شبه :

« إن آخذ المال لايخلو من ذله .. كما أن خائض الماء لاينجو من بله! والمال يساعد الأوغاد دون الأمجاد .. كما أن الماء يجتمع في الوهاد دون النجاد ..

والمال لايجتمع إلا بكد البخيل .. كما أن الماء لايجتمع إلا بسد المسيل.. ثم يفنى المال ولايبقى - كالماء فى الكف !

بل إن هذا الماء الجاري يمثل رحمة الله بالناس :

إن رحمته تعالى تنتقى القلوب الكسيرة المتواضعة .. لتمدها بروائها.. وتنفحها ببركاتها .. بينما تنبو عن القلوب المتكبرة المتعالية فلا تتنزل عليها أبداً .

تماماً كهذا الماء الجارى :

إنه ينتقى مجراه فى هذا الأخدود الخفيض .. ولايجتمع فوق هذه الأكوام .. ولافوق الجسور العالية .

وقد كان « اقبال » شاعر باكستان .. يأسره مشهد النافورة الضاربة فى عنان السماء .. ولم يكن يأسره منظر النهر الهادئ الحنون ..

بيد أننى أعشق النهر الجارى فى رفق ولين .. لأننى أحب فيه الرجل الحانى .. صاحب الصدر الرحيب .. وأعشق فيه دلالته على رحمة الله .. وما أفقرنا إلى رحمة تعالى !

إنه آية بين أيدينا .. تمثل القدر الغالب ممسكاً فى قبضته حبل المنون.. ينتشل به من محيط الحياة بنى الانسان .. ثم يقذف بهم هناك .. فى واحة العدم !!

وصافح سمعى نداء البلبل تارة أخى .. يدق أجراس الربيع .. وتخطت بى الذاكرة قروناً مضت من عمر الحياة ..

يوم أن وقف بلال على بطحاء مكة .. يزف إلى الحيارى بشرى قدوم الربيع ..

يوم أن أطل محمد العظيم على الدنيا المحروبة .. وفى يمينه بذور من المبادئ .. والقيم .. نثرها فأنبتت فى حقل البشرية جنة مديدة الظل .. طيبة الثمر .. ولم تكن هذه الجنة سوى : أبى بكر .. وعمر .. وعثمان .. وأمثالهم من رعيل الاسلام الأول !

ومنذ ودعوا الحياة .. وغابوا خلف أسوارها .. ودع الاسلام على إثرهم ربيعه الأول ..

ثم عاش بين شتاء بارد .. تهب فيه أعاصير الأنانية .. وعواصف الألحاد ..

وبين صيف قائظ حار .. تنبعث فى سمائه رياح الحقد والحسد !!

وغاب ربيع الاسلام .. وطالت غيبته .. فهل يعود ؟؟

وأكاد أسمعك ياقارئى العزيز تسأل نفسك : ماصلة الحديث عن الماء والحياة بما نحن فيه ؟!

ومن حقك أن تسأل .. ومن حقنا أن نجيب !

لقد كنت مستغرقاً فى تأملاتى .. تلك التى سلفت .. وسبحت بخاطرى مع الماء الجارى .. وصلته بحياتنا .. أرمقه بمشاعر البهجة والأنس .. فقد غاب عنا طويلاً .. ثم جاء .ورآنى زميل .. فهتف من بعيد : ماأجمل الماء.. ثم اقترب منى وقال : « إن يوم مجئ الماء بالنسبة لنا .. يعتبر أروع عيد !! وأسفت .. أن أرى صاحبى تبهره مفاتن الطبيعة .. فينسى خالق هذه الطبيعة !

ينسى أن الكون بما حوى .. وأن الأرض بما رحبت .. لاتساوى عقيدة واحدة .. يبثها فينا هذا العيد .. عيد الأضحى !

قلت له :

هب أن الماء غمر البطاح وتحول الجو إلى أفواه القرب .. ثم اهتزت الأرض .. وربت .. وأنبتت من كل زوج بهيج ..ألا يحتاج هذا الزرع إلى الآمانة حتى لايجور فلاح على جاره فيجار عليه ؟

ألا يحتاج إي نظام حتى يأخذ شكله هذا البديع ؟

ألا يتطلب التخلق بصفة الصبر حتى يستطيع الفلاح أن يبذل جهده لانضاج الثمر .. لاشك فى أن هذه الصفات .. أمهات للفضائل كلها التى يحتاج إليها فلاح الحقل !

وفى أى مجال تعثر على هذه الخلال ؟ إننا نجدها فى ديننا الحنيف .. فهو بعقائده وشرائعه يمدنا بهذه الخلال .. وعيد الأضحى كشعيرة من

شعائره يمنحنا أكبر نصيب منها ..

إنه ذكرى .. نسترجع فيها ميلاد الامانة .. والصبر .. وقوة الارادة ..

رجل يأمره ربه بذبح ابنه البكر .. فيتقبل الأمر راضياً مطمئناً .. وينتصر قلبه الصابر على غريزة الأبوة الهاتفة فى كيانه ! ثم يحاول أن ينفذ الأمر فى أمانة .. ودقة .. تضبط حركاته وسكناته إرادة ماضية !!

وأيقنت أن هذا الدين المفترى عليه يعانى جحوداً لايطاق .. من بنيه والناطقين باسمه !

وياليت الضربة تأتيه من عدو .. بيد أنها تأتيه من منطقة الأمان ويقذف بالحجارة .. من حيث ينبغى أن يرمى بالورود والأزاهير .. وأضحت مذاهب الغرب .. وحضارة الغرب .. نشيداً حلو الرنين على ألسنة شبابنا .

مع أن هذه االحضارة التى يتغنون بها فى صورها الإيجابية .. إنما هى ابنة الاسلام الشرعية.

أليست فرنسا هى أول دولة ظهرت فيها الحضارة وتقدم العمران ؟

لأنها أول دولة غزتها مبادئ الإسلام أيام أن كانت له دولة ورجال .. فى الاندلس .. الفردوس المفقود !

نعم .. تشبع الفرنسيون بتعاليمه ومثله .. فاستطاعت فرنسا أن تضرب السهم وافر .. فى مجالات العلم والصناعة .. ثم سار مد الحضارة حتى شمل أوروبا كلها ..

ولكن الحق يعيش فى هذا العصر غريباً فى وطنه .. والحقيقة تائهة كطفل صغير .. وسط الجماهير المتراكضة ..

والذين يبحثون عنها كثيرون .. وهم فى بحثهم عنها تختلف أفكارهم عمقاً واتساعاً .. تبعاً لتنوع ثقافاتهم وماأحاط بهم من ظروف وملابسات .. تطبع تفكير الفرد .. وتلون آراءه تجاه الناس والأحداث .

ومن السهل عليك أن تلتقى على الحق مع رجل جاهل يعترف بجهله .. ويؤمن بأن العقل البشرى مهما علم .. فله حدود وقيود .. شأن كل حاسة زود بها الانسان .

وقد تلمس « سقراط » علة معقولة دفعت الناس إلي وصفه بأحكم حكماء أثينا .. فلم تكن إلا : أنه جاهل يعترف بجهله ! وهذا هو جواز المرور إلى ساحات المعرفة .. ونقطة الانطلاق إلى آفاقها العليا .

وقد يكون من العسير عليك أن تقنع شخصاً له حظ من ذكاء .. ونصيب من إدراك .. قد يصعب عليك ذلك .. لأن ثقته المطلقة بنفسه تلقى على الصواب غشاء .. تصعب معه الرؤية !

فحسب أن حصوله على شهادة .. أو فوزه بجائزه يدل على أنه أول الناجحين .. وآخرهم أيضاً !!

مع هذا .. سيظل الدين صخرة النجاة .. لمن يبحثون عن ربوة للنجاه..

أجل .. سيظل صخرة .. تنحسر فى سفحها أفكار الذين ربطوا

عقولهم بالأرض .. ولم يحلقوا بها .. فوق مستوى المادة !!

ولعل مما يناسب المقام أن نختم الحديث بكلمة قالها « هكاروند لاسكى» المفكر البريطانى .. نقدمها هدية للذين تستهويهم أفكار الغربيين .. فيصدرون فى كل مايقولون عنهم :

« إن عالم اليوم يعانى من الشعور العميق بخيبة الأمل » وقد انتشر هذا الشعور فى أماكن كثيرة .. ويبدو أن جيلنا فقد قيمته ..

لقد حل الشك السافر محل اليقين .. وحل اليأس محل الأمل ..

ويبدو أن الاتجاهات الحديثة فى الفن والأدب والموسيقي لاتعترف بالتراث الذى ابدع روائع الماضى .

والحرب قد سددت ضرباتها القاضية للمعتقدات الدينية التى كانت مقياساً دائماً للسلوك .

ويبدو أن الكنائس أصبحت وسيلة للقيام بطقوس شكلية .. بدلا من التأثير على معتقدات الناس .

فهذا عالم مادى .. وكلماته تترجم عن قلق الغرب .. وبلبلة نفسه واحترابه .. ومفهوم كلمته الأخير .. أن الكنيسة لو أدت رسالتها كاملة فى التأثير على الناس .. لاطمئنوا»

تجاوب القرآن .. مع فطرة الانسان

الانسان كائن حى .. ومعنى كونه حياً أن له وجوداً يلمسه ويحس به .

وهذا الوجود يتطلب منه عملاً دائباً .. وسعياً حثيثاً .. لتثبيت دعائمه.. وسد حاجاته .. فما دامت هناك أنفاس تتردد فى صدر الانسان .. فهو عامل آملٌ .. والنتيجة :

أن الميل إلى العمل ميل فطرى .. فى نفس الانسان .. ورغبة طبيعية تحتاج دائماً إلى اشباع .

وحيث كانت الرغبة فى العمل أصيلة عنده .. نجد الاسلام يتجه به اتجاهاً ينمى عنده هذه النزعة .

فطلب منه أن يمارس مختلف الألعاب الرياضية .. كالسباحة والرماية وركوب الخيل .. وكل عمل من شأنه أن يدعم كيانه .. ويشغل وقته بالصالح من الأعمال .. بدل أن يصرف طاقاته فى مجالات أخرى .. تضر بالمجتمع .

وإذا ماانطلقنا بفكرنا نتملى آيات الكتاب الكريم .. سندرك إلى أى مدى استجاب القرآن لهذه النزعة .

اقرأ قوله تعالى :

﴿ وهزى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً ﴾

لقد كان من الممكن أن يتدخل القدر الأعلى .. فيعفيها من أى مجهود تبذله .. ويساقط عليها الجني شهياً .. ولكنه ساوق منطق الفطرة : فأصدر

أمرا إلهيا بأن تدفع الثمن .. فتهزه أولاً .. فيأتيها الثمر ثانياً !

ألم تر أن الله قال لمريم ... وهزى إليك الجذع يساقط الرطب

ولو شاء أن تجنيه من غير هزة ... جنته .. ولكن كل شئ له سبب

يقول الاستاذ الشيخ محمد المدنى :

« ولما كان فراغ النفس محالاً .. حرص علماء النفس وحذاق المربين على أن يشغلوا الشباب بالأعمال الهادفة .. وألا يتركوهم بحكم هذه الفطرة إلى الأعمال الهازلة أو التافهة أو الفاسدة .. كما حرصوا على أن يملأوا القلوب بالعقائد الصحيحة .. والمبادئ السليمة .. والمثل القويمة .. لئلا يدفعوا إلى مايناقض ذلك .

فإن الذى لايؤمن لابد أن يجحد .. والذى لايمتلئ قلبه بالفضيلة .. لايلبث أن يقع فى مهاوى الرذيلة .. والذي لايسير فى الطريق المستقيم .. لابد أن يسير فى طريق الضلال أو الفساد .

إلى أن يقول :

وفى القرآن الكريم آيات يفهم منها هذا الذى نظرناه .. فالله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ **فذلكم الله ربكم الحق .. فماذا بعد الحق إلا الضلال .. فأنى تصرفون** ﴾

وذلك واضح فى أنه لاواسطة .. وأن من انصرف عن الحق عامدا أو غير عامد فقد وقع فى الضلال معذوراً أو غير معذور .

الدليل .. الذى لايملك نفسه إزاء التطورات الحتمية للاقتصاد والانتاج .

وإنما جعل الانسان هو الاصل .. جعل القلب البشرى هو المصدر الذى تصدر عنه الطاقة .. ويصدر عنه الاشعاع .

ولكنه فى الوقت ذاته لم يشأ أن يجعله معلقاً فى البرج العاجى .. يطلق شحنته الهائلة فى الفضاء .. فى قفزات الخيال وسبحات الروح .. وإنما أراد لهذه الطاقة الضخمة أن تنتج فى واقع الأرض .. وأن تنشئ مجتمعها ونظامها بوحى من العقيدة وهدى من الله .

فيتوازن بذلك الشعور والعمل .. والوجدان والسلوك .. ويتوازن بذلك الانسان .

ولم يكن من ذلك بد .. مادام الاسلام دين الفطرة .. إن المشاعر المرفرفة .. والوجدان المشرق .. والافكار الجميلة .. لاقيمة لها إذا لم تتحول لتوها إلى قوة بانية فى عالم الواقع .. إذا لم تتحول إلى حقيقة ظاهرة ملموسة يحس بها الناس » [١]

روى أن الله تعالى أوحى لنبى من أبنبيائه أن قل لفلان الزاهد :

أما زهدك فى الدنيا .. فقد تعجلت به الراحة .. وأم انقطاعك إلى .. فقد اكتسبت به العز .. ولكن .. ماذا عملت فيما لى عليك ؟

فقال : يارب .. وأى شئ لك على ؟

---

(١) محمد قطب .

فقال : هل واليت فىّ وليا .. أو عاديت فىّ عدوا ؟»

ففى كل بقعة من بقاع العالم أعداء لله .. يوجهون سهامهم المسمومة إلى دينه الذى ارتضى .. فهل حاولت أن تردعن هذا الدين سهماً ؟

هناك رجل يقول : إن الدين خرافة .. وثان يقول : إن الصلاة .. والحج .. طقوس دينية استنفذت اغراضها .

وثالث يصيح : يجب على الدين أن يتخلى عن مركز القيادة .. ويعطى الزمام للعلم ..

فماذا عملت إزاء هؤلاء جميعاً .. هناك زهور تريد أن تنشق عن برعم طرى .. وهناك مواد كيماوية تنتظر العقل الذكى .. ليصوغ منها مستقبل الأمة وتاريخها ..

وفى الشرق الإسلامى أيضاً .. أطفال صغار .. بل ورجال كبار تتخطفهم مدارس التبشير من كل جانب .. كأنها كلاب الصيد .. وهم فى حاجة إلى منقذ وافد ..

فهل كنت أنت .. هذا المنقذ المنتظر !؟

لا .. بل رضيت من الغنيمة .. بتمتمة الشفاة .. وهز الرأس .. وإذن .. لم خلق الله لك لساناً .. وشفتين .. وهداك النجدين ؟ .. لكى تقتحم العقبة.. فهل اقتحمتها ؟

لا !! إنك ياأخى لتجلس من شجرة الاسلام على دوحة عالية فيها .. بعيداً عن الحياة .. بعيداً عن الأحياء ..

وتركت أعداء الله كالسوس ينخر ساقها .. وجذورها .. ويمتص منها عصارة الحياة ..

وغدا .. إذا لم تستيقظ من نومك .. وتطرد عن جفنيك سنة الكرى .. فستهوى بك تلك الشجرة .. وأنفك يعلوه الرغام !!

وما أجمل ماجاء في الأثر :

إن الله سبحانه وتعالى أوحى إلى ملك من الملائكة أن اخسف بقرية كذا .. وكذا .

فقال : يارب .. وكيف .. وفيها فلان الزاهد .. فيقول تعالى : به فابدأ .. فإنه لم يتمعر وجهه فيّ قط !

ولكن الانسان فى سعيه ونشاطه مع مواكب الاحياء .. عرضة للخطأ من حيث هو إنسان .. والاسلام على عكس بعض المذاهب .. يدخل فى حسابه هذا الاعتبار .. فإذا ماعمل الانسان .. فأخطأ .. فتاب .. قبلت توبته .. وأقيلت عثرته .. وعاد كيوم ولدته أمه .. أبيض الصحيفة ..

ويحدثنا التاريخ أن رجلاً عبد الله عشرين سنة .. ثم نزغه من الشيطان نزغ .. واستطاعت الدنيا بزخرفها ومتاعها أن تلوى زمامه إليها .. وفى لحظة من لحظات الضعف البشرى .. أسلم لها قياده .. وأخذته دوامة الشهوات بعيداً .. بعيداً .. يدعى فلا يجيب .. ويلوح له .. فلا يرى !

وفى يوم صحت نفسه الغافية .. وبدأ يستعيد ذكرياته يوم أن كان يافعاً .. فرأى ذنوبه وخطاياه .. كأنها كومة من الرمال تحجبه عن الله .

وبوحى من هذا الشعور .. كان كلما حاول أن يطرق أبواب السماء تائباً .. يرجع بنفسه خشية أن يرد !!

وكأنه يناجي نفسه بما يقوله الشاعر :

عصيت هوى نفسى صغيراً .. وعندما ∴ رمانى زمانى بالمشيب والكبر

أطعت الهوى .. عكس القضية.. ليتنى ∴ ولدت كبيراً ثم عدت إلى الصغر

ولكن السماء تفتحت أبوابها وطرق مسامعه صوت من السماء مشرق ندى :

أطعتنا فأثبناك .. وعصيتنا فأمهلناك .. وإن عدت إلينا قبلناك .

« قل ياعبادى الذين أسرفوا عل أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله .. إن الله يغفر الذنوب جميعاً »

ويجب أن يفهم المتعصبون والمتزمتون هذا المعنى جيداً .. حتى لايضروا الدين من حيث أرادوا له نفعا !

والمذنب – غير المستهتر طبعاً – كالغريق .. دارت به غوارب الموج بين تصعيد وتصويب ..

هل يجوز لك أن تنفر منه .. لأنه لو قعد فى بيته ماحدث له ذلك ؟

ليس من الحكمة هذا .. وماعليك إلا أن تنقذه مااستطعت إلى ذلك سبيلا ..

يجب أن يكون موقفك كريماً .. إزاء رجل ارتكب خطيئة أو اثماً .. كن

رذاذاً رطباً .. يذوب على إثره ماقترفه من آثام .. فتكسب الجولة .

لأنك إن قسوت عليه في الأسلوب .. وشددت النكير عليه .. خسرت صداقته .. ولم تبلغ ماتريد .. وكنت كالمنبت : لا أرضاً قطع .. ولاظهراً أبقى.. واعتبر نفسك حينئذ في قائمة القصرين .. الذين لايأمرون بمعرف ولاينهون عن منكر .

وإن تعجب فعجب أن ترى إنساناً أشاح بوجهه عنك .. لأنك أخطأت مرة .. وكان هذا النفور كل بضاعته في محاربة الآثمين .. وهذا فرار قبيح من طريق الجهاد في سبيل الله .

إن الذين يريدون من الانسان أن يكون ملاكاً يمشي على الأرض .. فئة عقلها في إجازة .. مستهم ريح الغفلة .. فعاشوا في أكنافها سكارى !

فالمرء غير محكوم بالعقل وحده .. حتى تستخدم قضاياه في معاملة الناس .

ولكن المرء محكوم مع هذا بقوة الشهوة .. وقوة الغضب .. ولذلك يقع في الخطأ .. ولو كان عالماً يتصدى للوعظ والأرشاد .. وماأجمل قول ابن عطاء الله :

« ليس الشأن ألا تذنب .. ولكن الشأن ألا تقيم على الذنب .. إن أنين المذنبين .. أحب إلى الله من زجل المسبحين .. رب معصية أورثت ذلاً وانكساراً .. خير من طاعة أورثت عزاً واستكباراً »

إن الناس لايمدحون « زيداً » لأنه لم يخطئ في العمر مرة .. غير أن

ـرد المدح عندهم هو : محاولة المخطئ أن يتخلص من زلاته .. بحيث لا يستكين لها .. ولايركن إليها .. بل يجاهد ويكافح .. لانتشال قدميه من بين رمال الخطيئة .. ليقف على أرض صلبة .

ومرجع الذم .. هو خلو الإنسان من هذه الروح المتوثبة .. التى تجعله جامداً .. بعيداً عن اليأس .. منتصراً على ضعف النفس .. ومايتكون فيها من عقد تصبغ حياته بلون قاتم بغيض ..

ومن هنا .. كان الشارع الحكيم حكيما .. عندما افترض فى الانسان أنه بشر يخطئ ويصيب فقرر أن :

« كل بنى آدم خطاءون .. وخير الخطائين التوابون »

اقرأ قوله تعالى :

﴿ **ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا** ﴾

ثم يفصل الله هؤلاء العباد الذين اصطفاهم وفضلهم على العالمين .. فإذا هم بشر مثلنا .. يعيشون بيننا .. ولابد أنهم مارسوا الخطيئة .. إلا أنهم تابوا وأنابوا فقال :

﴿ **فمنهم ظالم لنفسه .. ومنهم مقتصد .. ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله** ﴾

فالعبد الذى ظلم نفسه فوقع ضحية لهواها يوماً .. والذى خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً .. هو عبد لله .. بل هو عبد اصطفاه الله .. إذا تدارك نفسه .. وصحح موقفه مع الله .

ولايفوتنا أن نشير إلى لمحة تضمنتها الآية الكريمة :

فقد قيد السبق بالخيرات بقوله تعالى : ﴿ **بإذن الله** ﴾ .. وكأن عمل الخير ليس طقوساً تؤدى .. أو آيات تتلى .. وليس هو عمل آلى .. تقوم به الجوارح فقط .. إنما الخير كل الخير .. هو مااشتركت فيه الاعضاء .. بالعمل .. والقلب بالنية الصالحة .. ومن فوق هذا كله توفيق الله وتيسيره .. فهو خير ضمان لنجاح الأعمال .

وهذا .. على عكس ماذهبت إليه مدرسة أفلاطون .. من أن المفروض فى البشر هو العصمة من الخطأ .. ذلك حاجز قاس فى طريق الطبيعة البشرية .. وعائق معطل لسيرها وتقدمها .

وهؤلاء الذين لايعرفون إلى الخطأ سبيلا .. ليسوا بيننا .. إنما هم الموتى فى ظلام القبور !

وهذه لمحة مضيئة سمعناها فوعيناها .. من استاذنا الدكتور عبد الحليم محمود .. فقدل لفت أنظارنا إلى قوله تعالى :

﴿ **قل لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين .. لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولا** ﴾

فالملائكة مع مافى قلوبهم من أشواق.. ومافى أرواحهم من إشراق .. مع أن الشهوة العارمة نزعت من أرض نفوسهم .. فاستراحوا من أوضارها ومضارها .. ومع أن الشيطان الرجيم حيل بين وساوسه وبينهم .. مع كل هذا :

فلو قدر لهم أن يمارسوا حياتنا هذه .. على ظهر الأرض .. لكان لابد
نهم من زلة .. بالتالى .. جاءتهم الرسل تترى .. لتعلمهم مناهج السلوك ..
وتأخذ بأيهم إلى الطريق المستقيم ..

وهذه لمحات من شأنها أن تشيع الأمل فى القلوب اليائسة .. وتشع
الغبطة والأنس فى الأرواح المكدودة .. لتبدأ نشاطها من جديد ..

ولست أدرى إذا عاش كل الناس بيض الصحيفة .. فلمن يغفر الله
الذنوب إذن ؟

ومن المستحيل أن تمشى فى زحمة الحياة المائجة .. تأخذ من
الطبيعة.. وتعطيها .. وتنفعل بالحياة .. وتنفعل بك الحياة .

من المستحيل أن يكون وضعك علي هذا النحو .. ثم لاتخطئ فى العمر
مرة .. ومرات !

فيامن تكرهون عباد الله الآثمين .. ثم لاتعظونهم .. نريد أن نلزمكم
كلمة الحق .. ونكشف عن أنظاركم سحب الجهل :

إعلموا - إن لم تكونوا تعلمون - أنكم بسياستكم هذه .. تشقون
طريق الاسلام فوق بئر سحيق .. وستكونون أول المتردين فيها !!

إلينا أيها المسرفون

فى فترة من فترات الضعف البشرى .. عندما يغفو الرقيب فى نفس الانسان .. فتأخذ العقل سنة من النوم .. يستمرئ بعدها لذة الكرى ..

فى هذه اللحظة .. قد تنحل عقدة الارادة .. ويتداعى بناؤها .. فتنطلق الشهوة عارمة .. وتندفع الغريزة قاصمة ..

ثم يبدأ الانسان بعدها جولة مع الشيطان .. معصوب العين .. لايدرى إلى أين المساق .

حتى إذا أفاق من غفوته .. وصحا من عثرته .. فتح عينيه ليرى دماء الفضيلة متبعثرة هنا وهناك .

وربما وجد في الخطيئة لذة زينها له شيطانه .. لم يحس بمثلها وهو يمارس الفضيلة : وأحب شئ إلى الانسان مامنعا .. وبين دعوة الدنيا .. ووقدة الحواس .. يعود مرة ومرة .. إلى أن يصبح العصيان عنده عادة .. والعادة طبيعة ثانية !

ومن ثم .. يمضى مع الشيطان فى رحلة بعيدة المدى .. لايلوى زمامه صيحة نذير .. أو نصيحة خبير .

وتمر الأيام تترى .. فيبلى من نسيج الفضيلة بقدرها .. وفى هزة من هزات الحياة .. قد يصحو الضمير .. ويتحول همسه الخافت إلى رعد قاصف .. فتسرى العافية بين أعطاف العقل الفانى .

ويرمى الانسان ببصره إلى الوراء .. فيفاجأ بركام من الخطايا ..

تنوء بحمله الجبال ..

ويقف على مفترق الطرق .. كهيكل معتصر .. كطيف حائر .. كروح هائم شارد .. لايجد له فى الأرض مقعداً .. ولا إلى السماء مصعداً .

ثم يتطلع إلى السماء .. يتناوشه الأمل والخوف .. يتقاذفه الخوف والرجاء .. تدوى فى قلبه هذه الهتافات :

هل تقبل السماء توبة رجل غاب تحت ركام من الخطايا ؟

هل تخترق الضراعة الحارة حجب السماء .. فتتنزل على القلب الهلوع بوارق الأمل .. يتفتح معها للحياة ؟

لقد عبدتك ياربى سنين عددا .. ثم انتزعتنى الشهوات من بين أحضان الفضيلة انتزاعاً .. فانعكست الآية : إذ عبدتك صغيراً .. وعصيتك كبيراً .. يارب : عبدك ببابك .. ذهبت أيامه .. وبقيت آثامه .. وانقطعت شهواته .. وبدت تبعاته .. فارض عنه فإن لم ترض عنه .. فاعف عنه ..

كم تحببت إلى يارب بالنعم مع غناك عنى .. وكم تبغضت إليك بالمعاصى مع فقرى إليك ..

يامن إذا وعد وفى .. وإذا أوعد عفا .. أدخل كبير جرمى فى عظيم عفوك .. ياأرحم الراحمين ..

ولكن ضراعات التائبين ليس بينها وبين الله حجاب .. والمدد الوافد من السماء .. سرعان مايهبط على هذا القلب المحترق .. من فوق سبع سماوات .. فإذا البكاء هناء .. وإذا الاشراق مكان الاحتراق ..

وقبل أن تتقلص ظلال الأمل فى خيال هذا الانسان .. يملأ روعه نبأ البشرى :

﴿ إن ربك واسع المغفرة ﴾ ﴿ نبئ عبادى أنى أنا الغفور الرحيم ﴾ ﴿ إن الله يغفر الذنوب جميعا ﴾ .

وهنا يلمع فى وجداننا المعنى الحقيقى لما تقدم .. فليست الآيات السابقة ألعوبة فى أيدى الجماهير .. ترتكب باسمها الجرائم .. وليست هى مادة فى القانون .. قد تخضع للأهواء والمطامع .

وليست الآيات أشجاراً وارفة الظلال فى طريق عام .. يتفيأ ظلالها الصالح والطالح .. الناسك والفاتك .

بيد أنها رحمة مهداة .. للذين استخفهم الشيطان .. وأسكرهم بخمرة الأثم زمناً طويلاً .

ثم صحا فيهم الضمير .. ولسعتهم حرارة الندم .. فأقبلوا على ربهم يهرعون .

عندئذ .. تتنزل عليهم .. فتسرى فى حلوقهم كالماء الزلال .. وتبدو فى حسهم كالواحة الغيناء .. يأوى إليها المكدود .. بعد أن اشتط به المزار .. وطال السفر ..

وبهذا : نلتقى بالثقة الكاملة بالاسلام ومنهجه الراشد فى تربية النفوس ..

فعندما يسأل الانسان نفسه : ماذا ستكون النتيجة .. لو ترك إنسان من هذا الطراز للهموم تنهش فؤاده .. والندم الملح يعصر كبده ؟

واحد من اثنين :

إما أن ينطلق ريحاً عاصفاً .. يقتلع أشجار الفضيلة ويذرو ثمارها : لايؤمن بعرف .. ولايخضع لقانون ..

وإما أن يستسلم لليأس القانط .. فيموت كمداً .. وتموت معه الفضائل النفسية والعقلية .. التى تذبل زهراتها فى جو هذا اليأس الكئيب .

وكلا الأمرين .. أحلاهما مر !!

ونتائجها بالنسبة للفرد والمجتمع خطيرة بالغة الأثر :

« إما عزلة قاتلة فى أطواء ندم كثيف .. لاتنفذ منه شعاعة أمل .. وهذا هو المسخ الذى يحيل الانسان إلى عالم الموات .. وإما تحلل وانحلال : لايبقى علي فضيلة أو خلق .. هكذا تكون موجات اليأس دائماً : لاتدفع اليائسين إلا إلى هذين الطرفين المتناقضين » (١)

ولكن الإسلام العظيم يسلك بالناس طريقاً قاصداً .. لاترى فيه عوجاً ولاأمتاً .. فالانسان بشر : يخطئ ويصيب .. وقد تكون الذنوب دروساً تمدنا بالخبرة .. ونستلهمها فن الحياة ..

وإذا ملكاتنا تخرج من هذه الخطايا .. متفتحة ناضجة « كما تخرج الزهرة يانعة من بين الأوحال »

---

(١) من كتاب : عروبة ودين « للأستاذ / أحمد حسن الباقورى » .

إن الإسلام الحنيف يبسط جناحيه للذين أضناهم العذاب .. وتنكرت لهم الأيام :

يحملهم إلى عالم جديد .. ينسون فى رحباته ذكريات الماضى .. فتنمو فيهم الطاقة الروحية .. فيملأون الدنيا من جديد عدلاً وفضلاً .

وإلى هنا سنفتح أعيننا جيداً .. لنتابع فى إعجاب آسر .. فصلاً آخر فى قصة الإسلام الخالدة .. التى يحاول بها أن يخلق من الانسان خليفة لله فى أرضه .

إن الاسلام لايكتفى بمشاعر الندم تترقرق فى حنايا القلب .. ولايكفيه أن ينتفض المذنب فتتساقط عنه أوزاره كأنها أوراق الخريف .. لأن هذه المشاعر الحانية لابد وأن تتحول فى دنيا الواقع إلى أعمال جسام .

والعزم على مصاحبة الفضيلة .. لابد وأن يكون أساساً وطيداً لبناء ضخم من العمل الصالح .

وبناء على ذلك نرى القرآن ينتقل بالانسان نقلة أخرى - بعد قبول توبته - فيوجه إليه أمره بأن يعمل .. ويواصل العمل .. بحيث لايقف عند هذا الحد « السالب ».

لابد من شحنة « موجبة » كى تكتمل الدائرة .. فتتكهرب النفس وتسعى للحياة سعياً .

استمع إلى قوله تعالى :

﴿ والذين لايدعون مع الله إلهاً آخر ولايقتلون النفس التى حرم الله إلا

بالحق ولايزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاما .. يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا .. إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيما ﴾

فهنا يذكر التوبة .. ثم يقفى على إثرها بالعمل الصالح .. ليملأ الفراغ المتخلف عن مجانبة الرذيلة .

ثم نقرأ قوله تعالى :

﴿ إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين ﴾ .

واختيار لفظ « وأصلحوا » دفع بالتائب إلى التقدم ليصلح ماأفسده .. فمن أتلف شيئاً فميزان العدل يلزمه بإصلاحه !

فإذا كان قد تسبب فى قطيعة رحم .. أو باعد بين صديقين .. فليحاول أن يجمع بينهم ويرأب صدعهم .

وإذا قتطع شجرة فليزرع أختها .. وإذا كان قد سرق .. فليؤد ماسرقه .. وليتق الله ربه .. وبهذا التوجيه السديد – وهو مبدأ أقره علماء النفس – لايحن الانسان إى مزاولة الجريمة مرة أخرى ..

ونحن نقف الآن خاشعين بين يدى الامام على رضي الله عنه .. لنستمع إليه وهو يبين للتائبين معالم الطريق وخطة السير :

على الماضي من الذنوب الندامة .. وللفرائض الأعادة .. ورد المظالم .. واستحلال الخصوم .. وأن تعزم على ألا تعود .

وأن تذيب نفسك فى طاعة الله تعالى .. كما أذبتها فى المعصية .. وأن تذيقها مرارة الطاعات .. كما أذقتها حلاوة المعاصى) .. ثم ننصت إلى الامام الغزالى رضى الله عنه وهو يرسم لنا المنهج العملى للسلوك .. فيقرر أن التوبة الصحيحة :

(أن تتوقف وتكف عن الذنب .. ثم تحاول جبر مافاتك . فأنت إذا نفخت فى المرآة رأيت سحابة .. وسحابة فوق أخري ستصبح سواداً .

فلا يكفي أن تكف عن النفخ .. بل حاول أن تجلو الصدأ المتراكم .. وذلك :

بأن تعمل حسنة مضادة للسيئة التى ارتكبتها : فإذا كنت شربت خمراً .. فتصدق بشراب حلال .. وإذا اغتبت إنساناً فاستغفر له فى الحديث.

وأن ترد المال إلى من أخذته منه ظلماً .. وإلا فتصدق به على المحتاجين .. والقاتل السفاك يعتق العبيد .. لأنه إحياء لهم .

ويكفر عن سماع الملاهى بتلاوة القرآن الكريم ومجاسة أهل العلم)

وعند هذه النقطة .. أكاد أسمع سائلاً :

لقد أثبت أنت أن العمل طبيعة الانسان .. وأنه تبعاً لذلك قد يخطئ ويصيب .. وهذا تصرف حميد .

ولكنه تصرف يحدث بعد وقوع المعصية أو الجريمة فعلاً .. إلا أننا نريد أن نتبين مقدار جهد الإسلام .. ومبلغ سعيه فى محاربة الجريمة حتى

لاتقع ..

مـاهـى الوسـائل التى اتخذها .. ليـجنب الانسـان ويلات الوقـوع فى الذنب أو ارتكاب الجريمة ؟

وهذا ماسنعرض له فى الفصل الآتى :

الإسلام ثورة على الجريمة

الاسلام فى جوهرة دعوة إلى السلام .. دعوة إلى العيش فى ظلال عاطفة شريفة : هى الحب !

وعندما تصافح آذاننا كلمة « إسلام » وإذا ماأبصرناها حبراً على ورق .. لانسمع كلمة.. ولا نرى خطا .. وإنما يحس الانسان إزاءها بروح شفاف يسرى فى وعيه .. يعيش معه فى برد الطمأنينة وسكينة القرار .

ومن أجل هذا التعاطف خلقنا .. وبه وحده نستطيع أداء رسالتنا على بسيط الأرض .. قال تعالى :

﴿ ياأيها الناس : إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ﴾

فالإنسان عدو مايجهل .. وبالتعارف تتقارب مسافة الخلف بين الشخصين .. فينشأ الحب الناتج عن المعرفة .

ومن هنا تتجمع القوى .. وتتعانق الجهود فى قناة فولاذية واحدة .. لتنطلق فى آفاق الحياة كقوة خلاقة هائلة .. كقذيفة مسددة تخترق قناة من حديد !

الحب إذن .. وثمرته الأمن والطمأنينة .. هو حجر الزاوية فى بناء الفرد .

وكما تلتقى الروافد جميعاً وتتلاشى فى البحر الكبير .. تلتقى الفضائل كلها فى تلك الكلمة الرضية الحانية !

فالعفة .. والشجاعة .. والصدق .. والوفاء .. كلها مفاهيم تنضوى تحت راية هذه الكلمة الخالدة : الحب !

ومن أجل ذلك جاهد المصلحون .. ورجال التصوف الاسلامى الأوائل.. جاهدوا جهادا كبيرا لأرساء قواعدها كشرعة بين الناس ومنهاج.

ولم يكن الصوفيون بين الجماعات البشرية بدعا.. إنما هو رجوع بنا إلى المنبع الأصيل .. الذى عكرت صفوه اغاشيات الهوى فتغير طعمه ولونه وريحه ليعود كما كان فى حياة الرسول العظيم .. عذبا فراتا.

وبذلك يبطل زعم الذين يحاولون النيل من الاسلام من أعداء الحياة.. ويصنعون له من خيالهم مخالب فيصورونه كالوحش الجسور .. ويصنعون له من خيالهم مخالب وأنياباً .. وقالوا .. انتصر بالسيف .. لترويع الآمنين .

ولا على الاسلام من ذلك كما يقول الاستاذ محمد الغزالى :

« لقد أدى الاسلام واجبه فى كسر شوكة العدوان .. وفى قهر الضلال على التراجع .. وعلى ترك المكاسب الطائلة التى حصل عليها .. فليسمع الشتائم والتهم من السلطان المعزول .. أو من الوحش المقهور !

فلأن يشتم الاسلام وهو حى .. يؤدى رسالته النبيلة .. أفضل من أن يبيد .. ثم نسمع فيه كلمات الرثاء » !

وتلك كلمات - ياقارئى العزيز - أقدمها بين يدى بحثنا هذا .. لأقفز معك إلى نقطة أخرى فأقرر :

إن ديناً يتخذ من التعاطف والتراحم أساساً له .. لهو أحرى الأديان بمحاربة الجريمة بجميع صورها وأشكالها .

ذلك .. لأن الجريمة غول بشع يلتهم فى سعار حصاد الحب وثماره .. التى هى الأمن والسكينة .. كما بينت لك آنفاً .

فكيف حارب الاسلام الجريمة إذن ؟ كيف طهر نفسية الانسان وهيأها لممارسة السلوك الراشد السوى ؟

لنبدأ معه من أول الشوط :

إنه يحارب دوافع الجريمة فى الانسان .. حتى قبل أن يكون نطفة تخرج من بين الصلب والترائب !

يقول تعالى :

﴿ وانكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم ﴾

ويقول صلوات الله وسلامه عليه :

(تخيروا لنطفكم .. فإن العرق دساس)

وتلك إشارات ضخمة إلى أثر الوراثة فى تكوين الخلق .. وتشكيل الطباع .. وبذلك يمشى الدين مع العلم جنباً إلى جنب :

فإذا أراد الشاب اختيار شريكة حياته .. فليحاول أن يختارها صالحة خيرة .. تعيش فى بيئة نظيفة طاهرة .

ذلك لأن العرق دساس .. والانسان منا كما يقولون كالعربة :

يحمل كل خصائص آبائه وأجداده .. وإن بعدوا !

فلا تتخذ شريكة حياتك من أسرة اشتهرت بمرض معين حتى لايخرج طفلك فريسة لهذا المرض .. فيضطرب مزاجه .. ويختل عقله .. وبذلك يفعل الجرائم هكذا تلقائياً .. وبالسليقة !

ولاتقترن بفتاة من أسرة تميزت بالسرقة .. أو الكذب .. أو سفك الدماء .. حتى لايطلع أبنك فى أفق الحياة .. وفى تكوينه بذور تلك الشرور جميعاً .

فإذا ماتفتحت أبواب الوجود لتستقبل مولوداً جديداً .. فماذا أعد له الاسلام من مبادئ وقواعد . حتى لايزل فيض !

إن واقع الحياة وحركة التاريخ يقرران :

أن المرء وحده ضعيف لايستطيع أن يأخذ من الطبيعة كل ماتهفو إليه نفسه ويتطلع فؤاده .

من أجل ذلك نجده فى حاجة ماسة إلى جماعة ينضوي تحت جناحها .. لكى يحصل فى أكنافها على مايريد :

تطعمه إذا جاع .. وتكسوه إذا عرى .. وتداويه إذا مرض .

ولكى يكون الغنم بالغرم .. لابد له من الخضوع لتقاليد هذه الجماعة واحترام قوانينها فى نظير حمايتها له وحد بها عليه .

فهو مسئول أمامها عن كل عمل يقترحه .. وعن كل لفظ من شأنه أن

يمس كرامتها ويضر بمصلحتها .

وشعور الانسان بهذه المسئولية عامل هام فى تحديد سلوكه وتهذيب تصرفاته .. ولو خف هذا الشعور وخبا ضياؤه لجمح بالانسان هواه فانتهك حرمات الآخرين دون خوف من قانون أو عرف ..

وهنا مربط الفرس .. حيث تنشأ الجريمة وتتجمع أسباب ظهورها !

هل الجريمة شئ إلا الاستهتار الناشئ عن عدم تقدير الشخص للآخرين .. وعن تسويغ تصرفه .. وإلقاء تبعة جريمته على المجتمع الذى لم يهيئ له فرصة العمل .. فسرق .

ولم يمهد له أسباب الزواج .. فزنى .. ولم يضمن له العيش الهنئ فطغى فى البلاد وأكثر فيها الفساد . من أجل ذلك تتطلع الجماعات إلى الدين مستنجدة به .. ليقوم بدوره الفعال فى هذا الميدان .

فنرى التربية الدينية تركز على الشعور بالمسئولية .. وعلى فردية التبعية .. فنمت هذا الشعور .. وعمقت مجراه فى الذات .

بمعنى أنها تغرس فى الوجدان وفى العقل أن ثمرات أعمال الانسان سيجنيها هو وحده .. إن خيراً فخيراً .. وإن شراً فشراً .

فليس هو مسئولاً أمام الجماعة فقط .. ولكنه مسئول أمام الحق تبارك وتعالى .. وعندئذ يقاد الانسان من الداخل لامن الخارج .. يقاد بضميره .. لابقانون الجماعة التى تكثر لدى المجرمين فرص النجاه منه .. والذى لايعاقب على الدوافع والنوايا :

﴿ يوم يتذكر الإنسان أنى له الذكرى .. يقول : ياليتنى قدمت لحياتى ﴾

والحديث الشريف يجسم هذا المعني : يقول ﷺ :

(اعبد الله كأنك تراه .. فإن لم تكن تراه فإنه يراك) .. أى اشعر أثناء عملك أنك مسئول عنه أمام الحق تعالى .. وإذن فستحاول بناء علي هذا ألا تنصت لحديث نفسك الأمارة بالسوء .. وسيكون سلوكك مثال الكمال والجمال .

وتربية هذه الشعور عند الانسان تظهر واضحة فى هذه الآيات البينات :

﴿ وأن ليس للانسان إلا ماسعى وأن سعيه سوف يرى ﴾

﴿ بل الانسان على نفسه بصيرة ولو ألقى معاذيره ﴾

﴿ كل نفس بما كسبت رهينه ﴾

﴿ لها ماكسبت وعليها مااكتسبت ﴾

﴿ من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها ﴾

﴿ فمن اهتدى فلنفسه .. ومن ضل فإنما يضل عليها ﴾

﴿ كل امرئ بما كسب رهين ﴾

وقله ﷺ :

﴿ كلكم راع وكل راع مسئول عن رعيته ﴾

فهذه الآيات الكريمة تحيى فى الانسان الضمير .. ليكون فى وعيه

ديدباناً يقظاً .. حكما عدلاً .. قاضياً نزيها .. يشكل أفعاله على نحو مستقيم .. ينسجم به مع المجموعة التى يعيش فيها .. بحيث يسعد .. ويسعد من حوله الآخرون .



القرآن يوجه الغرائز

وينزل الطفل على الحياة ضيفاً جديداً .. أبيض الصحيفة نقى السريرة .. مشرق الوجدان .

ثم يخرج من بين الصلب والترائب وفى طبيعته خصائص آبائه وأجداده .. باسطاً ذراعيه للحياة .. رافعاً رايته البيضاء لها ... ولسان الحال إن أعجزه المقال ينادى :

جئت حمامة تنشد فى ربعك الخصيب نشيد السلام ..

ثم يتشكل سلوكه فى قالب البيئة التى ولد فيها .. البيت .. المدرسة .. الأصدقاء .. طبيعة المناخ .. كل الناس الذين تربطه بهم صلة وتجمعه وإياهم دائرة واحدة .. وهذه البيئة تتعاون مع عوامل الوراثة فى تكوين شخصية الطفل وتحديد اتجاهاته .

وكما يأخذ الماء شكل الزجاجة التى تحتويه .. يأخذ الطفل طابع المجتمع الذى يعيش فيه .

وقد أعجبنى تصوير الانسان فى مجتمعه بآلة تصوير :

الفكر هو « اللوح الحساس » الذى يطبع عليه الضوء مايعرض أمامه من مناظر الحياة وآراء الناس .. وعيناه عدسة توصل الضوء والصور إلي داخل الآلة .. ومارأى الشخص إلا الصور التى يبرزها المصور نقلاً عن اللوح الحساس .. فرأى الانسان ومشاعره .. هى صورة لما انطبع على لوحة فكره من آراء الناس .

وإذا كان المجتمع بهذه المثابه من الخطورة .. إذا كان المجتمع مصدر كل الآراء والاتجاهات التى تؤثر فى سيره إلى الأمام أو تأخره إلى الوراء .. فإن الاسلام يسلط أضواءه الكاشفة عليه .. إذ هو النبع الفياض .. يستقى منه الانسان شرابه .. ليحوله إلى غذاء صالح لبناء مستقبل صالح .

وما الأسرة بعلاقاتها المختلفة إلا صورة مصغرة لهذا المجتمع الكبير.. وقد شملها الإسلام برعايته ليخلق منها عشاً جميلاً .. يأوى إليه الإنسان فيجد الراحة بعد طول عناء .

ماالذى صنعه الدين لها ؟

حدد واجبات كل من الزوج وزوجه تجاه الآخر . كيلاً تكون الحقوق دولة فى قبضة واحد .. والواجبات عبئاً ثقيلاً على كتف آخر .. وجعل التفاهم .. والرفق دستوراً يسيران على هداه .

فيوجه نداءه للرجال قائلاً :

(وعاشروهن بالمعروف : فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً)

وبذلك يسد القرآن كل طريق أمام وساوس النفس .. تلك الوساوس التى تتحول إلى حقائق بعد أن يجسمها الوهم .. فتنقلب الحياة الزوجية رأساً على عقب .

فإذا كرهت زوجتك لأنها دميمة .. فأنت ظالم ! فربما أنجبت لك ولدا صالحا .. يهز الحياة هزا!

وإذا كنت لاتنجب إناثاً .. فغيرها من النساء لاينجب قط ! فإذا أخطأت المرأة ذات يوم .. فعظة بالغة تهز نفسها .. فإن لم تجد .. فهجر المضجع بعيداً عنها ..

ولا ينبغى للزوج أن يلجأ إلى الضرب إلا إذا لم تثمر إحدى هاتين العقوتين :

﴿ واللاتى تخافون نشوزهن : فعظوهن واهجروهن فى المضاجع واضربوهن .. فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً ﴾

ثم بين للمرأة طريقها اللائق بها .. وأن سعادة البيت فى طاعة الزوج . والحديث الشريف يقرر أن الملائكة تلعن الزوجة التى تخرج بغير إذن زوجها .. حتى تعود .

ورسالة المرأة فى بيتها من الأهمية بمكان .. وإذا كان ساسة الأمم ومصلحوها يديرون شئون الجيل الحاضر .. فإن المرأة فى البيت تدبر شئون الأجيال المقبلة .. كما قيل .

فليس قانون المرأة : قصقصى طيرك .. لئلا يلوف بغيرك :

ولكنه كما قالته اعرابية لابنتها العروس : « إنك داخلة على زوج لم تعاشريه .. فكونى له أرضاً يكن لك سماء .. كونى له مهاداً لينا : عفيفة القلب .. واليد واللسان .. يكن هو بدوره سماء تغمرك بالضيا» .. وتمطرك بالغيث .. وفى جمالها .. وفسحتها تذوب عنك آلام الزمن وأسقامه .. وبهذا التوجيه السديد .. يخرج الطفل إلى الحياة نسخة واضحة غير مهزوزة ..

لوالدين كريمين .. وخلاصة مركزه لمجموعة من الفضائل والشمائل .

فإذا مااختل هذا الميزان .. وإذا مانطلقت عواصف الغيرة جامحة .. وظهرت الأنانية بوجهها الكالح .. انقلبت السفينة وراحت نهباً للأنواء .. وتنتهي مثل هذه الحرب دائماً .. بهزيمة الفريقين !!

فهى على حساب راحة الزوج وأمنه .. وهى من ناحية أخرى .. على حساب كرامة المرأة وسمعتها وكرامتها .. ومع هذا .. وقبل هذا .. تطبع الطفل الوليد بطابع قاتم .. يختل معه ميزان حياته .. وتحتويه مجموعة من العقد النفسية .. التى تجعل الحياة جحيماً لايطاق .

وقد سجلت الأحصائيات أخيراص : أن الخلافات الزوجية أضر على الأطفال من زوجة الأب .

على أن الاحصائية العلمية أثبتت أم ٩٠٪ من نزلاء الاصلاحيات جاءت نتيجة حتمية للشجار الدائر بين الطرفين .. ثم الطلاق..

وإذن .. فالطفل وريعة فى يد ابويه.. كصفحة نقية بيضاء .. لالغو فيها ولا تأثيم..

وفى استطاعة الأبوين أن يخطا فى هذه الصفحة قصيدة جميلة تتغنى بالفضيلة وتعلو على نزوة الأهواء..

وهما مسئولان عنه أمام الله وأمام الناس ..

وقد سمعنا قريباً عن قانون صدر فى بعض الولايات الأمريكية ينص

على معاقبة الأب الذى يهمل فى تربية أبنائه.

وهو فى واقع الأمر قانون اسلامى.. وإن كان يحمل اسما أمريكيا!؟

فالله سبحانه وتعالى يقول :

"يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة".

وإذا كنت تخاف على ولدك من نار الدنيا - كما يقول الإمام الغزالى - فلأن تحفظه من نار الآخرة أولى..

فإذا ما قامت الأسرة بواجبها كاملا نحو الطفل .. سلمته بعد ذلك الى المدرسة نظيفاً..

ثم تحمل المدرسة الراية من بعدها .. لتمضى بالطفل فى رحلة العيش خطوات أخرى نحو الكمال النفسى والعقلى..

وإذا كان خطر البيت ينحصر فى أن الصبى فيه كالعجينة الرخوة يشكل على أية صورة..

فإن أهمية المدرسة تظهر فى أنها الفترة الحرجة فى تاريخ الانسان.. فترة المراهقة .. حيث تتفتح فيه المواهب.. وتستيقظ الميول باحثة عن الطريق الذى تعبر فيه عن نفسها.. وتنتشى الغرائز والطاقات المختلفة.. وتستوى على سوقها .. تلح فى التنفيس عن ذاتها..

وإذا لم تهيئ المدرسة لهذه الغرائز .. وتلك الطاقات مجالاتها التى

تعمل فيها.. تمردت وانفجرت.. فيتحطم بذلك وجود الشخص المادى والأدبى.

والقرآن بتوجيهاته السامية يرسم للمدرسة خير المجالات.. ويحدد الدوائر .. لتتقدم كل غريزة فتجد فيها طلبتها.. بصورة تعود على الفرد والمجتمع بالخير والرفاهية.

ونحن نرى علماء الاسلام من رجال التربية ينادون .. بل يحتمون الرياضة بجميع صورها :

"علموا أولادكم السباحة والرماية وركوب الخيل"

الى غير ذلك من التوجيهات التى تتسامى بهذه النزعات وتبتعد بها عن معنى الحيوانية فيها.. بحيث تكون للأنسان عونا وظهيراً .. وإذا مارجعنا الى القرآن الكريم.. سنجد فيه صوارحية نابضة لتلك المجالات.. التى رسمتها لتكون مرعى خصيبا لهذه الغرائز :

ففى طبيعة الانسان غريزة المقاتلة.. فنراه يأخذ بيدها.. ثم يطلقها فى مرعاها اللائق بها وهو القتال فى سبيل ارساء قواعد العدل والسلام :

"وجاهدوا فى الله حق جهاده"

"فليقاتل فى سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة"

وبذلك لاتلتفت الى وسيلة اخرى غير شريفة كالقتل والسلب وقطع الطريق.

والغريزة الجنسية يحس كل انسان منا ضرواتها فى نفسه.. والقرآن يلوح لها. ويدفعها الى الزواج حتى لاتلجأ بصاحبها الى البغاء .. فيتهدم

كيان الأسر :

"ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم ازواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون".

والإنسان طموح بالطبع.. وبدل أن ندعه يترك لهذا الطموح حبله على غاربه فيهدم مستقبله.. ومستقبل أمته.. فإن القرآن الكريم يسوقه الى العمل.. الى الانشاء والتعمير.. الى صنع الطائرات والنفاثات .. ولكن من أجل السلام..

"وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس".

وهذه التربة التى نشأت فيها الدعوة الاسلامية.. تربة غنية بالمواد التى لاتستغنى عنها أمة.. وما كان لله ليجعل الجزيرة العربية مهبط الرسالات.. ثم لايحوطها بأسباب بقائها وخلودها من الناحيتين : المادية والمعنوية..

وهذه آية من كتاب الله تشحذ همم المسلمين الى التنقيب فى أرضهم لاستخراج كنوزها . وهى لمحة واعية لأحد العلماء الأدباء :

يقول تعالى فى شأن قرى قوم لوط :

"فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل إن فى ذلك لآيات للمتوسمين"

فكلمة "المتوسمين" لم ترد فى القرآن إلا فى ختام هذه الآية .. فالقرى عندما قلبت بأهلها .. ظهر مافى باطنها من المواد المختلفة.. فكأن الله

سبحانه وتعالى ينبهنا إلى إعمال الفكر.. والبحث فى هذه البقعة الهامة من بلادنا لاستنباط عناصر حضارتنا .. ولكن للأسف الشديد غفلنا.. وأهملنا كتاب ربنا..

وتركنا المستشرقين يدرسون القرآن بدقة وعناية .. فحفظوا القرآن.. وسلطوا على هذه البقعة أضواء الفكر.. وعلموا أن انفراد هذه الآية بكلمة "المتوسمين".. دون غيرها دلالة على أن فى الأمر سرا..

وفعلا .. اجمعوا امرهم .. وإمكاناتهم .. واستخرجوا كنوز هذه الأرض .. واستخدموا المواد التى دخلت فى تركيب قنابلهم الذية والهيدروجينية.. والتى يهددوننا بها اليوم !!

وغريزة حب الاستطلاع تتجه أول ماتتجه الى التجسس .. والكشف على عورات الناس وعيوبهم .. فيضرب الناس بعضهم رقاب بعض ..

ولكن القرآن يرسم لها ميدانها الخليق بها :

"قل انظروا ماذا فى السموات والأرض "

وفى أنفسكم آفلا تبصرون"

﴿ أفلا ينظرون إلى الأبل كيف خلقت .. والى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت والى الأرض كيف سطحت ﴾

وهكذا .. فيما يتعلق بجميع الغرائز والميول ..

وإذا كانت الجريمة تجد مهدها فى فشل الانسان فى التوفيق بين

ميوله وقانون مجتمعه .. فإن القرآن بمسلكه الذى عرفناه الآن يخلق الانسجام بينهما .. فيشيع الأمن .. وتنتشر السكينة ويطوى الحقد رايته السوداء .. أمام أشعة الحب البيضاء !



حول مأدبة القرآن

من دسائس اليهود

عندما جاء محمد ﷺ بالهدى ودين الحق .. كان المفروض على اليهود- وهم أهل كتاب - أن يؤمنوا بكتاب أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم .

وحتى يقف أنصار التوحيد - جمعيا - فى جهة واحدة أمام وثنيه أزرت بعقل الأنسان .. وكفرت بكل الأديان .

ولكن اليهود سارعوا فى الفكر والعدوان ..

فلما جاءهم ماعرفوا كفروابه .. وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا ..

وإذا كان الضعيف - فى عراكه مع الغير - لا يكون صريحا واضحا .. وإنما .. يراوغ كالثعلب .. ويتلون كالحرباء ..

فكذلك كان بنو اسرائيل :

«لقد اتخذ عداؤهم للدين الجديد سبيل التشكيك فى نبوة محمد ﷺ .

فبذلوا أقصى ما يمكن من جهد لقطع الصلة بين القيادة والجنود. وذلك بالتفنين فى صياغة الأسئلة لياً بألسنتهم وطعنا فى الدين .. حتى يستطيعوا عزل المسلمين بعيدا عن القاعدة .. عن المحور الذى يدورون حوله .. ليكون الجميع هكذا كالسوائم : عرضا على غير طريق :

فقالـــوا : كيف يقع النسخ هذا ؟

يامسلمون : يأمركم محمد اليوم بشئ ثم ينسخه غدا ؟

وكيف ينسجم هذا ودعواه أنه رسول ؟!

ولكن الله سبحانه وتعالى يرد الحق إلى نصابه .. فيفضح اليهود .. وينصح المسلمين :

«ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها» .

ذلك بأن الرسالة لكى تكون خاتمة .. مساوقة للتطور الإنسانى لابد لها من أمرين :

أولهمـــا : مبادئ ثابتة تشدها إلى الأصل الأصيل حتى يرتبط الأزل بالأبد ..

وثانيهما : آيات بينات يتجدد نزولها على مر السنين .. مع الحياة المتجددة النامية .. سيرا بالبشرية إلى مستقبل واعد كريم .. فهل – مع هذا – يعد النسخ عيبا من عيوب التشريع .. حتى يتخذه اليهود ذريعة لتشكيك المسلمين فى نبوة محمد عليه الصلاة والسلام ؟

إذا محاسنى اللاتى أدل بها ∴ كانت عيوبى .. فقل لى : كيف أعتذر ؟!

وسواء أجهل أحبار اليهود هذا المعنى أم تجاهلوه .. فإن الواقع النار يخى يلزمهم كلمة الحق :

جاء فى التوراة أن الله تعالى قال لنوح عليه السلام :

(إنى جعلت كل دابة مأكلالك ولذريتك .. وأطلقت ذلك لكم كنبات العشب . ماخلا الدم فلا تأكلوه)

وقد أباح الله تعلى لآدم عليه السلام أن يزوج الأخت من الأخ وقد حرم هذا على بنى اسرائيل .

وإذن .. فقد وقع النسخ .. فهو جائز .. فأنتم كاذبون عندما تنكرونه .

وأنت أيها المسلم المخدوع بظاهر من القول .. كيف تشك ؟ وأين إيمانك ؟

أين عهدك مع مولاك حين خان اليهود ذلك العهد ؟

«ألم تعلم أن الله على كل شئ قدير . ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض » .

ومن كان مثله قادرا . مالكا .. فهو وحده يغير .. وينسخ .. إذا اقتضت حكمته هذا النسخ .. وهذا التغيير .

وأنتم ياجماعة المسلمين :

ها هو ذا فصل الخطاب فى القضية ..

أتريدونه؟

(أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل) ؟

لقد سألوا موسى أكبر من ذلك .. فقالوا : أرنا الله جهرة .. فضلوا سواء السبيل .

لقدا تحرفوا عن الصراط المستقيم .. بينما هو أقصر الطرق إلى الله سبحانه وتعالى .

لقد جرفهم التيار بعيدا . بعيدا .. وبقى السبيل خاليا .. وعلى حين غفلة .. نظروا :

فإذا وقع أقدام عليه .. تتجاوب أصداؤها عبر الوادى ..

وإذا صوت يعلو ..

واية ترتفع ..

ما الذى حدث ؟!

السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار .. يحملون تبعات الرسالة .. فى عزم مكين . ومشهد آسر ..

وهنا اتقدت جذوة الحقد فى صدور بنى اسرائيل وود كثير من أهل الكتاب : لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا .. حسدا من عند أنفسهم من بعدما تبين لهم الحق »

وهنا نلمح مفتاح القضية .. ونقف على السر الرهيب .. الذى يكمن وراء حملة التضليل اليهودية على الدولة الناشئة ..

إن هذه الأسئلة .. وتلك الشبهات .. إنما هى محاولة يائسة لوقف الزحف .. بفتح ميدان جديد للحرب البادرة .. أسلحته الجدال والمراء

لماذا ؟

لكسب الوقت .. حتى تلملم الفلول الهاربة قواها .. فى محاولة لتبديد الطاقة الاسلامية النابضة .. فى مسارب جدلية فارغة .. لاتغنى عن الحق شيئا ..

وهى حملة – لو نجحت – لاشك ستعطل الزحف .. وستأخذ من الوقت

والجهد مالوتوفر لسار بالمسلمين إلى الأمام خطوات نحو الهدف ..

وإنها لسياسة ملتوية ماكرة ..

يُغذِّيها شعورُ المهزوم بأنه :

من العار – وقد هزم – أن يترك الميدان لعدوه خاليا .. يسرح فيه كما يشاء !

وإذ تكشفت هذه النيه .. وظهر الضمير الدنس على المسرح يحرك الشخوص الهزيلة .. حتى تجذبكم عن سواء الصراط ..

إذا كان الأمر كذلك :

" فاعفوا واصفحوا "

ولابد من هذا العفو القادر .. حتى تفوتوا على اليهود ذلك الغرض اللئيم !

واتجهوا بكل طاقاتكم إتجاها رأسيا سماويا :

" وأقيموا الصلاة "

ثم ليأخذ هذا المدد السماوى الروحى .. ليأخذ اتجاها آخر إنسانيا اجتماعيا :

"وآتوا الزكاة "

وعلى هاتين الدعامتين : تقوم صلتكم بالله .. وصلتكم بالانسان ..

فسيروا فى رعاية الله .. فى ضوء رقابة عليا :

" إن الله بما تعملون بصير "

وإذا ماتبجح أهل الكتاب .. وتناسوا هاتين الدعامتين كأساس لتقييم الأعمال وسبب للفلاح فى الأخره ..

إذا وصلت بهم الوقاحة إلى هذا الحد وقالوا :

" لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى "

فاعلموا أنها محاولة أخرى لصدكم عن السبيل .. ولَىٍّ أعناقكم عن الغاية الكبرى التى ناطتها الأقدار بكم ..

ومن ثم .. واصلوا المسير إلى أكرم مصير :

"بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولاهم يحزنون"

العقــدة الآثمــة

"وقالوا : لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى .. تلك أمانِيهُم قل : هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين :

في حديث سابق ذكرنا افتيات اليهود على الحق .. عندما ادعوا أن الجنة وقف عليهم فقالوا : لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً .. واليوم .. يطيب لنا أن نضئ شمعة .. لنبصر في سناها :

كيف كان هذا وهما يهجس به خيالٌ مريض

ولننظر إلى العنكبوت اتخذت بيتا .. وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت .. لو كانوا يعلمون

وإذا كان بعض الناس يرى من حقه : أن يقول أى شئ .. وأن يتمنى كل شئ..

فإن من حق حراس العقيدة. ودعاة الحق .. أن يردوا عن هذا الحق أعداءه .. وأن ينظموا المقدمات على نسق فطرى منطقى .. لتسلمنا إلى فصل الخطاب.

ليعلم هؤلاء الناس : أن حرية التعبير يجب أن يكونَ صنوَها سلامةُ هذا التعبير !

وأن الأمانىَّ العذابَ .. يجب أن يحلوَ فى سبيلها العذاب !

أجل : يجب أن يُساوقها رصيد من العمل فى بنك الحياة !

فأين فى دعوى اليهود تلك السلامةُ .. وأين منها ذلك العمل ؟

إنه من السهل أن تواجهنى بدعواك !

ولكن الخُطوة التالية : أن تقذف بالدليل يشد أعصابها ..

وينتظمُ أعضاءها .. ليمتد لها فى واقع الحياة ظل .. ومنطق اليهود هذا .. إنما هو منطق أبناء الذوات .. الذين تهبط بهم أعمالهم إلى دركْ من الذل سحيق ..

ثم يحاولون الصعود إلى أعلى .. فلا يجدون إلا ذكريات أمجاد سلفت ..

وباسم العظام النخرة فى سلام القبور يحاولون فرض وجودهم على الحياة ..

ونحن باسم الاسلام نجيبهم بالكلمة الباقية :

"قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين" إن كنتم صادقين فى تفردكم بالحق دون سواكم :

لاتقل عن عمل ذا ناقص

جئ بأوفى ثم قل : ذا أكمل

إن يغب عن عين سارٍ قمر

فحرام أن يلام المشعل !

لاتقولوا : نحن أبناء الله وأحباؤه .. قل فلم يعذبكم بذنوبكم ؟ بل أنتم

بشر من خلق

لاتقولوا : نحن أبناء إبراهيم وأولى الناس به

لأن الله تعالى يقول :

"ماكان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا .. ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين"

وعلى الذين يدّعون احتكار مواريثه أنْ يترسموا خطاه إلى الله ..

"إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه. وهذا النبى والذين آمنوا ..

فهل اتبعتموه إذ هتفتم باسمه ؟ كلا !

لقد رفع إبراهيم القواعد من البيت واسماعيل .. ليكون منارا للتوحيد..

بينما انتم اليوم .. بالدس : بالمؤامرات مع الوثنية الباغية تحاولون نسف هذا الرمز .. وتحويل الحرم الآمن .. إلى بحيرة تسيل بدماء الأبرياء..

ولقد وقف ابراهيم أمام ربه عبدا خاشعا ضارعا .. يعلم الحياة معنى العبودية لواهب هذه الحياة :(ربنا تقبل منا).

(إنك أنت السميع العليم)

(إنك أنت التواب الرحيم)

(إنك أنت العزيز الحكيم)

فماذا قلتم أنتم :

قلتم : (يد الله مغلولة «غلت أيدكم)

وقلتم : عزيز بن الله ..

وقلتم على مريم بهتانا عظيما ..

«ألا ما أبعد المسافة بين توحيد الآباء .. وتوحيد الأبناء .. وأنه لبعد يوازيه ما بينهما من زمان»!!

(ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه .. ولقد اصطفيناه فى الدينا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين.

إذ قال له ربه أسلم : قال أسلمت لرب العالمين).

ووصى بها ابراهيم بنيه ويعقوب يابنى :(إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون) .

مرة أخرى : هاتوا برهانكم .

قد تدّعون كثرة الأنبياء فيكم .. فأنتم أقرب إلى الله .. وأنتم الشعب المختار .. وهذا الأختيار يزكيه من تاريخنا بقايا..

ونحن تقول سلفا وأيضا تؤيده من الحقد شظايا !!

وانصافا للحق : لقد صدق اليهود هذه المرة !

ولكن .. لنا أن نقول : هذه الكثرة لهم .. أم عليهم ؟

من كان له أذنان للسمع فليسمع :

تصوروا معى مريضا .. استدعينا له طبيبا .. وثانيا .: ثم عززنا هما بثالث .. ولكن المرض أعجلهم عن الشفاء ..

إن العلة إذن ضاربة الجذور .. وإن الجرح لغائر .. وإن "الشعب المختار " لعصى على الشفاء" !

ولقد صدق العقاد حين قال :

«المؤرخ اليهودى – هارون – لم يكذب التاريخ حين قال :

إن عيسى عليه السلام نشأ من اسرائيل. وبعث فى اسرائيل ،

ولكنه ينكر التاريخ فى صحيحه .. ولا يصيب مرماه من دعواه إذا ساق هذا الخبر مساق الفخر لبنى قومه الأقدمين . أو مساق الزلفى إلى أمم العالم بحقوق اسرائيل عليها .

إذ ليس من الفخر لإسرائيل أن تلحق فيها بعثةُ عيسى بعثاتِ المرسلين من قبله إلى ذلك الشعب الصغير ..

فإن افتقار الشعب الصغير إلى الدعوات المتلاحقة علامة بينة على الضلالة الدائمة . والعوج الدائم . والحاجة الدائمة إلى التقويم والتذكير)..

ومن خلال هذه السطور نلمح الرغبة .. ونلمس العقدة .. التى تقف وراء أمثال هذا الا دعاء :

إنهم شعب مختار .. فلهم على الأمم حقوق .. فينبغى أن تكون لهم دولة هناك فى خيبر وبنى قريظة !

وهنا – وبكل طاقة السمع فينا – نصغى إلى قوله تعالى :

"تلك أمانيهم"

إنها «تلك» إشارة البعيد .. إلى آمال تراودهم بعيدة !

إنها بداية المؤامرة رغبة فى السيطرة .. ليتحول العالم إى مجزرة ! ولو كانت اليهودية كدين .. هى التى تواجهنا بمثل هذا الادعاء .. لهان الأمر .. وقلنا : أحلام اليقظة تراود خيال الكُسالى والعاجزين .. وغدا يسفر الصبح لذى عينين .. ونجتمع على كلمة سواء ولكن القناع يسقط .. والطلاء الكاذب تذوره رياح بادرة .. ويظهر وجه الصهيونيه البقيص أمس واليوم يحاول أن يخط فوق أشلاء الابرياء طريقاً ..

يحاول أن يبنى دولة فى فلسطين .. كما كانت لهم فى خيبر وبنى قريظة !! ومرة أخرى . وبكل طاقة السمع فينا– نُصيغى إلى قوله تعالى :

"تلك أما نيهم"

أما نيهم .. تتحدر من الأسلاف إلى الأخلاف ..

أتوا صوابه .. ؟ بل هم قوم طاغون

كلهم أروغ من ثلعب ∴ ما أشبه الليلة بالبارحة !

إنها الصهيونية إذن تتجشأ أحقادها .. وتفغر فما تقطر منه دماؤنا .. تريد أن تقضى على كل مقدساتنا !

وأين السبيل ؟

إنما السبيل .. كما رسمه أجدادنا بالمدينة .. فى عراكهم مع أجدادهم فى بنى قريظة !

إنه الإيمان .. والجهاد ..

وليس كالإيمان طاقة تعمر قلب انسان ..

وليس كالجهاد طريق إلى حرية الأوطان !



اليهود وقيمة التضحية

(وإذ قال موسى لقومه : ياقوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا وآتاكم مالم يؤت أحدا من العالمين).

ياقوم : ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين .

قالوا : ياموسى إن فيها قوما جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون ..

كان من رحمة الله ببنى اسرائيل أن هيألهم أسباب التحرر من فرعون الطاغيه .. فأرسل موسى وأخاه هارون .. إلى فرعون . لوضع حد لسلسة رهيبة من العذاب فوق ما يحمل البشر ..

(وأنجينا موسى ومن معه أجمعين ثم أغرقنا الآخرين» وسار بنو اسرائيل بقيادة موسى عليه السلام عبر سيناء .. مخلفين من ورائهم غصة وعذابا أليما .. يستقبلون مطالع الضوء .. هناك .. فى أرض الميعاد .. ذلك الفردوس المفقود ..)

ولقد كان تصورهم للماضى الرهيب .. وإحساسهم بنسائم الحرية تملأ صدورهم .. كان هذا – وحده – كافيا لشد أعصابهم .. وانطلاقهم مع النبى الجديد إلى بلدة طيبة ورب غفور .

وعلى الأقل .. اسدال الستار على فترة من حياتهم عصيبة .. كانوا فيها عبيدا تحت سطوة فرعون الجبار .. ومحاولة الانفعال بالموقف .. بتبعاته

ومسئولياته ..

ولكن شئيا من ذلك لم يكن ..

فإن طبيعتهم لم تفارقهم أبدا ..

وكلما حلت بهم ضائقة فى الطريق صاحوا ساخطين .. وعاودهم حنين جارف إلى العبودية فى ظل فرعون هذا الطاغية !

تماما كبعض العبيد فى أمريكا .. الذين ينادون بالعودة إلى حياة العصور الوسطى فى كنف أسيادهم .. فى الوقت الذى يجابون فيه إلى كل ماتمنوا . وفوق ماتمنوا .

ولا تزال رمال البحر البادرة تكسو أقدامهم .. وأشلاء الضحايا من أعدائهم .. هناك فوق ثبج الماء تملأ خيالهم ..

ولا بأس .. فإذا كانت الأقدار تدللهم اليوم فترخى لهم من حبالها .. فإن المستقبل الدامى ينظر إليهم من برجه العالى ساخرا .

وجاءت ساعة الصفر !

إنهم الآن على مشارف الأرض الموعودة التى كتب الله لهم .. وعليهم أن يدخلوها فاتحين ..

ويواجه الشعب المختار أعنف محنة فى حياته .. وتتلاحق مجموعة من الحقائق تلسع أفئدتهم فلا يستطيعون منها انفلاتا :

صحيح أن هناك أرضا موعوده .. وصحيح أنها كتبت لنا .. ولكن هل

صحيح أننا نحن المكلفون بغزوها ؟!

وأحس موسى منهم التمرد والمسكنه .. وزكى هذا الإحساس مالقيه منهم أثناء الرحلة عبر الصحراء من عنت وإرهاق ..

وبدأ يلمس أفئدتهم .. يتذكيرها بنعم الله عليهم .. لعل فى التذكير بعثا للهمم .. وإحياء لمشاعر الاعتراف بها فقال :

(ياقوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أبنياء وجعلكم ملوكا وآتاكم مالم يؤت أحدا من العالمين) :

(نجينا كم من آل فرعون .. فرقنا بكم البحر .. بعثناكم من بعد موتكم .. ظللنا عليكم الغمام .. انزلنا عليكم المن السلوى .. عفونا عنكم .. نغفر لكم خطاياكم .. آتينا موسى الكتاب والفرقان لعلكم تهتدون) ·

ومن صدق الانفعال بهذه النعم أن تكونوا حيث أمركم المنعم .. على الحدود وجها لوجه أمام الجبارين !

(ياقوم ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين) ·

إنها صفقة مضمونة الربح .. لأن الله - القادر - كتبها لكم .. فارتفعوا بأنفسكم إلى مستوى الموقف .. وتحملوا أعباء الحرية والاستقلال .. ولكن اليهود لم يكونوا عند حسن الظن بهم رفضوا قيمة التضحية وقالوا:

(ياموسى : إن فيها قوما جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها .. فإن يخرجوا فإن منها داخلوان).

وهذا شرط غريب وعسير فى نفس الوقت :

(لن ندخلها حتى يخرجوا منها ..) !

إنهم مستعدون للدخول .. شريطة أن تسبقهم حملة من السماء .. لرفع الألغام .. وإجلاء العدو .. ثم يحملهم بساط الريح بعد ذلك إلى هناك !! وكل هذا جائز فى منطق اليهود .. الذين يحنون اليوم إلى حياة العبودية .. بينما آثار السياط تكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ..

وإذا جازلهم ذلك .. فقد وجب علينا كمسلمين .. أن ننفذ إلى القاع من وراء هدى القرآن الكريم .. لنكشف عن طبيعة اليهود حيثما كانوا .. تلك الطبيعة التى كان هذا الشرط تعبيرا صادقا وأمينا عنها ..

إنهم كأشجار اللبلاب لا يستوون على ساق .. إلا إذا كانت هناك قوة خارجة . (إلا بحبل من الله وحبل من الناس)

وهو نفس الوضع الذى خلق فى أحشائنا دولة تسمى إسرائيل !

وليتهم دخلوها فاتحين !

ولكنه الانتداب الاستعمارى .. لا بأس أن يسبقهم .. فيهئ لهم الجو .. ويرفع من طريقهم الألغام .. ويجلى العرب ليصبحوا غرباء فى أوطانهم فـ (لن ندخلها حتى يخرجوا منها) !!

وبعد هذا الستار الثقيل من دخان التمويه .. تتبدى الحقيقة رويدا رويدا .. وإذا بنا أمام الأمر الواقع !

واسمعوا شهادة واحد من زعماء اليهود على أهله :

(إننا اتفقنا مع بريطانيا على تسليم فلسطين خالية من سكانها العرب).

وبعد .. ومرة أخرى :

هذه طبيعتهم تتحدر من الاسلاف إلى الاخلاف .. طبيعة الجبن والتآمر ..

فلنتفح نحن قلوبنا وعقولنا .. لنستقبل أيضا طبيعة أسلافنا من العرب والمسلمين ..

طبيعة العزم الذى يستمد بقاءه من اليقين .. والذى يتحول فى الحياة إلى عمل حاسم من أجل تحرير فلسطين ..

بالكلام ؟! .. لا .. بالسيف ! .. تكلم السيف .. فاسكت أيها القلم ..

وقالوا قد جننت فقلت كلا ∴ وربى ما جننت ولا انتشيت

ولكنى ظلمت فكدت أبكى ∴ من الظلم المبيت أو بكيت

فإن الماء ماء أبى وجدى ∴ وبئرى ذو حفرت وذو طويت



القرآن يحذر أهل الكتاب

عندما وقعت المسيحية فريسة لأهواء الحكام من الرومان .. لا بستها - بتأثير الوثنية الغازية - زوائد غريبة عليها .. خرجت بها عن التوحيد كما بشريه عيسى عليه السلام .

وتحولت العقيدة البسيطة إلى خرافة كبيره فى كثير من الناس .. ولم يعد غريبا أن يكون حاصل جمع الثلاثة واحدا ! وأن يكون المسيح بن الله وفى نفس الوقت إلها !

وقد سار اليهود - بدافع الحقد - فى اتجاه مضاد .. وقالوا على المسيح وأمه بهتانا عظيما ..

غلا الأولون فى فألهوا المسيح .. واشتط الأخرون فى البغض .. فرموه فى أعز ما يملك إنسان .. وعلى مفترق الطرق .. يقف القرآن الكريم على سواء الصراط :

يجذب أولئك من أقصى اليمين .. وهؤلاء من أقصى اليسار .. ليكون الجميع على سواء السبيل ..

(قل يا أهل الكتاب : لا تغلوا فى دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قدضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل).

لقد أخطأ الذين ادعوه إليها :

(ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل) وأخطأ الذين قذفوه فى أعز ما يملك ..

فأعراض بشريته شاخصة للناظرين .. (وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام).

ومن شأن هذه الحقائق الدامغة .. أن تلفت أنظار أهل الكتاب إلى وضعهم .. وعزلِ العواطف والأهواء أن تقودهم إلى مصير الغابرين من أجدادهم

.. فلا يعرفون الحق بالأجداد .. ولكن يعرفون الأجداد بالحق .. ومن واجب الإنسان الحر أن يسائل نفسه .. فَيُعيد النظر فى حساب الربح والخسارة فى مجال العقيدة تماما كما يفعل ذلك فى دنيا الأموال والتجارة !!

(لا تتبعوا أهواء قوم)

وبقية من الزكاء تمنع الانسان أن يقاد معصوب العين إلى مستقبل مجهول .. بل إلى مستقبل تعلمونه من واقع الحياة .. وواقع التاريخ : وهذه صورة كابية لمجتمع الأجداد .. من شأنها أن تلمس قلوبكم .. لتبذلوا طاقتكم حتى لا تتكرر المأساة ويعيد التاريخ نفسه :

انظروا :

لعن الذين كفروا من بنى اسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون .

كانوا لا يتنا هون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون).

مجتمع غاب عنه "الرأى العام" كحارس على الأخلاق .. يتحول إلى

غابة تحكمها أحقاد وأطماع !

وقد كان مجردتصور هذا المجتمع كافيا للفرار منه .. بالفرار من كل طريق يؤدى إليه ..

ولكن .. ما الحيلة وأنت لا تخاطب عقولا تفهم .. وإنما تواجه أحقادا لا تؤمن إلا بالمنفعة مذهبا فى الحياة ؟!

وإلا ...فلحساب من هذا التحالف بين أهل الكتاب وعبادا لوثن .. أعداء الرسل .. (إذ ترى كيثرا منهم يتولون الذين كفروا)؟ وضد من ؟ ضد محمد ﷺ .. محطم الآصنام .. وصاحبِ كتاب أنزل من بعد موسى وعيسى .. يصدقهما ؟

(لبئس ما قدمت لهم أنفسهم)

وهنا بيت القصيد !

إنها النفس والأهواء تجمعهم .. أى أنهم يتلقون الأوامر من جهة غير شرعية : هى النفس !

وأما العقل .. فلا عقل ..

وكانت النتيجة المنطقية (أن سخط الله عليهم وفى العذاب هم خالدون).

وإلا فلو كان هناك منطق سليم .. ولو كانوا يؤمنون بالله والنبى وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء ولكن كثيرا منهم فاسقون)

وهذا الفسوق عن أمر الله كان هو القاسم المشترك بين التكتلات الباغيه أمس واليوم ..وغدا

لقد ضل بعض أهل الكتاب فكفروا .. ثم أوغلوا فى الضلال . فحملوا غيرهم على الكفر ! واليوم .. ضلت النصرانية .. فتحولت إلى استعمار ..

وضلت اليهودية .. فكانت الصهيونية !

وها هم أولا يحاولون إضلالنا .. بإقصائنا عن القاعدة .. عن العروبة والاسلام قائلين :

فينيقية .. وأشورية .. وفرعونية !!

«كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا »

ونحن لا نريد أن نوسع الشقة بيننا وبين المنصفين منهم ..

لا نريد أن نضيف مزيدا من البترول إلى النار المشتعله .. أو نمدَّ الاعصاب الثائرة بشحنة أخرى من الانفعالات .. وإنما نريد أن يعود أهل الكتاب إلى القاعدة .. لنعيش معا .. جيرانا مسالمين .. لهم مالنا وعليهم ما علينا ..

وإن هذا الأمل الحلو ليزداد فى وعينا اتساعا .. كلما قرأنا واحدا من الآراء التى قدمتها العقول الواعية ..

ونمت أمامنا فرص التفاهم .. من أجل انقاذ العالم المحروب من أخطار حرب كاسحة ..

ولنستمع الآن إلى التوافق البارز بين بعض حقائق القرآن وما تشير إليه الكتب التى ما تزال فى أيدى النصارى كما سجلها بعض العلماء :

جاء فى سفر التثنية «اصحاح ٥ - عدد ٣٦» :

«لتعلم أن الرب هو الإ له ليس آخرُ سواه »

وذلك كقول الله تعالى «فاعلم أنه لا إله إلا الله»

وجاء فى هذا السفر أيضا :

«فى قلبك أن الرب هو الا له فى السماء من فوق . وفى الأرض من أسفل »

وهذا كقول الله عز وجل :

«وهو الذى فى السماء إله وفى الأرض إله وهو الحكيم العليم .وتبارك الذى له ملك السموات والأرض وما بينهما »

وجاء فيه أيضا :

وإسرائيل هو يعقوب الذى جمع أولاده وهو يُحتضر ليستوثق من بقائهم على التوحيد :

«أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه : ما تعبدون من بعدى قالوا : نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم واسماعيل وإسحق إلها واحدا »

وجاء فى سفر أشعياء . اصحاح ٤٥ - ٥٠ :

«أنا الأول وأنا الأخر ولا إله غيرى»

وهو كقول الله عز وجل :

« سبَّح لله ما في سموات والأرض وهو العزيز الحكيم . له ملك السموات والأرض يحيى ويميت وهو على كل شئ قدير . هو الأول والآخر والظاهر والباطن » .

وجاء فيه أيضا :

«لأنى أنا اله وليس لى شبيه »

وذلك كقول الله فى كتابه :

«ليس كمثله شئ»

وبعد :

فإلينا أيها الحائرون .. إلى التوحيد كما نطق به كتابكم . وهتفت به رسلكم :إلى كلمة سواء بيننا وبينكم :

(ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا : اشهدوا بأنا مسلمون).

إنسانية الحيوان !!

قرأت فى إحدى الصحف المغربية نبأ كلب رأى لصايهجم على صاحبه .. فدافع الكلب عن سيده فى إصرار .. وأطلق اللص عليه رصاصة أردته قتيلا .

ودفع الكلب الوفى حياته ثمنا لوفائه !

ومن مفارقات القدر أن أقرأ على نفس الصحيفة نبأ الأم التى قتلت طفلها الصغير .. ليخلو لها الجو مع عشيقها ..

وتعجبت حتى كدت لا أتعجب !

الكلب .. الحيوان الأعجمى يصبح عاقلا ليموت فى سبيل صاحبه والانسان العاقل يغدو قاتلا ! ..

وتحت وطأة العزيزة وسعار الجسد .. تقتل الأم وليدها .. باسم الحب فى القرن العشرين ؟

وهكذا .. وأمام دفعة الهوى تنهار كل الحواجز .. فلا الدين .. ولا الدم .. ولا الأنسانية بقادرة على أن تكف نباح الغريزة التى انطلقت كقذيفة طائشة تدمر كل شئ..

ومن ناحية أخرى ينطلق الكلب ليرفع راية الوفاء .. بعد أن نكست فى يد الانسان .

ثم يمضى على الطريق يرتادلهم مجالات الفضائل ليرى البشر الحائر

إلى أية هوة تسعى به قدمه .

ولا عجب أن يأخذ الإنسان مكانه اليوم ليتعلم فن الحياة على يد الحيوان ..

فكم للأقدار العليا من سخريات لاذعات :

فهذا هو الهدهد الصغير .. يلفت نظر قوم سبأ إلى معنى التوحيد .. ويستنكر أمام سيده سليمان الحكيم ملك هؤلاء الأغرار الذين يعفرون جباههم العالية بالتراب أمام مخلوق هو الشمس .. ويتركون عبادة الخالق القادر *الذى يخرج الخبء فى السموات والأرض* :

« إنى وجدت امرأة تملكهم وأتيت من كل شئ ولها عرش عظيم . وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن *السبيل فهم لا يهتدون* .

ألا يسجدوا الله الذى يخرج الخبء فى السموات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون .

الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم

ولعمرى إن اختيار الكلب بالذات ليكون عنوان الوفاء .. ليهز الإنسان الغافل ليعلم إلى أى درك .. نزل .. يوم أن سمحت امرأة من الناس لكلب أن يسبقها .. ويتركها على الطريق تتعثر فى شهوات تخلد بها إلى الأرض ..

بل إنه كما سبق الإنسان إلى أمام .. فقد سبقه إلى أعلى !؟

إلى رحاب الفضاء يرتاد المجاهيل يوم أن أطلقت «روسيا»

كلبها «لايكا» قبل جاجارين وتيتوف!

ألا وإن وفاء الكلب ليضرب جذوره فى أغوار الماضى..

وقد سبق له أن دخل التاريخ من أوسع أبوابه .. يوم أن ذكر اسمه فى أكرم لوحة عرفتها الحياة :

فالكلب «قطمير» رأى أهل الكهف الذين فروا بعقيدتهم من التسلط الوثنى..

رآهم «قطمير» فصاح بهم وهم سائرون ..

فأخذوه معهم .. ونالته بركتهم حيث ذكرمعهم فى الكتاب الكريم .

«قال أبو الفضل الجوهرى»

(من أحب أهل الخير نال من بركتهم .. فهذا كلب أحب أهل فضل وصحبهم فذكره الله فى محكم تنزيله.

وإذا كان بعض الكلاب قد نال هذه الدرجة العليا بصحبته ومخالطة الصلحاء والأولياء .. حتى أخبر الله تعالى بذلك فى كتابه .. فما ظنك بالمؤمنين الموحدين المخالطين .. المحبين للأولياء والصالحين ؟!بل فى هذا تسلية وأنس للمؤمنين المقصرين عن درجات الكمال».

وهكذا كان الحيوان رمز الأمل يملأ قلوبنا .. نحن الذين نخوض مع الشيطان معارك حامية .. ننتصر فى بعضها ونهزم فى الأخرى .. وقد قرأت لأحد العلماء أن فى الكلب صفات كريمة .. لو تحققت فى الإنسان لا رتقى

إلى أوج الكمال :

١- كثرة الجوع كالصالحين.

٢- ينام قليلا كالمحبين.

٣- ليس له مكان معروف كالمتوكلين.

٤- ليس له ما يملكه كالزاهدين .

٥- يرضى بأى موضع من الأرض كالمتواضعين .

٦- إذا ضربته ثم ألقيت إليه لقمة أخذها فى غير حقد كالراضين .فلم يكن غريبا – وقد تجمعت فيه كل هذه الفضائل – أن يكون رمزا للوفاء فى هذه الحياة .

وقدروى أن الحارث بن صعصعة خانه خليل فى أهله .. فوثب عليه كلبه فقتله..

فلما عاد الحارث إلى بيته وعرف حقيقة الأمر أنشد :

ومازال يرعى ذمتى ويحوطنى ∴ ويحفظ عرضى والخليل يخون

فيا عجبا للخل يهتك حرمتى ∴ وياعجبا للكلب كيف يصون !!

وبعد :

فهذا هو دور الحيوان يؤديه لخدمة الحياة ..

فليعلم الإنسان العاقل أى دور أخطر يجب أن يؤديه فى سبيل هذه الحياة ..

لا يأس مع الإيمان

في عمر كل إنسان لحظات شداد .. تضيق من حوله الدنيا .. ويعبس في ناظريه الوجود .

ويتلفت المرء حواليه ليجد نفسه وحيدا على الشاطئ المجهول : لاصديق يأسو جراحات الأيام .. ولا قريب يحمل معه أصار هموم ثقال..

ثم ينطوي على نفسه .. بحيث لا يملك الا عينا تدمع . ونفسا تجزع وقلبا يأسى على شباب ضاع ونجم هوى . .

تنكرت من دهري بظل جناحـــه ∴ فعيني ترى دهري وليس يراني

فلو تسأل الأيام ما اسمي ؟ لمادرت ∴ وأين مكاني ما عرفن مكاني

وفجأة .. وعلى غير ميعاد يبرق في الأفق البعيد شعاع الأمل .. فينبجس في قلبه ينبوع اليقين ..

ثم تبدأ ظلال الأسى تتوارى أمام النور الوافد :

وكم لله من لطف خفـــي ∴ يدق خفاه عن فهم الذكي

وكم أمر تساء به صباحا ∴ فتأتيك المسرة بالعشـــي

والأنبياء والمرسلون كحداة إلى الحق والخير والجمال .. طالما عاشوا مثل هذه اللحظات مع أقوامهم ..

وطالموا اشتبكوا معهم في صراع عنيف .. وتشتد الأزمة .. وتضيق حلقاتها حتى « يقول الرسول والذين آمنوا معه : نصر الله »؟ وإذا بالسماء

تتفتح بضياء منهمر .. يغمر قلوبهم بأشعة دافئة حانيه ..

فتأنس بعنايه الله ومعيته أيما ائتناس :

« حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنجى من نشاء ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين».

وهذه «المعية الألهية» صاحبتهم كلما ضاقت صدورهم بالحياة :

[وجدها آدم .. يوم أن هبط على الأرض مع زوجه غريبين .. ووجدها نوح عليه السلام «على ذات ألواح ودسر شقت به لجج الأمواج الغاضبه .

ووجدها إبراهيم يوم أن قذف به قومه فى لهيب النيران .. فلم تحرق منه إلا القيد !

ووجدها يوسف .. ساعة أن تسلط عليه حقد الأخ .. وإغمواء المرأة .. وإغراء المال.

ووجدها يونس . عندما غاب فى بطن الحوت .. فى أعماق المحيط ..

ووجدها أيوب «إذ نادى ربه : أنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين »

ووجدها موسى . وقت أن وضع طفلا رضيعا فى صندوق صغير تتقاذفه الأمواج.

ووجدها داود .. ذلك الفتى الصغير الذى قتل العملاق الفاره «جالوت» بالمقلاع والحجر !

ووجدها عيسى .. إذ نجا من الغدر الاسرائيلى المبيت .. ورفعه الله

تعالى إليه ..

ووجدها محمد عليهم جميعا الصلاة والسلام .. عندما ماتت خديجه .. ومات أبو طالب .. وأحس بالأسى يزحف نحو قلبه الكبير] " فى ظلال القرآن"

وكيف وجدها خاتم الأنبياء عليه السلام ؟

إن القدر الأعلى بسط له جناح رحمته . ليكون عنده فى ضيافة كريمة .. ينسى معها هموم الحياة وآلامها ..

فأسرى به تعالى من مكة إلى بيت المقدس .. ليرى من آياته ربه ما يحس معه بضآلة قرين تلك التى تناصبه العداء .. وتتربص به الدوائر ..

ثم عرج به إلى أعلى .. عند سدرة المنتهى . عندها جنة المأوى :

كذلك أرواح المحبين : دائما ∴ تحركها الأشواق للعالم الأسى

وسبح الرسول الكريم فى الأنوار الالهية .. وتريض فى ملكوته ما شاءت له إرادته ..

واستنشقت رئتاه هواء جديدا .. وتلقت روحه معانى فى الإيمان جديدة أيضا .

وعاد من رحلته على الطائر الميمون .. واثق القلب . متجدد الشباب .. قوى الإيمان بعدالة قضيته .. وبأن معه فى كفاحه ربا قاهرا قادرا رأى من آياته ما رأى ..

وماذا تكون قوة قريش إزاءها؟

بل ماذا تكون الأرض بما رحبت ؟

وأين قدرة المخلوق من قدرة الخالق ؟!

فليمض إذن فى طريقه أرسخ يقينا .. وأمضى عزما.

ومن هنا بدأ الاسلام مرحلة جدية وحاسمة .. تساوق هذه الرحلة . أى انها كانت نتيجة لها وثمرة من ثمارها .

فليكشف النقاب عن وجه الباطل .. ولتملأ أسماع المبطلين بالنذير المدمدم يملأهم رعبا .

فلقد انقضت مرحلة اللين والرفق .. ولم يعد للهدنه بعد اليوم اعتبار! وهذا ما تكفلت ببيانه آيات من سورة النجم .. بعد آيات المعراج فى هذه السورة:

"أفرايتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى؟"

ألكم الذكر وله الانثى .. تلك إذا قسمة ضيزى . إن هى إلا أسماء سمتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان . إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى أم للإنسان ما تمنى»

«فأعرض عن من تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدينا»

ودعهم لى .. فيومهم آت لاريب فيه ..

ألم يعلموا أن الله قادر على أخذهم «وأنه أهلك عادا الأولى وثمود فما

أبقى . وقوم نوح من قبل »؟

«هذا نذير من النذر الأولى . أزفت الآزفة . ليس لها من دون الله كاشفة» .

وهكذا أخذ منها ج الدعوة سمتا آخر .. كان انعكاسا لثقة الرسول بنفسه وبمولاه بعد رحلة الاسراء والمعراج.

ولأمرما : شرعت الصلاة ليلة المعراج :

إنها أنموذج حى للمعركة المقبلة بين الحق والباطل .. فهى بصفوفها المستوية . ووجهتها الواحدة .. ومظهرها الجماعى المترابط .. وافتتاحها بالتكبير ..

كل هذا يجعل من الصلاة نقطة انطلاق نحو الميدان الفسيح .. حيث يلتقى الكفر بالايمان فى معركة حياة أو موت . وكأنما جاءت الصلاة معسكرا تدريبيا على الطاعة . والنظام .. والوحدة ..

وكلها أسلحة النصر فى كل معركة ..

وفعلا .. بدأ الزحف الإسلامى يشق طريقه .. بعد أن عرف طريقه .

وأصبحت للمسلمين دولة يحميها جيشن ..

من أجل ذلك .. يسوغ لى أن أهمس فى آذان إخوة لى من المسلمين بهذه الكلمات : ليجعلوا من ذكرى الاسراء والمعراج منطلقا لآفاق جديدة.

ولا أحب لقومى أن يضيعوا الوقت سدى فى :

هل كان يقظة أم كان مناما ؟

فعلى أى حال .. كان هناك إسراء . وكان هناك معراج !

وإنما الذى يجب .. أن نستشف العبرة .. وأن يكون لنا فى رسولنا أسوة حسنه :

لقد تسلح بكل خلق جليل ونبيل .. فعرج به إلى السماوات فى ضيافة الرحمن ..

وإذا كانت غايتك أيها المسلم المحب العابد هى : الله تعالى .. فلتسع لهذه الغاية الكريمة سعيها :

أنت مكلف بعملية إسراء لتصل إلى الله :

إسراء من الكذب .. إلى الصدق.

إسراء من البخل .. إلى البذل .

إسارء من البغض .. إلى الحب .

إسراء من الخيانة إلى الوفاء..

إسراء من الجبن إلى الشجاعة ..

إسراء من أخلاق "أهل مكة" حينئذ .. بعدوانها ورذائلها .. إلى أخلاق "بيت المقدس" مهبط الديانات والرسالات العليا ..

اسراء بكل طاقاتك .. لنلتقى معا .. فى بيت المقدس .. فوق أشلاء اسرائيل !!

فإذا لم يكن منك اسراء ..

فلا معراج لك

الإيمان بين النظر والتطبيق

جميل أن تقدم إلى الناس فكرة تسهم فى ترقية الحياة ..

وأجمل منه : أن تنفعل بها .. فتعمل لها . لتصبح فى دنيا الناس مبدأ واقعيا يخوض مع الحياة معركتها من أجل البناء.

إن جمال الفكرة وحده لا يغنى عن الحق شيئا ما لم تأت الفكرة مشفوعة بوسائل تنفيذها . وإخراجها من الذهن لتعيش بيننا كائنا حيا يذرع الأرض جيئة وذهابا .

وكثير من الأذكياء تفتق فيهم الذهن عن مبادئ حرة .. ومثل عليا خطفت الأبصار خطفا . وكان من الممكن أن تكسب الحياة من ورائها خيرا كثيرا.

بيد أنهم لم يسعفوها بإيمان بها مقرون بالعمل لها .. لم يسكبوا فى عروقها بدماء الحياة لتبقى.

ومن هنا سكنت معهم قبورهم .. بل قد سبقتهم إلى تلك القبور لتصبح من بعدهم حديثا فى فم العجائز !

بينما نرى فى الوقت ذاته كثرة غفيرة من القضايا تفرض نفسها على المجتمعات .. ويأخذ أربابها مكانهم فى صفوف الخالدين .. ولست أدرى ..

أية خسارة كبرى كانت تصاب بها الحياة لو أن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار رضوا من الغنيمة بالإياب .. واكتفوا من الإيمان بسجة طولها عشر وعرضها عشر !!؟

وحسبوا الاسلام كلمات يطلقها اللسان .. والعين مسبلة .. والجبين مقطب ؟!

أعتقد أن الأمر لو سار فى هذا المخطط لما رفعت للاسلام اليوم راية .. ولا سمعت له كلمة !

ولما رسخت على صدر الحياة صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا.

ولما مشت فوق بسيط الأرض جيو ش الإيمان كأسلحة القدر تغير من تصورات الحياة وأهواء الناس.

لقد كانوا بالليل رهبانا .. وبالنهار فرسانا :

فبذلوا من ذواتهم كل مرتخص وغال .. حتى جاء نصر الله والفتح .. وكانوا أحق به وأهله .

وأنها لحكمة غالية تلك التى قرأتها لبعض المربين :

«لو تصورنا أنفسنا فوق منجم للذهب . ولكن لا يحس بوجوده أحد . لكان التراب المبعثر فوقه أغلى ثمنامنه .

ذلك . لأن هذا التراب يحمله العمال . ثم يصوغونه لبنات تتسق لتصير قصورا يأوى إليها الناس .

وليست للذهب قيمة ذاتيه . بل إن قيمته تظهر عندما يخرج إلى السوق .. فتتداوله الأيدى وتتنقل به المنافع .

وهذه الزهرة التى تنشر أريجها فى الجو :

من الذى يعرف سرها المطوى؟

إنه عامل . وتاجر . وراغب :

عامل يغرسها ويتعهدها بالسقى والتنسيق ..

وتاجر يتلقفها .. ليجعل منها بضاعة غالية الثمن .. تجذب الأنظار.

وراغب فيها تدفعه نفسه إلى اقتنائها .

ولو لا هذه الحلقة لما عرف الناس قيمتها ولوملأ الشعراء سمع الدينا غناء بأسرارها .

كذلك يجب أن يتصل الجهد . ويسيل العرق .. وتراق الدماء فى سبيل تبليغ رسالات الله .

وذلك لا يتم إلا إذا صححنا فهمنا للدين وصلته الإيجابية بالحياة والأحياء . ليستأنف جهاده المبرور . ويؤدى دوره المرموق لخدمة هذه الحياة .

إن مفهوم الاسلام فى كثير من الأذهان يجب أن يأخذ شكلا ايجابيا يتسق والحياة الصاخبة من حولنا .

فإذا كنت فى المسجد .. فلا بأس أن تكون "السبحة" فى يدك ولكن بعد هذا يجب أن تنطلق معا لتسهم فى ترقية المجتمع الذى تعيش فيه .

وهذا بعض ما تشير إليه الآية الكريمة :

«يا أيها الذين آمنوا : إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى

ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون»

فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون»

أى أننا بعد الصلاة سنخرج إلى الواقع ليواجهه كل منا بسبحة من نوع جديد :

الخياط : سبحته إبرته ..

والحداد سبحته آلته ..

والفلاح سبحته فأسه ..

والسائق سبحته عجلته ..

والبحار سبحته مجدافه ..

والجندى سبحته سلاحه .. وقبلته أعداء الدين والوطن .. هناك عند الحدود حفاظا على هذا الدين وهذا الوطن ! وهكذا .. كل منا خلية حية نامية فى الجسم الكبير . وبهذه الروح الإيجابية انتصر أجدادنا الأولون .. ولن يصلح أمر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها :

كتاب الله وسنته رسوله .

ولن يكون للقرآن مفعوله وللسنة أثرها إلا إذ كان لهما من يقظة المسلمين نصيب أى نصيب .

ولقد كان لكم فى رسولكم أسوة حسنة إذ قادبنفسة المسلمين من

نصر إلى نصر . ولم يقف بنشاطة عند حد إلقاء الموعظة بين جدران مسجد فتخرج فى مدرسته .

جماعة عزمهم سيار .·. إلى الوغى تهافتوا وطاروا .

ومن أجل ذلك تميز الخبيث من الطيب .. تماما كما يتميز الماس من الفحم :

إنهما من أصل واحد . إلا أن الماس يتحمل الضغط العالى وكلما صبيت عليه نارا ردها إلى الحياة نورا .

بينما يظل الفحم فحما كما هو . ظلمات بعضها فوق بعض ! إن مشاركة الملائكة لهم فى كفاحهم لم تزدهم الانضالا .. لأنها تضاعف من ثقتهم بالله وبأنفسهم .. كأناس يدافعون عن قضية تحارب ملائكة السماء من أجلها !

ولقد علموا الحياة دروسا فى الوفاء للعقيدة . والاخلاص للمبدأ يوم أن قاتل المؤمن أباه وأخاه انتصارا لعقيدة التوحيد :

تعرض أبو عبيدة لأبنه فى غزوة بدر ثم قتله .

وتعرض أبو بكر لابيه عبد الله فى تلك الغزوة أيضا ..

وقتل مصعب بن عمير أخاة عبيد بن عمير ..

وقتل عمر خاله العاص بن هشام ..

ألا إنه إذا مات أبى وأخى فإن العقيدة أبى وأخى ..

والعقيدة الصحيحه تكون أبدا بمعزل عن العواطف وروابط النسب .. فماذا تكون علاقات القربى أمام رابطة تصل الإنسان بالله تعالى رب هؤلاء جمعيا .

ماذا تكون علاقة الإنسان بالحياة المحدودة الفانية .. أمام صلة تربط الإنسان بحياة لانهاية لها؟

وبعد

فلقد عجبت لمسلم سافر إلى أوروبا للاستشفاء وأخذ معه المصحف الشريف .

وسأله أحد أصدقائه : لماذا حرصت على استصحابه قال:

لأضعة تحت الوسادة تبركا ! وكان هذا مبلغ وفائه للمصحف الشريف!

إن المصحف يا أخى يجب أن يكون "فوق" الوسادة لاتحتها .. بل يجب أن يكون معك فى كل خطوة وخطرة .. فى « المستشفى رافدا من روافد الصبر .. وخارج المستشفى رائدا يقود الناس إلى أمجاد الحياة .. يجب أن يكون المصحف فى السلوك عملا ..

بعد أن كان فى القلب أملا.

شـــرق وغـــرب

هل تعرف المسافة بين الشرق والغرب ؟

يجيب توفيق الحكيم قائلاً :

«الفرق بين الشرق وبين غيره من الأمم المتقدمة .. هو أن هذه الأمم تعرف عمليات الجمع . فهى تجمع العمل على العمل فالحاصل بالطبع عمل.

بينما الشرق لا يعرف غير عمليات الطرح :

فهو يطرح العمل من العمل .. والحاصل بالطبع صفر!!

ولقد أصاب الكاتب بقوله الحقيقة . وكشف عن فارق كبير بين الشرق والغرب فى منهاج الحياة :

إن الغربيين يعلمون جيدا أن الفشل بعض الطرق إلى النجاح . ولا يزال الرجل منهم يعمل .. فيكبو .. ثم يقوم ليواصل المسير وليلتقى فى النهاية بالنجاح .. وتصبح أحلامه حقيقة ملموسة .

ولذلك لم يكن للناس عجبا أن كانت قصص النجاح فى الغرب أكثر من قصص الفشل فى الشرق!

ولسنا من الذين يتخيلون الشرق هذا "رجلا مريضا" ثم نأخذ مكاننا حول جسده فنذرف الدمع مع الذارفين .

ولكننا نقولها كلمة .. لعلنا نعيد البصرة كرة أخرى لنعرف مكاننا بين المواكب الزاحفه .

حتى نستخلص العبرة .. ثم نستأنف المسير عودا على بدء .. يوم كان الشرق أستاذا يعلم الناس فن الحياة .. فى الوقت التى كانت أوروبا فيه تدور حول نفسها ولا تعرف كيف تسير .

افتحوا أعينكم جيدا لتروا مظاهر أعياد الميلاد:

لقد رأينا - عمليا - الأب الغربى هنا يعطى ولده - شلنا - ليشترى به "مسدسا صغيرا" أو كرة من البارود يزعج انفجارها المسلمين النائمين من حوله ؟!

أما أطفالنا - لهم الله - فنصحيتنا الأولي إليهم : أن يشتروا بالدرهم قطعة من الحلوى .. أو لعبة من الجلد .. ليأكل ثم ينام وبعد ذلك يستقبل حياته غدا طرى العود خائر الإرادة !

إن "روزفلت" رئيس امريكا الأسبق ولد مشلولا.

ومع هذا لمع نجمه فى سماء السياسة..

وكم كان يجوب البلاد أيام الحرب .. يخطب فى مئات الألوف من الناس ليعبئ مشاعرهم .. ويسوقهم بروحه الثائرة إلى معامع القتال.

والسؤال الآن :

ماذا كان يحدث لو كان هذا الرجل فى بلد من بلاد شرقنا الاسلامى؟

إن مكانه معروف :

فإما أن تراه - فى مسجد .. يسبح فى تأملاته .. ثم يمصمص شفتيه

بينما ترك لنا بقية من مخلفات جيشة .. ثم نزهو بها ولا نستحى ! إن هناك حديثا شريفاً يقول :

(تقوم الساعة والروم أكثر الناس)

ويعقب عمرو بن العاص على هذا الحديث فيقول لراوية : إن قلت ذلك إن فيهم لخصالاً أربعة :

إنهم لأحلم الناس عند فتنة .. وأسرعهم فاقة عند مصيبة .. وأوشكهم كرة بعد فرة .. وأجبرهم لمسكين ويتيم وضعيف .. وخامسة حسنة وجميلة : وأمنعهم من ظلم الملوك .

« وقد رأينا دول أوروبا تدخل فى حربين طاحنتين .. وتستعد لخوض أخرى .. وقد فقدت فى هذه الحروب ألوفا مؤلفة من الرجال والأموال .

ومع هذه المغارم لم يفقدوا قدرتهم على الجلاد الطويل .. لأنهم كما يقول عمرو بن العاص .. أسرع الناس إفاقة عند مصيبة .. وأوشكهم كرة بعد فرة .

ومن هنا سبقنا الغرب فى ميادين شتى .. بينما تأخر المسلمون .. وهم على دين أول مايدعو إليه العمل والانتاج :

تقدمتنى أناس كان خطوهمو وراء خطوى لو أمشى على مهل

لقد سرق الغرب كل فضائلنا .. ثم استغلها تحت اسم جديد هو الحضارة الحديثة .. وقد وجب علينا أن ننهض لتعود بضاعتنا إلينا ..

وصحيح - إن فى الشرق الإسلامى نهضات مشكورة فى مختلف ميادين الحياة ..

وصحيح أنهم أوشكوا أن يكتفوا بذاتهم عن غيرهم .. ولكن ماذا يفعل ركاب السفينة إذا نظموا أنفسهم عليها .. ولكن البحار تركهم ومضى ؟!

النتيجة طبعاً معروفة .. وهى الغرق لامحالة لقد كتبت مجلة أجنبية تصف الاسلام بأنه طبل كبير لايكاد يدقه أحد .. فلنتقدم لندق الطبل .. لننفخ فى الصور .. حتى يجتمع المسلمون فى المشارق والمغارب على كلمة سواء .. لاسترداد مجد طال على غيبته الزمان .

من هدى القرآن

فى خيالى مشهد من مشاهد الطبيعة :

جماعة من مهندسى فن البناء كلفوا بإقامة مجموعة من المساكن الشعبية .. وأعلنت الحكومة عن جوائز مغرية لكل مهندس يحكم بناءه على طراز يفى بالغرض المقصود .

وتمت عملية البناء .. وفاز بالجائزة فنان منهم .

وعلى رغم أن قصره يتيه على أقرانه شموخاً وجمالاً .. إلا أن بقية المهندسين أداروا ظهورهم له .. وعادوا إلى بيوتهم آسفين حاقدين !

ووقف المهندس الفائز يقرع أسماعهم بحجته قائلاً :

ياأخوتى :

الأحجار التى شيدنا بها أبنيتنا واحده .. والطلاء واحد .. والمساحة المتاحة واحدة .. وقد اتحد زمان البناء أيضاً .. فكيف جاء بنائى شاقى شامخاً يشق الفضاء .. بهيجاً يسر الناظرين ؟! إنه لاشك أمر وراء الطلاء .. والحجارة .. والمساحة .. إنه الفن !!

الفن الذى انفردت به دونكم ! ونغمض عين الخيال هذه .. لنفتح عين الحقيقة على مشهداً آخر رسمه القدر الأعلى – ولله المثل الأعلى – ألف .. لام .. ر « كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير »

فالله سبحانه وتعالى بهذه الحروف : ألف .. لام .. ر .. يهز ضمائر المشركين المعارضين هزاً . حتى يستيقظ فيهم العقل .. إنه يستثير أعمق

مافى نفوسهم من مشاعر ليروا هذه الحقيقة التى تتألق كفلق الصبح :

إن هذا القرآن مؤلف من : الألف .. واللام .. والراء .. أى هو مؤلف من كَلمات عربية .. وحروف عربية .. وحركات عربية .. من جنس ماتنظمون منه كلامكم :

أى أنه بناء مكون من نفس المادة التى تصوغون منها كلامكم .. فلماذا عجزتم عن الاتيان بمثله ؟!

لماذا تقاصرت هممكم وعادت إلى قواعدها حيرى .. فلم تستطع الإتيان حتى بمثل أقصر سورة منه ؟!

إنها القدرة العليا إذن .. إنه من الله خالق القوى والقدر .. وأين قدرة المخلوق من قدرة الخالق ؟!

فلماذا لاترفعون الراية البيضاء مستسلمين ؟

فماذا بعد الحق إلا الضلال .. إن كلامكم فيه خلل .. أما هذا فكتاب أحكمت آياته .. وكلامكم فيه خفاء وغموض .. أما هو : فقد فصلت آياته .. وكلامكم مع هذا .. نتاج عقل تستره جرعة .. ولسان تؤله بقه .. وكائن تقتله شرقه !

أما هو .. فمن لدن حكيم يضع الأمور فى مواضعها .. خبير بالنفوس وطبائعها .. وعنده مفاتح الغيب لايعلمها إلا هو .. وعلم ماقى البر والبحر .

كل هذه الحقائق يجب أن تستشعروها .. لتقودكم فى النهاية إلى :

١- الإيمان بالحقائق الآتية :

أ- الوحدانية : « ألا تعبدوا إلا الله »

ومن أتاكم ليبلغكم هذا القرآن فهو رسوله « إننى لكم منه نذير وبشير»

ب- ضرورة التقدم .. وانتزاع الاقدام من أوحال الخطايا .. « وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعاً حسنا إلى أجل مسمى ويؤت كل ذى فضل فضله ».

ولكنهم .. بعد هذا المنطق البسيط البليغ معاً .. إن تولوا يامحمد .. فدعهم يأكلون كما تأكل الانعام والنار مثوى لهم .. وربك قادر على تعذيبهم.

وياويح المخلوق الضعيف إذا وقف بحوله الضئيل أمام المشيئة العليا..

ياويحه إذا حسب أن مغارة فى الأرض أو مدخلا .. تقدر أن تحجبه عن علمه المحيط الواسع ..

أبدا .. فمن ملكه .. إلى ملكه !

«يعلم ما يسرون وما يعلنون إنه عليم بذات الصدور »

وفى الليل إذا سجى .. يعلم مكنون ضمائركم .. وهو اجس نفوسكم من تحت ثياتٌ تتدثرون بها فرارا من دعوته تعالى ..

فيجب إذن أن تفروا إليه .. لا منه !

ومن غيره تعالى أولى أن يسلم الانسان وجهة إليه حنيفا؟

إنه وحده العالم :

«وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل فى كتاب مبين »

وهو وحده القادر :

«وهو الذى خلق السموات والأرض فى سته أيام وكان عرشه على الماء».

بيد أن هناك عقولا فارغة سقيمة ..

إنها عقول أولئك الذين إذا قلت لهم – بعدما تقدم – «إنكم مبعثون من بعد الموت ليقولن الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين» وهو منطق الفارغين الكسالى : وكأين من آية يمرون عليها....

سماء ذات أبراج .. وأرض ذات فجاج .. أفلا تدل على خالق إليه المرجع والمصير ؟

إن كلمة العذاب حقت على هذا الطراز من الجاحدين .. ولكنا نؤخرها إلى أجل مسمى .. إلى يوم تشخص فيه الأبصار – لأن الرحمة في هذه الدنيا فوق العدل.

ومع هذا يحسبون أن تأخير العذاب عنهم غفلة وعجز..

وغدا سيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون .. «ألا يوم يأتيهم ليس مصروفا عنهم وحاق بهم ماكانوا به يستهزئون» فهون عليك يامحمد ولاتذهب نفسك عليهم حسرات.. واعلم أن هذه طبيعة الإنسان منذ كان :

«ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليئوس كفور. ولئن أذقناه نعماء – بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عنى إنه لفرح فخور «إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة وأجر كبير».

وبعد :

فيامحمد ياصاحب القلب الكبير .. «لعلك تارك بعض مايوحى إليك وضائق به صدرك» لتعنتهم معك واستهزائهم بك..

فدعك منهم وربك كفيل بهم.. وخذ مكانك فى الصف الطويل مع إخوتك أولى العزم من الرسل.. ومن وراءك العصبة المؤمنة .. لقد صبروا على ماكذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ..

فسر على الدرب .. ومن سار على الدرب وصل.

خواطر في عيد الفطر

عودة الروح

من حق المسلم اليوم أن يفتح قلبه للحياة نشوان راضيا .. بعد أن سلخ من عمره ثلاثين يوما قانتا لله حنيفا.

من حقه أن يحرك لسانه بالذكر، وقلبه بالشكر، بعد أن استجمع قوته .. فاقتحم العقبة وأشرف على الغاية.

بعد أن جرد نفسه الأمارة من أسلحتها، وخضد شوكتها فأصبح فى مملكته سيدا يستطيع أن يباشر سلطاته حرا فى سلوكه، طليقا من إغراء الشهوة وتحكم الهوى.

أجل .. من حق الصائمين الذين جمعهم الحرمان أياما أن تجمعهم المتعة البريئة يوما .. يكون لهم عيدا.

عيدا .. تعود فيه الروح إلى الفرد فيستقيم خطوه على الطريق ..

وتعود فيه الروح إلى الجماعة : فتدرك مسئولياتها تجاه الأفراد .. ليعيش المجتمع بعد ذلك متكافلا عاملا. وينطلق إلى الرخاء بحصيلته من التقوى والإرادة المصممة.

من حق الصائمين القائمين أن يكون لهم يوم يلتقون فى رحباته ناعمين.. يلتقى فى ظلاله التائبون العابدون.. تجمعهم مشاعر الجنود الذين حملوا الراية معا، وجاهدوا فى الله حق جهاده..

وبعد أن هدأ تراب المعركة.. ووضعت الحرب أوزارها.. جلسوا

متحلقين في استرخاءة وادعة :

يتدارسون أسباب النصر .. ويتذاكرون أخوة الكفاح .. ويتذوقون معا حلاوة النجاح !

وأى نجاح أروع من انتصار الأنسان : بإرادته فى معركته مع نفسه .. حيث نزع سلاحها .. وقلم أظفارها..

واستطاع بصيامه أن يعبد الطريق إلى أعماق هذه النفس.. ليفجر فيها ينابيع الشوق إلى الفضيلة.. إلى عزة الخير. وعدالة الحق ورواء الجمال.

وهذا كسب هائل للانسان.. وفوز يقود إلى فوز.. بحيث يصبح الصائم الذى انتصر فى معركته الداخلية مع نفسه قادرا على النصر فى عراكه مع أعدائه من بنى الانسان.. وذلك بعد أن سكت فى أعماقه صوت الغريزة.. وأصبحت كلمة الفصل عنده للروح.

ومن هذا اللون تتكون خير أمة أخرجت للناس. وينشأ المجتمع الاسلامى المتكافل .. والذى يخرج اليوم من تجربة الصوم أنصع جوهرا وأصلب عودا .

وكيف لا .. وفى قلب كل مسلم اليوم عزم.. وفى أعصابه قوة.. وفى إرادته مضاء.. يزامل هذا شعور راسخ بأنه – بعد هذه المشاركة الوجدانية بالصوم– عضو فى جماعة.. وخيط فى حبل متين ؟

أى أنه أصبح جنديا فى جيش .. فإذا كان فى الساقة كان فى الساقة

وإذا كان فى المقدمة كان فى المقدمة.. إنه يحارب من أجل المجموع.. وعن هذا الشعور بالجماعية يتولد شعور آخر بالمسئولية:

مسئولية القادرين ؟ .. نعم .. ومسئولية الفقراء أيضا تجاه مجتمع يحتويهم.

وهذا ماتكفل به زكاة الفطر :

إن الفقير ليخرج من ماله فى هذا اليوم .. إنه يعلو بيده لتعطى .. بعد أن كانت ذليلة تأخذ !

ولعمرى .. إنها لفرصة كريمة تتيحها الأقدار له اليوم.. حتى يباشر ساعة عملية الإعطاء .. فيمارس – وهو يعطى – شعورا من الاعتداد بالنفس والإحساس بالكيان..

ولعله – والحالة هذه – يشعر بلذة تفوق لذته حين يأخذ ؟!

فشتان بين متعة يحس بها سيد حر يمنح غيره حق الحياة .. وبين نشوة عابرة يستشعرها عبد ذليل يستجدى هذه الحياة :

«ضرب الله مثلا : عبدا مملوكا لايقدر على شئ ومن رزقناه منا رزقا حسنا فهو ينفق منه سرا وجهرا. هل يستوون.. الحمد لله بل أكثرهم لايعلمون.

وضرب الله مثلا رجلين :

أحدهما أبكم لايقدر على شئ وهو كل على مولاه اينما يوجهه لايأت بخير هل يستوى هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم»؟

«قل : لا يستوى الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث »

« وما يستوى الأحياء ولا الأموات »

« مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع. هل يستويان مثلا» ؟؟

«لايستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون».

وإذن فلماذا لايحاول الفقير من اليوم أن يكون فى حياته عاملا.. أن يجدد نفسه بعد أن أحس بهذه المتعة : فيعمل .. ليكسب .. لينفق من سعته.. حتى يعطى الناس بمقدار مايأخذ منهم.

وبذلك يتجدد شباب المجتمع. ويزداد طابور العاملين أمتدادا.. فتدور آلات المصانع .. وتورق ثمار الحقل.. وتزدهر أسواق التجارة.

وتلك عبرة اليوم .. من زكاة الفطر .. فى عيد الفطر.

إنها عودة الروح إلى المجتمع لتحيا أجزاء منه أصيبت بالشلل يوما..هذه الروح التى تأخذ طابعا عمليا فى يوم العيد.

فيبدو الجميع صفا واحدا كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا..

وتفتح الحياة عينيها لترى الثوب الجديد يزهو به القادر والعاجز.. وترى قطعة الحلوى ودمية اللعب.. فى يد المسكين واليتيم.. بعد أن كانت وقفا على .... ربيب الغنى.

وهنا تبدو ثمرات الصيام مجسمة شاخصة.. كسلطان بين على نجاح التربية الاسلامية فى تكوين المجتمع الصالح.

وتشير فى نفس الوقت إلى مفرق الطريق بين أعيادنا وأعيادهم :

إننا لا نتخذ من أعيادنا سكرا ولهوا معيبا يتجاهل القيم الجوهرية التى يلتقى عليها الكرماء من الناس.

ولم نفر عندها من الميدان الى مغارة فى جبل أو مدخل.. مع سبحات الروح وشطحات الخيال.

وإنما نمد من عيدنا جسرا فوق هذين التصورين المتناقضين للحياة:

فاللهو المعيب لايكون غاية نجتمع عليها.

ومن ناحية أخرى لانرى الفرار من طيبات الحياة إلا اعتداء على حق الأنسان فى أن ينعم بخيرات الله.

"قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق"

إنه عيد :

تعود إلينا فيه قدرتنا على التحكم فى أقدارنا.. فلا نسمح أن يعبث بها دعى أو دخيل.

أرأيتم إلى أول عيد للفطر فى تاريخ الاسلام؟

لقد كان نقطة انطلاق للقوى الاسلامية التقدمية.. ساح منها أبطالنا فى مناكب الأرض جميعا.. وذلكم مانريده اليوم إخوتى المسلمين فى يوم

عيدنا ..

فليكن بداية .. وليس نهاية :

بداية لمعركة حاسمة مع الشيطان وجنوده من الجن والأنس يوحى بعضهم إلى بعض زخر ف القول غرورا .

لقد كان رمضان الكريم مدخلا سار بنا إلى هذا اليوم.. إلى واقع ينبض بالإحساس والحركة.

واقع .. نجند فيه مكنون الطاقات التى صقلها فينا الصيام.. لنطلقها هناك.. إلى علوى المنازل.. فى ضوء كفاح خلقى .. وكفاح عسكرى .. بحيث لاتلهينا المكاسب الصغيرة.. ثم نسبح بعد تحقيقها مع الأحلام..

فالواقع الماثل صارم القوانين.. لايقدر إلا العاملين الباذلين دماءهم وأموالهم.

فهيا لنجدد شبابنا .. كما جددنا ثيابنا !

وإن عيدنا الأكبر لآت لاريب فيه ..

بيد أننا يجب أن ندفع الثمن أولاً ..

يجب أن نبذل الواجب .. قبل أن نطالب بالحق :

تبينت أن الحق إن لم تتح له

بواسل يخشى بأسها فهو باطل

لعمرك لو أغنى عن الحق أنه

هو الحق. ماقام الرسول يقاتل

فلا تحسبن الحق ينهض وحده..

إذا ملت عنه فهو لاشك مائل

أقمه وأسنده ودعم بناءه

وذد عنه ذود الليث والليث صائل

ولاتنصرن الحق بالقول وحده

فإن عماد الحق ماأنت فاعل

من العدل ألا ألا يطلب الحق عاجز

فليس على وجه البسيطة عادل

ولكن قوى : يشرب الدم سائغا

إذا خضبت يوم الورود المناهل



درجة عند الله وأولئك هم الفائزون يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم خالدين فيها أبدا إن الله عنده أجر عظيم"

إن المسلمين يجب أن يكونوا إيجابيين من الآن.. وفي هذه المرحلة الحاسمة بالذات.. مرحلة البناء والتشييد :

إن بناء من الحجارة يقف من ورائه جيش من العمال. والخبراء حتى يتم ويستوى على أعمدته ..

فكيف يكون الأمر إذا تعلق ببناء دولة تقف أمام جبروت الفرس وسطوة الرومان وعدوان المشركين ؟!

إن الأمر إذن أشد خطورة وأفدح عبئا.

والايمان وحده لايكفى في حالة كهذه تشبه حالة الطوارئ فى عصرنا الحاضر..

لابد أن يتحول الايمان من معرفة فى العقل إلى ايمان فى القلب.. ثم يوزع القلب هذا الايمان مع الدماء إلى كل شريان فى جسم الانسان..

فتهتز الجوارح بالطاعة.. بالجهاد بالنفس.. بالتضحية وإنكار الذات فيها جر الانسان مخلفا صحابه وأحبابه.. ليكون فى المدينة على أرض المعركة !

وما أحكم القرآن الكريم وهو يحبب الجهاد إلى نفوس لم تمارسه قبلا كعمل يسوق الى الجنة.. فيخاطب هذه النفوس بما يقوى عزمها :

فالله تعالى يعلم أن حب الوطن شعور راسخ فى قلب الانسان . من

أجل ذلك رغب فى الهجرة أولا بما يثير شوقهم إلى المدينة حتى لايكون قامعا للطبائع..

فوصفهم سبحانه بصفات ثلاث :

الايمان .. والجهاد .. والهجرة.

ثم تجئ البشريات الثلاث لتكون كل واحدة منها مقابل أختها من الصفات الآنفة :

بشرهم بالرحمة لتكون فى مقابل الايمان .. حيث إن الرحمة ربيبة الإيمان . والذين لايؤمنون لاتعرف الرحمة إلى قلوبهم سبيلا.

وبشرهم ثانيا بالرضوان :

والرضوان قمة الإحسان ونهايته .. ليكون فى مقابل الجهاد بالنفس الذى هو بدوره أقصى البذل.

« والجود بالنفس أقصى غاية الجود »

ثم بشرهم بالجنة أخيراً :

حتى يتبين لهم : أن الله سبحانه وتعالى أبدلكم بداركم التى تركتموها مهاجرين دارا خيرا منها.. وهى جنة النعيم خالدين فيها.

ومع هذا الترغيب الحبيب إلى النفس.. ترى بعض المسلمين لايرتفعون إلى مستوى المعركة.. وربت فى أفئدتهم مشاعر الحنان.. عندما تعلق بهم أهلهم وأولادهم قائلين :

إن فى هجرتكم من هنا ضياعا لنا.. فرضوا بأن يكونوا مع الخوالف !

ولكن الحق تعالى يبين خطأ هذا الزعم فيقول سبحانه :

«ياأيها الذين آمنوا لاتتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون».

إنه يلفت أنظارهم إلى إيمانهم .. ياأيها الذين آمنوا .. ليكون دافعا لهم إلى الاستعلاء فوق عواطف الأبوة والأخوة.. وتجريد النفس لله تعالى.

ورابطة الإيمان ينبغى أن تكون أقوى من الحياة نفسها.. لأنها خالدة وهذه الحياة فانية.

إن المال والتجارة.. وإن الأباء والاخوان.. كلها ستذهب الى حيث لايعود الذاهبون..

وتبقى العقيدة رمزاً باقيا يحكى للأجيال قصة الغذاء تسطرها دماؤكم فوق صحراء الجزيرة. وحيث كانت الرغبة فى البقاء.. شديدة نرى القرآن الكريم يواصل نداءه لقطع دابر كل هاجس يجذب الإنسان إلى أهله وذويه :

«قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب اليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله.. فتربصوا حتى يأتى الله بأمره والله لايهدى القوم الفاسقين».

إن الاسلام لايقبل أنصاف الحلول أبدا..

والذين أخذوا مواقعهم بين جند المسلمين يجب أن يتحملوا راضين

مغارم هذه الشارة التى شرفهم بها الله سبحانة وتعالى :

أما أن تقدم رجلا وتؤخر أخرى .. أما أن ترجج جوانب الأرض هاتف الروح وداعى التوحيد .. فهذا فى منطق الايمان لايجوز.

«فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم»

« بئس الأسم الفسوق بعد الايمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون »



ثمن النصر

(انفروا خفافا وثقالا..)

هذه الآيات الكريمة تقف بنا أمام مشهد من مشاهد الكفاح الدامى بين المسلمين وأعدائهم فى غزوة تبوك..

بين جنود الاسلام اليقين.. يعلقون أبصارهم بغاية كريمة هى : السلام..

وبين حشود الباطل عبر الحدود.. تسوقها غرائز القطيع إلى المجد طريقا من أشلاء الأبرياء :

إن السلطة الدينية فى الروم لاترتاح إلى عقيدة كعقيدة التوحيد.. تهددهم فى مراكزهم وهى إن انتصرت تجردهم من أسلحتهم التى يسلطونها على رقاب الناس..

وتجردهم أيضا من الأقنعة المزيفة التى يختبئون خلفها.. وباسمها يأكلون أقوات الكادحين.

إن هذه العقيدة تهدد كيانهم لأنها :

أولاً تنفى الوساطة : «ونحن أقرب اليه من حبل الوريد »

ثانياً : تؤكد وحدانية الإله : «قل هو الله أحد »

وثالثاً : الناس سواسية كأسنان المشط.. وليس هناك رجل دين يقف – باسم الدين – على خزائن رحمة الله يعز من يشاء ويذل من يشاء !

وأمام قوة الاسلام الضارية .. لم يسع الكهان إلا أن يؤذنوا في قومهم بحرب محمد وأتباعه.

ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم شاء أن يتخذ من عنصر المفاجأة سببا إلى الانتصار عليهم وإذهاب ريحهم..

فأذن في المسلمين بالجهاد.

ولكن الوقت كان شديد الحرارة .. والجلوس في ظل الأشجار العالية وبين الثمار المدلاة .. مع هذا الحر.. أمر قد يجذب اليه الانسان وينسى معه واجبا مقدسا كالجهاد.. لاسيما.. والشقة بعيدة.. والزاد قليل ؟!

ومن هنا حاول بعض المسلمين البقاء والتمس لنفسه شتى المعاذير.. ولكن الله سبحانه وتعالى يستنهض هممهم للقتال .. مستنكراً أن يكون هناك على وجه الأرض نعيم ينسى الانسان جنته :

«إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذهما في الغار إذ يقول لصاحبه لاتحزن إن الله معنا.

فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها »

إن لم تخرجوا معه اليوم .. فلا بأس !

واعلموا أن ميزان القوى لن ينقلب لأنكم تخلفتم !

ومتى كان لجهودكم المحدود أثره في انتصاراتكم الماضية ؟!

فليتول الله نصره الآن .. كما نصره أنفا في الوقت الذي كان فيه مع

ذلك بأن الله تعالى يحب معالى الأمور ويكره سفسافها..

فى هذا المأزق الحرج.. الذى يزداد فيه الحنين الى الراحة والسكن.. فى الوقت الذى تستعد فيه الروم بخيلها ورجالها.. ينبغى أن يكون العدل فوق الرحمة.. فلا يسمح لإنسان بالتخلف .. إلا لصاحب عذر مقبول..

ولكن الله تعالى يعاتب نبيه صلى الله عليه وسلم حين جعل الرحمة هنا فوق العدل فسمح لنفر بالبقاء فى المدينة ؟

« عفا الله عنك. لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين ».

لايستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم والله عليم بالمتقين.

إنما يستأذنك الذين لايؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم فى ريبهم يترددون».

فالمؤمن يسأل ضميره وقلبه .. وإن أفتاه الناس وأفتوه !

فإذا اطمأن الى عدالة القضية اطلق انطلق عبر الحدود فى لقاء مع أعداء الحق.

أما المنافق فهو فى شك من أمره.. يدور فى حلقة مفرغة.. تتقاذفه أمواج الحيرة فلا يجد لنفسه شاطئا يرسو عليه.

وعلى أى حال فالدلالة المادية على نفاقهم شاخصة رأى العين ولمس اليد :

« ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة »

ولكنهم لم يريدوا .. فلم يعدوا !

وكان خيرا لكم أن تخلفوا حتى لايفرقوا جمعكم هذا المتماسك.. وينفثوا سمومهم بين صفوفكم مستغلين حرج الموقف وشدة الأمر :

« لقد ابتغوا الفتنة من قبل .. وقلبوا لك الأمور حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون. ومنهم من يقول : أئذن لى ولاتفتنى ألا فى الفتنة سقطوا وإن جهنم لمحيطة بالكافرين».



عندما يضئ الشرع.. ظلمة الطبع !

«قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين . يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم» المائدة ١٥ - ١٦

فى الطريق إلى منزلى بستان فيه زرع ونخيل . وكلما عدت إليه لاحت لى من بعيد باسقات النخيل لها طلع نضيد رزقا للعباد .

ولم يكن عجيبا أن ينعطف قلبى نحو نخلة هيفاء تشق الفضاء شقا .. وأن يتحول هذا الميل إلى صداقة !

ذلك .. لأننى دائما .وكلما رجعت من سفرى ليلا .. أراها فى أشعة القمر فأحس بمشاعر البهجة يختلج بها فؤادى.

وكيف لا .. وهى بشير الاقتراب من سكن الأحباب ..

وهى أيضا تقف على منعطف الطريق .. فتحدد لى معالمه واتجاهه الذى علىّ أن أسير فيه وأنا أنقل خطاى بين الحقول النائمة فى هدأة الليل . وذات يوم .. سجا الليل وغارت نجومه .. وكنت عائدا من سفر .. فى ليلة من ليالى الشتاء الباردة .. وفى غيبة القمر .. الذى كنت أبصر فى سناه نخلتى .. أو بشير عودتى!

وسرت فى طريقى .. لا أدرى أمشرق أنا .. أم مغرب ..

وساءلت نفسى :

أين القمر المضئ ؟

وأين منى نخلة عالية .. كنت أعلق بها بصرى فى ضيائه فتبدو – مثل "بوصلة"بحرية .. تشدنى إليها فأمضى معها على سواء الصراط ؟

وغاب تساؤلى ولم يتلق جوابا .. تماما كما غابت النخلة الشماء فى أحشاء الظلام !

وحبست أنفاسى وأنا أسمع صفير الرياح الباردة يملأ الفضاء رعبا .. وفجأة .. ارتطمت بجسم غريب !

وبين سبرات البرد .. وعواء الرياح . أحسست بدفء الدماء تسيل من يدى!

ولشد ما كان عجبى عندما علمت أنها النخلة المعهودة تصدمنى .. أجل . النخلة التى كانت بالأمس تهدينى .. إذا بها اليوم تؤذينى!

قالت نفسى :

يارفيقى : هل عرفت السر ؟

لقد غاب القمر المضئ .. فغابت معه المعالم .. وحدث فى الظلام مالم يكن فى حسابك .

قلت لنفسى : وهكذا الدين فى حياة الناس :

فعندما تستيقظ العاطفة الدينية فى قلب إنسان .. ويشرق فيه شعاع

من الإيمان تمتد فى نفس اللحظة أشعة هادية منه .. يسير الإنسان فى ضوئها ..

وتتسق فى الضوء خطوات الجوارح .. بلا تصادم .. إلى غاية كشفها نور الدين فى أعماق القلب .

إن العقل – فى هذا الضياء – سيسخر ذكاءه لخدمة الحياة ..

ومن ورائه القلب المصمم .. تملأه إرادة فولاذيه وعزم كعزم الأنبياء ..

ومن ورائها الجوارح فى صف واحد.. كالبنيان المرصوص .. تنتفض عملا دائبا ..

وإذا الأنسان وحدة حية متماسكة .. أو قل شبكة من العروق والشرايين سرى فيها تيار الإيمان فأضاءت للناس سبيلا مشوا فيه .

وعندما ينطفئ المصباح فى القلب – ستخفى ملامح الوجود من حوله .. ولا يدرى أيتقدم هو أم يتأخر ..

وكما يموج الجمع عند انطفاء النور فى بعض .. فترتطم الأجسام .. وتسيل الدماء .. تصطدم قوى الإنسان وملكاته فى الظلام .. لتصبح حربا عليه .. وليست عونا له !

وتتحول إلى معاول للهدم .. بعد أن كانت معالم للهدى .. وأداة للأيذاء بعد أن كانت وسائل للراحة .. تماما كتلك النخلة التى حدثتك عنها آنفا !

إن الدين رقيب :

وفى غيبة هذا الرقيب سينطلق القلب مسعورا .. ليعب من نعيم الحياة ولذا ذاتها عبا .

وذكاءه العقل سيتحول إلى دهاء ومكر .. يصنع الذرة .. ويطلق الصاروخ مدمر .

واليد .. والقدم .. والعين .. واللسان . كلها ستختلف بها السبل .. وستشد الانسان معها حتما إلى هوة بعيدة القرار .. ويقف الأنسان الضعيف العاجز على مفترق الطرق :

بين غريزة صماء لا تسمع .. عمياء لا تبصر .. وعقل غابت عنه حكمته وتاه دليله .. فراح يعصف بمقدرات الحياة ومقدساتها عصفا .

ومن هنا تتضح لنا طبيعة الميدان الذى يلتقى فيه أعوان الشيطان وجند الرحمن : إن الشيطان المريد يحاول أن يفتح فى قلب الأنسان ثغرة ليصل إلى قراره فيتمكن منه ..

وبعد ذلك يمسك بالزمام "بعجلة" القيادة .. بعد أن يطفئ فيه ذلك الضياء الكاشف .

ولكن « الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا » فارتفعت من فوق أعينهم غشاوة رقيقة من صنع الشيطان . وأصلحوا أسلاك النور فى أنفسهم فأضاء القلب مرة أخرى "فإذاهم مبصرون".. إذاهم يواصلون المسير على الطريق أمضى عزما .. ومن فوق أشلاء إبليس وجنده يشنفون الأذان بألحان الإيمان .. وأنا شيد النصر على عدو الإنسان .

والذين أوتوا العلم من قبلنا يكشفون لنا سرا من أسرار التعبير القرآني في هذه الآية الكريمة :

فأنت إذا قلت لطفلك الصغير : أين الكتاب ؟

فإذا قال لك : بحثت عنه فوجدته .. كان معنى هذا الأسلوب أن الكتاب غاب من يده زمنا ولما بحث عنه وجده ..

أما إذا كان جوابه :

بحثت عنه فإذا هو موجود

كان معنى ذلك أن الكتاب لم يغب .. بل غفل عنه الطفل .. وظن أنه فُقد .. مع أنه في يده لم يفارقها !

وفي ضوء هذا الأسلوب نستطيع أن نفهم الآية الكريمة :

فـ « الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذاهم مبصرون » .

إن الإيمان لم يخرج من قلوبهم ..

ولم يستطع الشيطان أن يسلبه منهم نهائيا ..

وكل ما استطاعه : هو إلقاء غشاء من الخداع والتمويه .. وفر هاربا !

ولكنهم تيقظوا .. وانتبهوا للخديعة .. فإذا البصيرة موجودة كما هي .. فإذا الكتاب حاضر في أيديهم لم يفارقها ..

ولم تكن العملية سوى مؤامرة لاحتلال شبر في أرض القلب ليكون

نقطة ارتكاز للأهواء ..ولكن الإيمان صحا .. ومد شعاعه .. «إن عبادى ليس لك عليهم سلطان» .

ونقولها - بعد هذا - كلمة :

إن مفهوم الحضارة اليوم تغير .. فأصبحت تزيين الظاهر وتنسيقة ..

بينما بقى القلب من الداخل خرابا .. لا يعمره إيمان ..

ومن هنا تقلصت ظلال الأمن فى حياتنا .. كيف لا والقلب فارغ من كل روافد السكينة والأمان ..

وما أحوج المسلمين اليوم إلى عودة نتجلى فيها تاريخ روادنا الأوائل ..

وكيف أضاءلهم الإيمان طريقا مشوافيه آمنين .. فكانت حضارتهم من الداخل .. من القلب ..

وما ضرهم أبدا أن الظاهر لا يغرى .. أو يلفت الانظار .. وعدتهم فى الحياة :

قلب طاهر يحب فى الله ويكره فى الله ..

وإعراض عن كل ما فى أيدى الناس .. فعاشوا فوق جميع الناس :

رأيتك لي من الدينا كفيلي ∴ ولم أر غير ركنك من مقيل

تجنبت الشكوك فما عرتني ∴ وأدركت الحقيقة في مثولي

وفتشت العلوم وعارفيها ∴ فلم أر كالمحبة من دليـــل

صاحبه أبى بكر .. وعدد المسلمين قليل حينئذ..

إن الواقع التاريخى يشهد أن جند الله كانت معكم فى كل معركة سابقة.

« انفروا خفافا وثقالا وعلى أى حال كنتم :

هل تخشون الحر ؟ قل نار جهنم أشد حرا.

هل حبب اليكم البقاء ظل ممدود وماء مسكوب ؟ ماعندكم ينفذ وما عند الله باق..

هل تخشون الروم لأنهم أكثر عددا وأوفى سلاحا ؟

يجب أن تعلموا أن الروم متشبثون بباطلهم إلى حد بعيد .. وأصحاب القضايا الكبرى من أمثالكم يجب أن يبذلوا تجاه الباطل مجهودا يوازى شرف القضية التى يحاربون من أجلها..

ولن ينتصر إسلامكم إلا إذا كان إيمانكم بقضيتكم أقوى من تعلق الروم بخرافة التثليث ! ؟

إن حرارة الشمس يجب أن تتحول الى وقود يمنحكم الحركة والانطلاق.

وذلكم أجدى لكم من هذا الموقف المائع.. موقف الذين يربطون بين النصر ومنافعهم الشخصية:

فلو كان عرضا قريبا .. وسفرا قاصرا لخرجتم ...



إلى الآباء والأبناء

في عيد الفداء

«نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين » .

في سلسلة المعارك الدائرة بين الحق والباطل وقف إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام يلزم قومه كلمة التقوى .. ويأخذ بقلوبهم إلى عقيدة التوحيد .

ولقد بذل العقل الوثني المتحجر أقصى ما يملك من جهد لعزل إبراهيم عليه السلام عن التأثير في مجرى الحياة . وكسب مزيد من الأتباع يعبدون "رب العالمين" الذي خلقني فهو يهدين والذي هو يطعمني ويسقين . وإذا مرضت فهو يشفين . والذي يميتني ثم يحيين . والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين » .

ورمت الوثنية كل ما في جعبتها من سهام .. حفاظا على عروش خاوية .. تستمد وجودها من غموض مصطنع .. وتعتمد في بقائها على كدح العاملين من أبناء الشعب .

وكشف إبراهيم الخليل عن زيف هذه الأوضاع العفنة .. وفضح الخيال المريض الذي يقف وراء هذا اللون لهزيل من الحياة .. وقال :

«أتعبدون ما تنحتون والله خلقكم وما تعملون» .

وكما يلجأ الصغار الاغرار إلى الحجارة يرمون بها وجه ناصح أمين

.. يلجأ هؤلاء الأطفال الكبار إلى نفس هذا المسلك المعيب .. إلى العنف .. وذلك عندما أعوزتهم الحجة «قالوا : ابنوا له بنيانا فألقوه فى الجحيم .

وعقلية متحجرة كهذه .. لا تخضع لمنطق .. ولا تستكين لعاطفة لا يمكن أن تكون بيئة صالحة لدعوة صالحة .

والفرار منها أمر لازم .. وهو فرار من قدر الله إلى قدر الله .. إلى أرض مباركة تزكو فروعها .. ويمتد ظلها .

ومن هنا عزم الخليل عليه السلام على الهجرة وقال :

"إنى ذاهب إلى ربى سيهدين"

وكثير من دعوات الاصلاح تموت فى مكانها لأنها لم تجد المناخ الملائم ولا التربة المناسبة .. التى تشد من أزرها .. فتمنحها من التأثير ما يضمن لها البقاء والتأثير فى مسير الحوادث .. إلى الحد الذى يصبح فيه الفرار بالدعوة جزءا من نجاح الدعوة ذاتها .

وهذا ما حدث بالفعل لأبراهيم عليه الصلاة والسلام :

«وتجيناه ولوطا إلى الأرض التى باركنا فيها للعالمين» .

وهجرته عليه السلام تلك المكانية .. زاملتها هجرة أخرى فى المشاعر والسلوك :

إن حياته لتجنح الآن إلى الغيب ..

وقد يكون جميلا أن يرزق ولدا .. ولد اصالى تمتد به حياته .. ويبقى

معه ذكره فناجى ربه قائلا :

"رب هب لى من الصالحين"

وليس غريبا أن يجيش صدر إبراهيم الخليل بهذه الأمنية الغالية .. فهو أولا إنسان يلبى غريزة غالبة هى حفظ النوع ..

وهو ثانيا رسول مكلف بتبليغ رسالة .. وحيث انفض من حوله السامر .. وتامر عليه القوم فرفضوا دعوته.ثم أجبروه على مغادرة الوطن ..

فلم لا يطلب الولد الصالح .. لعله يحمل من بعده تبعات الرسالة ... فتظل كلمة التوحيد باقية فى عقبه ؟

وعندئذ .. وعندما يجاب إلى طلبه يستطيع أن يودع الحياة بعد ذلك راضيا قريرا العين .. مطمئن الفؤاد ؟

وبقدر ما فى قلبه من شوق غامر .. واستجابة لهذه العاطفة الجياشة عاطفة أب بلغ من الكبر عتيا يطلب ولدا .. تأتيه البشارة قبل الهدية لتعيد إلى القلب الآمل اطئمنانه

"فبشرناه بغلام حليم"

وهنا لا بدلنا من وقفة نتعلم فيها فن الحياة على يد أبينا إبراهيم الخليل :

إنه لا يطلب من ربه ذرية وكفى .. إنه لا يريد ولدا يصبح غدا طبيبا أو مهندسا ..

لا يريده فقط مهندسا يزهو بمثلث وزاويه .. أو ضابطا تلمع فوق كتفيه بوارق النجوم .

وإنما .. ليكن ما يكون .. شريطة أن يكون من الصالحين .. ولد وبقيد الصلاح :

"رب هب لى من الصالحين"

وذلك ليحمل من بعده دعوة الاصلاح .. وذلك أمل لو تعلمون عظيم.

وذات يوم ١٠٠ استقبلت الحياة اسماعيل وليدا ضحكت لميلاده الدنيا ولا ريب أن مظاهر من البهجة عمت العش الهادئ..

ولا ريب أيضا أن أنغاما من السعادة ملأت جو البيت ساعة هذا الميلاد السعيد .

ولكن .. هل استطاع هذا التغيير المفاجئ فى حياة إبراهيم أن ينقص من محبته لربه كخليل ؟

هل أحب النبى ابنه فاحتل فى قلبه مساحة نقص بمقدارها حبه لله تعالى؟

هذا سؤال .. وسؤال دقيق ينبغى لأبراهيم أن يجيب عليه .. ولكن هذه الإجابة على نحو عملى.

ومن هنا جاء الأمر بالذبح .. ليعلم مقدار صدقة فى حبه ؟

"فلما بلغ معه السعى قال يا بنى"

خذ هذا الحبل والمدية وانطلق بنا عبر هذا الوادى لنحتطب .

وهناك فى رحاب صحراء واسعة لا تسمع فيها إلا صفير العواصف .. وعواء الوحوش الضوارى .. يواجه اسماعيل أعنف قرار فى حياته عندما قال له أبوه :

"يابنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك"

وعلى رغم أن هذا وحى لازم التنفيذ .. إلا أن الخليل عليه السلام لا يفوته أن يأخذ رأى الابن فى قضية هو أحد طرفيها :

"فانظر ماذا ترى"

لقد كان فى إمكانه أن يأخذ ابنه بغتة .. ثم يطرحه أرضا لينفذ فيه ما شاء الله دون تردد..

ولكن أبعاد القصة لا تقف عند هذا الحد .. !؟

إنها دروس فى التربية وعلم النفس .. يلقنها الخليل للأجيال من بعده :

حتى يعلم كل أب أنه ليس عيبا أن يأخذ رأى ابنه فى شئون حياته .. وليس افتياتا على حق الأب أن ينتصر الابن فى بعض الأحيان !

بل إن اشتراك الإبن فى صنع حياته هو .. من شأنه أن يخلق فى وجدانه شعورا بذاته .. وبأنه فى عين ابيه له كيان مستقل وصوت مسموع !

حتى إذا استقبل حياته العملية غدا .. ووكل إليه عمل ما .. جاء هذا

العمل ناجحا وعلى صورة نفسه تلك المتسقة الواثقة !

ولعمرى إنه لموقف يصور حرية الرأى فى الاسلام كأروع ما تكون الحرية .. الإسلام الذى مجد الحرية.. وعبأ مشاعر الناس لإحقاقها .. إلى الحد الذى أعطى الأرقاء – كما قيل – من الحرية ما يحلم به كثير من أحرار أوروبا !!

ومن ناحية أخرى – وليكون الغنم بالغرم – يجب أن يكون الأبن عونا لأبيه على أمر الله تعالى : فلا يتخذ من هذا الحق سلاحا يستعمله فى غير ما خلق له ..

وقد كان اسماعيل استاذا يعلم الشباب هذا المعنى عندما قال لأبيه :

"يا أبت : افعل ما تؤمر "

وهون عليك وجفف دمعك الغالى .. «ستجدنى إن شاء الله من الصابرين» .

«فلما أسلما وتله للجبين» إذا بنداء عبقرى يأخذ بمجا مع قلب الأب فى أعنف لحظات حياته ..

إنه صوت اسماعيل ينادى أباه :

«اشدد باطى كيلا اضطرب .. واكفف ثيابك .. حتى لا ينتضح من دمى فينقص من أجرى .. وتراه أمى فتحزن ..

وبهذا المنطق الواعى يطرد اسماعيل من فؤاد أبيه كل دافع للشفقة فى تلك الساعة الرهيبة .. حتى يتم ما أمر به الله ..

وتسمع الحياة إلى الطفولة الباكرة وهى تعلم الكبار مبادئ البطولة كيف حدث هذا ؟!

قد يساعد الخليل على تحمل هذا الموقف العصيب أنه رسول .. ومؤيد من الله تعالى ..

ولكن .. ما بال اسماعيل الغلام .. وهو الزهرة الناصرة التى تسقبل الحياة ..

أية قوة خفية كانت تقف من ورائه تلك اللحظة ؟

إن كثيرا من المغامرين الذين يدعون البطولة سيقوا إلى غرفة الاعدام صاغرين :

لقد تخلت عنهم بطولتهم .. وخانتهم أعصابهم .. وعجزت أقدامهم عن حملهم .. وماتت الهمسات الحزينة على ألسنتهم .. وراحوا فى واحة العدم .. ولم يعد يذكرهم إنسان !

ولقد كان من الطبيعى أن يفر اسماعيل من يد أبيه كغزال شارد .. وله ألف مندوحة وعذر !!

فالحياة هناك .. بين الرفاق .. وعلى دروب القرية مغرية وجميلة .. ومن حق اسماعيل كغلام أن يتمتع بها ..

ولكنه نسى كل هذا .. وذكر شيئا واحدا.

ولا غرابة .. فهذا الشبل من ذاك الأسد : انظروا :

"إن إبراهيم لأواه حليم"

وقد طلب من الله ولدا "فبشرناه بغلام حليم

وكان الحلم .. هو الصفة الفريدة .. والسلاح الوحيد .. الذى يمكن لابراهيم واسماعيل معا أن يواجها به الموقف .. وتبارك الله أحسن الخالقين.

وينبغى ألا ننسى الطريقة التربوية الناجحة التى لجأ إليها ابراهيم عليه السلام فى تنفيذ الخطة .. فلقد ساعدت ولا شك على خلق هذا الموقف التاريخى .. إن كثيرا من الآباء يفشلون وهم يدعّون ابناءهم إلى الفضيلة دعا .. بل ويسوقونهم إليها بالعصا [رحم الله والداعا ولوه مع بره] .

وها هو ذا الخليل يقول لهم : بل بالحكمة والموعظة الحسنة !

لقد سبق لابراهيم أن تدرج مع قومه وهو يدعوهم إلى التوحيد :

تدرج بهم من الكوكب .. إلى القمر .. إلى الشمس .. ونفى أن يكون واحد منها ربا .. ووضعهم أمام الأمر الواقع .. أمام الذى فطر السماوات والأرض حنيفا ..

وامتدادا لهذه الخطة المثلى فى الدعوة إلى الله تراه لا يطرح اسماعيل أرضا .. وإنما يذكر الحبل .. والمدية .. ويعرض الأمر فى صورة الرؤيا البعيدة عن صرامة الأمر الواقع ..

وفوق ذلك كله يأخذ رأى ابنه فى شئ يمس حياته قائلا :

" فانظر ماذا ترى »

من أجل ذلك ينبغى للناس ألا يفهموا أن ماتم هذا كان معجزة وأن اسماعيل نموذج متكامل لايتكرر على مدار الزمان..

والذى يجب أن يفهموه أن الطريقة الناجحة التى لجأ اليها الخليل عليه السلام ساعدت - إلى جانب الايمان - على خلق هذا الموقف الفذ لإسماعيل الذبيح.

والتى كان ثمراتها أن غلاما كهذا يستقبل الموت ثم لاينسى فى هذه اللحظة العابسة أن يكون بارا بأبيه .. وفيا لأمه ؟!!

ولايفوتنا أن نذكر أن «البر» الذى يجنيه إبراهيم اليوم إنما هو وفاء لبره هو بأبيه قبل ذلك.. عندما هدده فقال :

«أراغب أنت عن آلهتى يإبراهيم .. لئن لم تنته لأرجمنك وأهجرنى مليا.. قال سلام عليك سأستغفر لك ربى إنه كان بى حفيا».

إن الجميل وإن طال الزمان به

فليس يحصده إلا الذى زرعا

وهل كان بر اسماعيل بأبيه ورضاه بأمر كهذا رجعيه ؟!

هل اشتكى اسماعيل لكل عابر سبيل لئن كان كذلك .. فاللهم أحينى

رجعيا وأمتني رجعيا واحشرني في زمرة الرجعيين !!

وسلام على إسماعيل في ذكرى وفائه وفدائه.. في ذكرى منطقة الفذ.. الذي يجب أن يأخذ مكانه في مقدمة الأناشيد التي يحفظها طلابنا في المدارس كآية تتلى ومثل يحتذى.

«وسلام على إبراهيم» إنه كان صديقا نبيا..

وسلام على العالم القلق الخائف .. يوم أن يدفع ثمنا لهذا السلام.

لقد كان السلام شارة الخليل وشرعته لأنه محسن .. ولأنه مؤمن :

«كذلك نجزي المحسنين إنه من عبادنا المؤمنين"

والإحسان أن تعبد الله كأنك تراه.. أن يكون لك ضمير.. ضمير حي منبثق عن الإيمان بالله.

فهل عالمنا اليوم في سعيه الحثيث يصحبه ضمير ويزكيه إيمان ؟

بكل أسف : لا

وبكل تأكيد : لابد له من الضمير ومن الايمان إذا أراد الوصول إلى هذا السلام :

هل الدين إلا معقل نحتمي به

إذا دلف العادي الينا فأسرعا

هو الدين : إن يذهب فلاعز بعده

وإن جد ساعينا على إثر من سعى

ولا دين حتى يرجعوا عن ضلالهم

ويصبح منهم موطن الغى بلقعا

وحتى يصونوا الكتاب زمامه

وحتى يكونوا ساجدين وركعا

هنالك يقوى منهمو ما تضعضعا

ويثبت من بنيانهم ماتصدعا

الدين فى حراسة الإيمان :

هذا هو نشيد الساعة ياإخوتى المسلمين !

أما هل الذبيح اسماعيل .. أو إسحاق .. فلا يجب أن يأخذ منا كل هذا الخلاف الكبير..

فنحن نتفق جميعا على أن هناك ذبيحا.. وهو ابن لإبراهيم عليه الصلاة والسلام !

والمفروض اليوم علينا .. وفى ذكرى ضياع فلسطين العزيزة.. وأمام وجه النكبة الكالح يطل علينا من شرفات التاريخ.. يجب علينا أن نأخذ الحبل .. والمدية .. ثم نسوق أمامنا إلى الميدان الواسع هذا الأبن اللقيط..

ثم نذبحه هذه المرة..

ويومئذ يفرح المؤمنون إذ يصبح.. الذبيح إسرائيل !!



إذا كان قلب الإنسان هو مستقر العقائد ومستودعها .. فقد سلك القرآن الكريم إلى هذا القلب طرائق شتى .. ليغرس فى تربته بذرة التوحيد.

تارة يسوق إليه الدليل عن طريق العقل المفكر .. لعل فى مقدماته المنطقية مايملأ حناياه براحة اليقين وسكينة القرار .

« لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا »

و« إذن لذهب كل إله بماخلق ولعلا بعضهم على بعض »

غير أن الاتجاه إلى القلب عن طريق المنطق .. كثيراً مايصدم بحشد من الأوهام والعقد النفسية التى تكونت على مر السنين .. بحيث تصبح حاجزاً يمنع الدليل أن يستقر فى أعماق الإنسان ..

بل إن هذا الدليل بحدوده .. قد يرتطم بهذا الحاجز .. فيضطرب وضع هذه المقدمات ليصبح الحد الأكبر فيه مثلاً أصغر !

وبذلك ينتج عكس المطلوب ! على نحو ماقال الشاعر :

أقول له : عمراً .. فيسمع خالداً ... ويقرؤها زيداً ويكتبها بكراً !

وإذا كان الأمر كذلك .. فإن القرآن الكريم يسلك إلى قلب الإنسان طريقاً آخر :

إنه طريق الحس المشاهد .. والطبيعة المنظورة .. ولعل الوجدان ينفعل بما فى الطبيعة من آيات بينات .. تكشف عن زيف أوهام عششت فى العقل

.. ليصبح الإيمان بعد ذلك سيد الموقف ..

ويمثل هذا الاتجاه قوله تعالى :

﴿ ألم تر أن الله خلق السموات والأرض إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد وماذلك على الله بعزيز ﴾

إنها دعوة إلى العين أن ترى هذه المخلوقات .. وتتأمل هذا النسق .. ليرتسم المشهد على اللوح الحساس .

ثم ينطلق الفكر الحبيس بعد هذا ليجوب فى ملكوت الله :

تتجلى له السماء بنجومها وزينتها .. وتبدو له الأرض بأشجارها وأطيارها وكل حى يدب على أرجائها .

ثم يعود الفكر من رحلته طليقاً متجدد الشباب .. لينقل إحساسه بقدرة الله إلى القلب الخالى .. فإذا كل خلية فى الانسان تسبح بحمد بارئ هذه الكائنات .

وفى نفس الوقت يرسخ فى النفس يقين جازم : بأن من هذا ملكه قادر على أن يذهب الناس .. ويأتى بآخرين .. وماذلك على الله بعزيز ..

وإذن .. فالقرآن الكريم لايكتفى بالمعانى العقلية المجردة يقذفها إلى القلب فترسب هناك فى قاعة .. وتجمد ..

بل إنه دائماً يستنهض الحس والشعور ليسبح فى ملكوت الله سبحاً طويلاً ثم يتوّجه بالتوحيد خالصاً له ..

تماماً كما تسرى جرعة الدواء فى الجسم :

إن الحرارة لترتفع .. ثم تنشط الأجهزة .. ويسترد الكيان بعدها عافيته الغاربة !

ولكن كثيراً من الناس مع هذا لايؤمنون .. فليسلك معهم طريقاً آخر.. مستغلا دوافعهم الفطرية .. ذلك بأن الانسان بفطرته يخاف من المجهول .. وتطويه رهبة جارفة من الغيب المحجب .

ومن هنا نرى القرآن الكريم يتدرج فى الإقناع .. إذ يسدل الستار على مشاهد الأرض .. ثم يفتح لهم نافذة يطلون منها على مشهد من مشاهد الغيب .. من الآخرة .. فلعل الرهبة تلوى أعناقهم إلى الحق بعد أن عجزت الرغبة أن تسوقهم إليه .

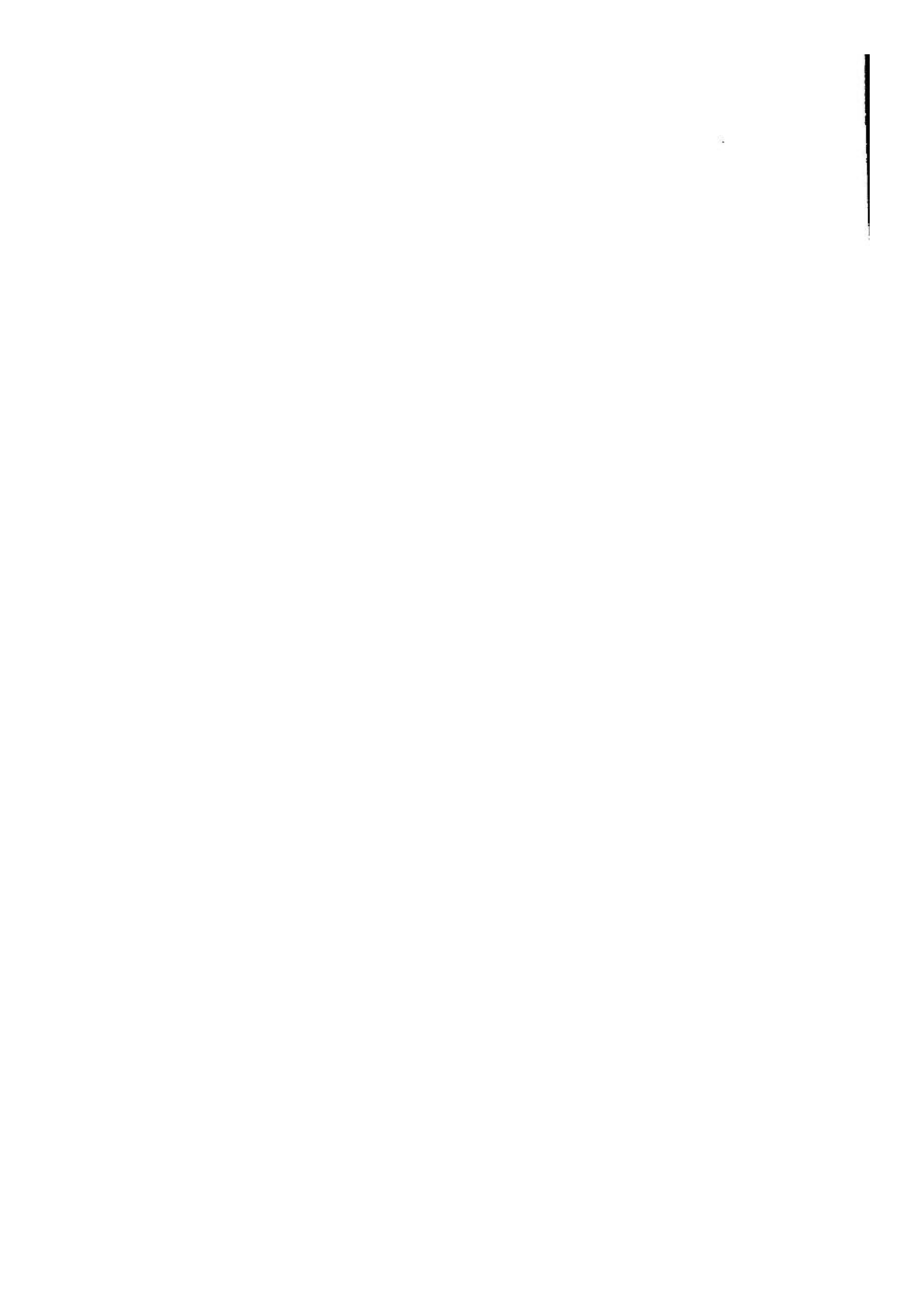
« وبرزوا لله جميعاً : فقال الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعاً فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شئ .

قالوا : لو هدانا الله لهديناكم سواء علينا أجزعنا أم صبرنا مالنا من محيص .

إن الكبراء المتبوعين فى هول الموقف لايزيدون على تلك الكلمات القلال:

لو هدانا الله لهديناكم سواء علينا أجزعنا أم صبرنا مالنا من محيص.

ثم لايأتى جوابهم حاملاً قدرتهم على نفع أتباعهم ..



حول مأدبة القرآن

من دسائس اليهود

عندما جاء محمد ﷺ بالهدى ودين الحق .. كان المفروض على اليهود- وهم أهل كتاب - أن يؤمنوا بكتاب أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم .

وحتى يقف أنصار التوحيد - جمعيا - فى جهة واحدة أمام وثنيه أزرت بعقل الأنسان .. وكفرت بكل الأديان .

ولكن اليهود سارعوا فى الفكر والعدوان ..

فلما جاءهم ماعرفوا كفروابه .. وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا ..

وإذا كان الضعيف - فى عراكه مع الغير - لا يكون صريحا واضحا .. وإنما .. يراوغ كالثعلب .. ويتلون كالحرباء ..

فكذلك كان بنو اسرائيل :

«لقد اتخذ عداؤهم للدين الجديد سبيل التشكيك فى نبوة محمد ﷺ .

فبذلوا أقصى ما يمكن من جهد لقطع الصلة بين القيادة والجنود، وذلك بالتفنن فى صياغة الأسئلة لياً بألسنتهم وطعنا فى الدين .. حتى يستطيعوا عزل المسلمين بعيدا عن القاعدة .. عن المحور الذى يدورون حوله .. ليكون الجميع هكذا كالسوائم : عرضا على غير طريق :

فقالـــــوا : كيف يقع النسخ هذا ؟

يامسلمون : يأمركم محمد اليوم بشئ تم ينسخه غدا ؟

وكيف ينسجم هذا ودعواه أنه رسول ؟!

ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً .. فسخروا العقل للكيد والقلب للحقد .. والجوارح للأذى .

ثم أضلوا غيرهم فأحلوا قومهم دار البوار ؟!

وقبل هذا .. وبعد هذا .. « جعلوا لله أندادا » فهل هناك عاقل يجعل رزقه أن يكذب رازقه ؟!

فلتقل لهم معنا كلمة الحق راضيا أم كارهاً .. « قل : تمتعوا فإن مصيركم إلى النار »

من دروس التربية .. والدعوة

جاء القرآن الكريم دواء يطهر القلوب من عواطف دخيلة على طبيعة الإنسان .. وتمحو من عقله أفكاراً قادته إلى العذاب أياماً وليالى .

وفى الوقت ذاته كانت الآى تترى لإنشاء عواطف جديدة نحو عقائد التوحيد والبعث ووحدة الأديان .

ولكن الحقد الأعمى بسط كفه .. في محاولة لإطفاء النور الوافد .. انتصاراً لا لعقيدة دينية .. ولكن لعقدة نفسية !

وكمظهر لهذه العقدة الكامنة فى النفوس بدأت حملة من التضليل ضد الرسول ﷺ .. ثم انتهت بالاشتباك المسلح .

الأمر الذى كان دائماً يحز فى نفس الرسول الكريم .. من أجل هذا الفراش الأبله.. الذى يتدافع نحو النار بمحض الأختيار ! ويرقب قومه بمشاعر الأب الحانى يرى أبناءه الفاشلين !

ولكن هداية السماء كانت معه دائماً .. تكفكف من هذا الحزن .. وتطرد عن القلب الكبير ظلال الأسى .

وكان أن كشف له الله تعالى عن مصارع الغابرين .. حتى يعرف تشابه المواقف .. وتجانس الدوافع .. ليعتقد أنه فى ضيقه ليس وحيد عصره .. ولم يكن فى الرسل بدعا ..

وإذن .. فليتسلح بالصبر :

فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ولاتستعجل لهم كأنهم يوم يرون مايوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار بلاغ .. فهل يهلك إلا القوم الفاسقون .

ولقد أرسل الله تعالى نوحاً إلى « قومه » وأهله .. « وإلى عاد أخاهم هوداً » .. و« وإلى ثمود أخاهم صالحاً » .. و« وإلى مدين أخاهم شعيباً »

وعلى رغم هذه الأخوة التى تربط بينهم .. ومع هذه اللمسات الوجدانية التى تبعث علي الرحمة وتوحى بالسلام .. كذبهم قومهم .. بل قاتلوهم بالسلاح !

وأبعد من هذا دلالة إخوة يوسف :

يحقد عليه إخوته .. وإخوته من أبيه .. إلى حد يدفعهم هذا الحقد لرميه فى بئر عميق القرار .. ثم يتركونه مجهول المصير !

فإذا ماتعرض محمد عليه الصلاة والسلام لأذى قومه .. فليصبر .. إنك واحد منهم .. تسير فى نفس الطريق .. إلى نفس الغاية .. وتكذيب قومك لك .. إجراء لايستغرب .. لأن الشئ من معدنه لايستغرب !

وقصة يوسف عليه السلام لم يقصد القرآن الكريم بها إلى ملء الفراغ

ولكنه يرمى من ورائها إلى أهداف دينية بعيدة .. ولايهمه أن يطوى كثيراً من مراحل القصة – على عكس عرض التوراة لها – لأنه كما قلنا يقتصر من مراحلها على ماله مساس بموقف محمد ﷺ من قومه ..

وموقفهم منه :

هذه المراحل والمشاهد التى يشترك فيها النبيان : محمد ويوسف .. حتى إذا تملاها الناس .. وتملاها معهم الرسول الكريم .. ايقنوا أن الحسد فى شخص إخوة يوسف ينكس أعلامه أخيراً .. أمام سموق الحق وصولته .

وأنه – أى الحقد – لايصلح أبداً كحل حاسم لقضية ما .. وإذا ماثبت له على المسرح خيال .. فإنما هو زبد سيذهب جفاء .. ويبقى الحق أبداً .. ومع هذا البقاء يرسخ فى وعى الناس أن الحق لابد أن ينتصر على دسائس الحقد مهما طال المدى .. فلينتظر المسلمون نفس النتيجة فى عراكهم مع الثالوث البغيض : المشركين واليهود والمنافقين !

ولنبدأ القصة لنرى المشابه بين الوضعين :

لقد آثر يعقوب يوسف بالحب .. فحسده إخوته . ثم سرقوه ليطرحوه فى مجاهيل لم يرها قبلا .

وقد اختص الله سبحانه وتعالى محمداً بالرسالة و« الله أعلم حيث يجعل رسالته » فحسده قومه .. وهاجر فراراً بدينه من المكر المبيت .

وكما وقف يوسف بعد ذلك على العرش .. ومن تحته سجد اخوته صاغرين ..

وقف محمد فوق ربوته السامقة يوم الفتح الأكبر وهتف فى أسماعهم بمثل ماهتف به أخوه يوسف من قبل : « لاتثريب عليكم اليوم .. إذهبوا فأنتم الطلقاء »

وبين هذه البداية وتلك النهاية تتواكب المواقف المتماثلة فى القصتين :

فكما انتصر يوسف عليه السلام على أسلحة الشيطان فى يدا مرأة العزيز .. وعلى إغراء المال فى خزائن الدولة .. سينتصر الرسول محمد أيضاً علي كل المحاولات والمساومات لزحزحته عن عقيدته .. ثم إن المبادئ التى يدعو إليها كل من النبيين واحدة .

فيوسف في محنته لاينسى أن يبلغ رسالة ربه :

وها هو ذا فى غياهب السجن يؤذن فى نزلائه بالتوحيد .. والبعث .. معرضاً بخطأ الذين يتخذون من دون الله أرباباً لاتغنى عن الحق شيئاً :

« إنى تركت ملة قوم لايؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون »

« أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار »

وهى نفس المبادئ التى ينادى بها محمد عليه الصلاة والسلام .. ساعة نزول سورة يوسف المكية .

وأيضاً يوسف الصديق : ينسيه الشيطان ذكر ربه « فلبث فى السجن بضع سنين »

ومحمد عليه السلام يسأله اليهود عن الروح .. وذى القرنين فينسى أن يقول : إن شاء الله .. وينقطع عنه الوحى مدة يضيق بها صدره .

وكما جاءت البشرى إلى يوسف عليه السلام تسعى : « وقال الملك :

إنى أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات »

ويتجه الملك إلى مفسرى الأحلام .. بيد أنهم يعجزون عن تعبير الرؤيا وإدراك مرماها .

وهنا يأتى صاحب يوسف الصديق فى السجن .. يأتيه فيسأله تفسير هذه الرؤيا .. وينجح فى تفسيرها .. ويسر الملك .. ثم يرسل فى طلبه .

غير أن يوسف الواثق يرفض الافراج هكذا حتى تثبت عند الملك براءته ..

وتشهد النسوة .. وتشهد امرأة العزيز ما علمنا عليه من سوء إنه لمن الصادقين .

ويظهر يوسف الصديق فى وعينا طاهرا ثابت الخطو .. نقى الضمير.

بيد أنه فى نشوة انتصاره على إغراء المرأة وكيدها .. لايزهو ولا يتكبر .

وإنما يعلم الناس صناعة التواضع .. وخفض الجناح .. وكيف كانت النفس من حيث هى « أمارة بالسوء إلا مارحم ربى » .

ثم يفتح الباب أمام الخاطئات لأعلان التوبة :

﴿ واستغفرى لذنبك إنك كنت من الخاطئين ﴾

ثم يصدر الملك العادل قراره بتعيين يوسف وزيراً للتموين :

ذلك لأنه محسن : والله لايضيع أجر المحسنين .. ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون .

وهنا .. ومن خلال هذا العرض الصادق المعبر .. يتراءى لنا الغرض الأصيل من القصة :

فليطمئن محمد وصحابه : فهم مؤمنون .. محسنون .. فالله تعالى لن يضيع أجرهم .. ولن يتخلى عنهم فى محنتهم مع قومهم .

ومع كل هذا الإيذاء الذى يواجهونه .. فالفجر قادم !

وليفتح المشركون أبصارهم جيداً : ليعتبروا .. وليشهدوا مصارع الغابرين .

وليكن عندهم من الشجاعة الأدبية مايدفعهم إلى أن يمدوا أيديهم الآن لمصافحة محمد عليه الصلاة والسلام .. بعد أن علموا – فى قصة يوسف الصديق – فشل الحقد والحسد فى أن يكون أداة لانقلاب الأوضاع .

بل هو فعلاً قد أدى إلى نتيجة عكسية لم تدر فى خواطرهم يوماً .. فلم يبق إلا إن يخوضوا تجربة أخرى :

هى الحب .. هى الاسلام

من حكمة الله عزوجل

﴿ والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق فما الذين فضلوا برادى رزقهم على ماملكت أيمانهم فهم فيه سواء أفبنعمة الله يجحدون ﴾

لقد قسم الله تعالي الأرزاق على نحو قد يبدو فى تقديرنا غريباً .. ولكنه فى نفس الوقت عادل .. وهو من الاسرار التى استأثرت بعلمه المشيئة العليا .

وهنا سؤال :

هل حدث يوماً أن واحدا من المشركين المعاندين .. وجد فى قلبه قدراً من الشجاعة الأدبية .. يسمح له أن يتقدم فيشرك عبداً له فى ماله ؟!

هل يقبل أن يقاسمه ثروة جمعها بجهد مبذول .. وعرق مسفوح ؟!

هل حدث يوماً أن أطل واحد من هؤلاء المشركين بالله من شرفته العالية . ثم نادى هذا الطفل اليتيم المنزوى هناك « بين سبرات البرد » ليتعد معه على الفراش فراراً من هبة الرياح ووحشة الطريق ؟!!

لم يحدث شئ من هذا .. فلا يليق فى منطق مشرك إقطاعى أن يستوى عبد وسيد ! أن يستوى مالك وأجير .

وإذن .. وإذا كان الأمر كذلك .. فلماذا نؤمن ببعض الحق ونكفر ببعضه ؟

لماذا نشرك بالله مالم ينزل به سلطانا فى الوقت الذى نسوق فيه نعمته هو قرباناً لغيره ؟!

رزقك المال .. فذبحته قرابين بين يدى الأصنام .. ووهبك الولد فكان امتدادا لظلمك وعنتك .. وأنعم عليك بلسان وشفتين ترطبهما بذكر الله فدنستهما بذكر أوهام اسمها : العزى ومناة !

إن منطق الفطـرة السليمـة يأبى هذا الجحود الصارخ لنعم الله تعالى ..

أيستأمنـك إنسان علـى حديقـة باسقة النخيـل .. طيبـة الثمـار .. لتتعهدها بالرى .. ثم إذا بك عند الحصاد تحمل ثمارها إلـى رجل آخر ؟

ما أنت إلا مجحف فى القسمة !!

ما أنت إلا واحد من الذين يصنعون على أعينهم منظار أسود يخفى عنه حقائق الأشياء كما هى .. فى الواقع ..

وينبغى تنحية هذا المنظار لترى آية الله فى نفسك .. ونعمته عليك .. ثم تقارن أخيرا بين قدرة خالق هو أحق بالولاء والعبادة .. ومخلوق ضعيف لا يمـلـك لـك رزقـا : ﴿ والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ورزقكم من الطيبات أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله هم يكفرون ﴾ .

(ويعبدون من دون الله ما لا يملك لهم رزقا من السماوات والأرض شيئا ولا يستطيعون).

« فلا تضربوا الله الأمثال إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون » .

أيها الصائم:

إلى أين تسير؟

تحديد الغاية من عبادة ما .. منهاج راشد لمسناه فى القرآن الكريم .. فالزكاة مثلا غايتها الطهر :

«خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها» .

والصلاة «تنهى عن الفحشاء والمنكر» .

وغاية الصوم كما حددها القرآن الكريم هى التقوى :

«يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون »

وكشف النقاب عن غاية العبادة أمر محمود العقبى .. من شأنه ألا يبعثر جهود الإنسان سدى .. يسير هكذا عرضا على غير طريق .. يشرق مرة ويغرب أخرى .. وأخيرا يكبو به جواده .. ثم يكون كالمنبت : لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى .. غير أننا نقف قليلا أمام كلمة الترجى «لعل» فى قوله تعالى «لعلكم تتقون» إنها تشير إلى خطورة رحلة الصيام .. وكيف تكثر العقبات فى طرقها .. فليس هو فقط عملية يجوع فيها المسلم ساعات ويعطش .. ثم يظفر بالتقوى بعد هذا الجهد المحدود كثمرة تلقائية .. كلا .. ولنحاول أن نصل إلى مفهوم التقوى من واقع القرآن الكريم : «وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين :

﴿ الذين ينفقون فى السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس

والله يحب المحسنين . والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون ﴾

إن التقوى إذن .. كما تشير الآية الكريمة :

بذل فى المنشط والمكره .. واستعلاء على نزعة البخل المتحكمة .. وتسامح ينأى بالانسان عن مضاعفات الغضب ..

ومحاولة مجدية للتخلص من أوزار الماضى.. ليبنى المرء على أنقاض هذا الماضى غدا واعدا .

ولو كان الجوع – وحده – يسوق إلى كل هذه الفضائل مجتمعة فى أسهل الرحلة إذن !

ولكن الصيام تخلية تتبعها تحلية :

إنه خطان متوازيان : جوع .. يضاف إليه إحساس الصائم بمسئوليته كفرد .. فيسهم بماله أوجهده فى سبيل المجموع .. ثم اتجاه إلى الله كلما نزغ من الشيطان نزغ اتجاها إيجابيا يكون بداية لشوط آخر صالح ..

ولما كان الجوع لا يصلح أن يكون غاية لذاته .. كان بعض الصائمين كالذى يصل صيام الليل بصيام النهار منحرفا عن ، سواء السبيل ..

وليت شعرى .. إن وقوع كثير من المعارك التى غيرت مجرى التاريخ فى رمضان بالذات لآية بينة على أنه شهر القوة :

قوة النفس بالفضيلة .. الفضيلة التى تنبت فى نفس ارتفعت فوق

مستوى الهوى.

والمؤمن القوى خير وأحب إى الله من المؤمن الضعيف .. ولعمرى إن رمضان لبعيد إلى أذهاننا ذكريات غاليات للمدينة فى عهودها الأولى..

يوم أن كان الأسلام فيها سيدا يصوغ الحياة .. ويبشر بالحضارة .. لقد كانت هناك أخوة .. فكفاح مشترك .. فدولة ذات سيادة تأخذ مكانها المرموق تحت الشمس .

وفى ضوء هذه الصورة المشرقة يجب أن نخوض تجربة الصيام : ليكون لنا بتوفيق الله لقاء مع كل هذه الفضائل التى ألمعنا إليها .. والتى يحتويها مفهوم التقوى .

وفى تربة من هذه الفضائل ستنبت خصائص أخرى للجماعة الإسلامية تطل بنا على آفاق أوسع تليق بناكأمة رائدة شاهدة على الناس :

سيشع منا نور عبر الحياة يكشف الطريق :

﴿ إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا ﴾

وفى ضوء هذا النور ..نتعلم ونعلم الحياة من حولنا :

﴿ واتقوا الله ويعلملكم الله ﴾

والله من فوقنا .. يبارك خطانا .. وكفاحنا ضد غاصبينا :

﴿ إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ﴾



محاسبة النفس

﴿ ياأيهاالذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون . ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون ﴾ .

﴿ لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون ﴾

﴿ لو أنزلنا هذا لقرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون ﴾ .

هناك ألوان شتى من الغايات تتوزع جهود البشر : من النساء والبنين والقناطر المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث .

وحبس مشاعر الإنسان وخواطره على نعم كهذه بحيث لا يمتد منه البصر إلى مآله وغده عمل غير صالح . وغفلة يآباها الإيمان

لأن الإيمان ينبغي أن يكون دافعا قويا .. وأعصابا تحرك إلى غاية عليا تتخطى كل هذه الأهداف جمعيا ..

والآية الكريمة تلفت الأنظار إلى الطريق السوى الذى يوصل إلى هذه الغاية :

[يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد]

إن المال والولد والجنس .. كل أولئك كنت عنه مسئولا .. وإذن .. فإعداد الجواب عن مالك وولدك :فيم أنفقته .. وعلام ربيته يجب أن يكون شغلك الشاغل .

وإعداد الجواب هذا يتأتى بفتح البصر على طريق يمتدبك إلى مجهول لا تدرى ما الله صانع فيه ..

فماذا أعددت لهذا الغد .. بلما مدى شعورك به ؟

إن مناعم الحياة ومباهجها من مال وولد وجنس يجب ألا تكون غايات لذاتها تنسيك الاستعداد للقائه ..

وقوة الشباب ونضارته ينبغى ألا تميت فى قلبك الشعور بأنه آت لا ريب فيه ..

إذا كان فى موت الحياة مرارة ... فموت شعور المرء حيا هو المر !

إنه «غد» أعنى بينك وبينه ليله .. وقد تصبح جثة هامدة ، وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب ».

فاتقوا الله مرتين :

اتقوه سبحانه ؤتعالى مها جرين فى سبيله .. مجتمعين على طاعته . واتقوه ثانيا ولتكن هذه الهجرة خالصة وليكن هذا الاجتماع صافيا بعيدا عن الغرض .

إن تقديم العمل ليكون مقبولا شكلا فقط بينما يقف من ورائه قلب مشدود إلى الدينا : يتصدق للقب ويتزوج للنشب .. كل هذا لا يعفى الإنسان من تبعات عمل قدمه إلى الله ناقصا .. من «عبادة» قدمها إلى الله «عادة»!

ولكى تكون العادة عبادة لابد فيها من النيه .. فاعقدوا العزم عليها واعبدا الله كأنك تراه .. فإن لم تتوفر لك هذه الدرجة .. فاعبده كأنه يراك ..

إن الله خبير بما تعملون»

وإيمانكم بعلمه المحيط يسيريكم إلى التقوى حتما .. ويدفعكم إليها أيضا نظرة منكم واعية :

نظرة إلى مصارع الغابرين .. الذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم » الذين نسوا الله فلم يذكروه .. فأنساهم الله أنفسهم .. وبالتالى نسوا غيرهم !!

ذلك بأن من فقد الإحساس بوجوده هو .. كيف يحس بوجود الآخرين ؟

وكيف يشد بعضه بعضا .. بينما ضاع كل فرد فى دوامة من شهواته ولذاته ؟!

وكيف يتداعى سائره بالحمى والسهر فى وقت تقطعت فيه الاسلاك .. ونسفت الجسور .. وهناك .. وبين كل عضو وآخر هوة سحيقة مالها من قرار ؟!

مجتمع كهذا «فاسق» عن المستوى الانسانى اللائق للمجتمع فى تصور الاسلام ..

وأفراد كهؤلاء الضعاف الهمازيل «أولئك هم الفاسقون» عن مستوى التفكير السوى المستنير !

فلا تكونوا أيها المؤمنون – مثلهم .. فتهونوا .. واعتصموا بالتقوى تكرموا .. «إن أكرمكم عند الله أتقاكم» وهل يستوى الظل والحرور .. أم هل

تستوى الظلمات والنور ؟ «لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون » وإذا كان الفائز هو صاحب الجنة ومالكها كما تشير الآية الكريمة .. فمن هو الخاسر إذن ؟

إنه طبعا صاحب النار وربيبها !

والسؤال الآن :

كيف لم يشر السياق القرآنى إلى هذا «الخسران» لنتيجة حتمية لهذا المسلك المعوج ؟

إن من تمام نسيان الله لهم .. أن طوى فى السياق ذكر مصيرهم هذا .. ليكون الجزاء من جنس العمل .. وكما تدرين تدان !

وثانيا : تنصيص على أن من هذا مسلكه جدير أن يهمل ولايذكر وكيف يكون فى حساب أحد من كذب بالدين وجعل القرآن عضين ..

كيف يكون فى خيال أحد رجل لم يؤمن بحقائق الكون والحياة كما قررها القرآن .. وفى نفس الوقت كان الحجر الصامت على استعداد تام للإيمان بها ؟

«لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون» يتفكرون فيدركون الحقائق .. ثم يعود بهم الفكر الطليق عودة سريعة إلى أن يكونوا هناك حيث أمرهم الله تعالى :

ليتفتح فيهم الوعى .. ولتصغ منهم الإذن لتلتقط مرة أخرى نداء

عبقريا :ولينظر نفس ما قدمت لغد واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون »

إنه تحويل النظر من الأمس إلى اليوم .. ومن اليوم إلى الغد .. من الأرض إلى السماء ..

من شهوة النفس ومتعة الحياة .. إلى خالق هذه النفس .. وواهب هذه الحياة :

قتلت هوى نفسى فعشت بلا نفس .·. وجا فيت أنسى فانحدرت إلى الأنس

وما اتخذت روحى سوى الله غاية .·. فتم الهدى للروح والقلب والحس

وإن رفع المثرون عجبا رءوسهم .·. رفعت بذكر الله فوق الورى رأسى

وتوجت بالقرآن نفس عقيدة .·. أصون بها نفسى عن الزيغ والدرس

وإن شرب الناس الطلا وتصببوا .·. فسنة خير الخلق فى شربها كأسى

ولم أعشق الدنيا فتلك مجازة .·. تهيئى للأخرى وفى قوتها عرسى

إذا رضى الرحمن عن قلب عبده .·. جرت مركب الأقدار معه على اليبس

هكذا يتعامل الصحاب

فى ضمير الحياة قصة تذكرها ولا تتساها :

الليل يرخى سدوله .. والوجود يرقد فى أحضانه ساكنا .. فلا تسمع غير صفير الرياح يملأ رحبات الجزيرة العربية ..

وليس هناك من كائن يدب على الأرض .. اللهم إلا رجلين يعبران الطريق وعلى لسانها سؤال كبير :

لم غاب الرسول ﷺ فلم نره زمنا ؟

لم يحتجب البدر هكذا .. فيترك الصحاب فى أطواء الوحشة حيارى؟

ويتقدم أبو بكر ومن ورائه عمر .. فيطرقان باب الرسول فى حذر وإشفاق . ويفتح الباب ليرى الصاحبان منظرا عجبا :

الرسول ﷺ يجلس صامتا .. وغلالة رقيقة من الاسى ترف على وجه لم يبد للناس إلا ضاحكا .. ومن حوله نساؤه أيضا صامتات عابسات !؟

ويتساءل الصاحبان عن سر الموقف فلا يجدان إلا الصمت !

ويتقدم عمر الشجاع ليقولها كلمة للرسول الكريم لعلها تكون مفتاح الموقف :

لأكلمن النبى ﷺ لعله يضحك ..

فقال عمر رضى الله عنه يارسول الله :

لو رأيت ابنه زيد (امرأة عمر) .. سألتنى النفقة آنفا فوجأت عنقها !

فضحك النبى ﷺ حتى بدان جذاه وقال :

هن حولى يسألننى النفقة !

فقام أبو بكر رضى الله عنه إلى عائشة ليضربها .. وقام عمر رضى الله عنه إلى حفصة كلاهما يقول : تسألان النبى ﷺ ما ليس عنده ؟!

فنها هما رسول الله عليه الصلاة والسلام عن الضرب فقالت نسؤه كلهن :

والله لا نسأل رسول ﷺ بعد هذ المجلس ماليس عنده فنزل قوله عز وجل :

﴿ يا أيها النبى قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحا جميلا وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجرا عظيما ﴾

لقد رفع كلا الصاحبين يده ليضرب ابنته غاضبا عاتبا :

إذ كيف تسمح إمراة لنفسها وهى تعيش مكرمة فى ظلال النبى الكريم أن تمد عينيها إلى : زهرة الحياة الدنيا ؟

ويتدخل الرسول الكريم لمنع الأذى ليوقف عملية الضغط حتى لا يكون هناك انفجار :

لأن المرأة من حيث هى أنثى . عندما تطلب ذلك لا تستعير طبيعة دخيلة عليها .

وإنما هى تبذل فطرتها الأصيلة !

ولكن إذا وصل الأمر إلى أن يتغلب مطلب النفس على حق الجماعة .. وأن تواجه الآثرة الإيثار .. إذا وصل الأمر إلى أن يتحدى التعلق بالمنفعة

الذاتية عوامل الخير العام .. فلابد من حل حاسم يعيد الحق إلى نصابه .. بعيدا عن الكبت والانفجار !

ويجئ الآية الكريمة لتخير نساء النبى بين لونين للحياة . كاشفة عن طبيعة الدور الهائل الذى ينبغى أن يتحملنه – لو أردن – مع الرسول الكريم :

إن محمدا عليه الصلاة والسلام زاهد .. وهو فى زهدة قمة عليا لأنه لم يكن يصدر فيه عن فراغ أو حرمان ..

فلو شاء أن يتعلب فى أعطاف النعيم لفعل !

بيد أنه قائد شحته مواهبه العليا ليحمل فوق كاهله آمال الأنسانية والمها فى هذه الحياة .. ويخطوبها على الطريق .. إلى أمام ..

إن غايته الروح بفضائها .. وليست غايته فقط ملء البطون .. ولقد حاول الشرك أن يسوق إليه عوامل الاغراء من مال وسلطان فى محاولة يكف بعدها عن هتافه بالتوحيد ..

ولكن إرادته كانت سورا عاليا عاليا .. فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبا .

وإزاء هذا .. فإن المرأة التى شرفها الله تعالى أن تعيش فى ظل رجل كهذا يسعى إلى غاية كتلك .. هذه المرأة عليها أن تختار لنفسها واحدا من طريقين :

إما التسريح بإحسان .. وبلا ضرر .. وفاء بحق المعاشرة أياما وليالى

.. ورعاية لذكريات عزاز يطويها الماضى ..

وإما أن تجدد النظر مرة أخرى إلى مفهوم هذه الحياة الدنيا .. لتعلم أنها جواز المرور إلى أخرى هى الحيوان .. الأمر الذى يتطلب مزيدا من الصبر والتحمل .. مع الرجل الذى يقود الحياة إلى مستقبل أفضل ..

وحتى تبدو أمهات المؤمنين كنماذج سليمة صحيحة .. تتعلق بها أبصار النساء فتستقيم بها الخطى..

ولقد كان الرسول الكريم حكيما عندما عالج المشكلة على هذا النحو الهادف السمح .. فتجاوب بحق مع الفطرة الأنسانية ولم يواجهها بعنف .. هذا المعنى الذى تؤكده الآية الكريمة :

فالله سبحانه وتعالى لم يقل مثلا :

إن كنتن تردن الحياة الدنيا فالويل لكن !

أبدا وإنما الأمر هكذا :

من الممكن تحقيق الرغبة شريطة أن تخلعن الشارة .. وتتخلين عن مركز القيادة كأمهات للمؤمنين !

هذا المركز الذى يحتم ألوانا من المتاعب والمصاعب لا يتحملها إلا أولات العزم من النساء !!

وأفقن من غفوتهن واخترن الله ورسوله والدار الآخرة .

ولكن الله تعالى يلقنهن درسا لا ينسى:

إن الثوب الأبيض يجسم النكتة السوداء .. وإن معصية توجه إلي الرسول لهي مضاعفة العذاب :

فليس من العدل أن يكون الاعتداء على رجل على هامش الحياة سواء والاعتداء على رسول يتحمل أعباء ملايين البشر !

وإذن «فمن يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين» وليكون الغنم بالعزم فإن «من يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحا نؤتها أجرها مرتين » .

ومركز كن القيادى يحتم اتخاذ التقوى لكن شعارا «فلا تخضعن بالقول فيطمع الذى فى قلبه مرض وقلن قولا معروفا » وإنها للفتة كريمة .. تؤكد أن المرأة هى المرأة .. أى هكذا خلقت : ومهما كانت قداستها فإن إثارتها للفتنة النائمة بترقيق الصوت يحرض على ارتكاب الجريمة ولو كانت المرأة هذه زوجة الرسول نفسه ! وفى أى عهد يوجه هذا التحذير .. ولمن ؟

فى أكرم عهد عرفته الحياة .. ،لأطهر زوجات سعين فوق دروبها .. إنه النذير العريان ياقوم ! .. وإنها لتذكرة .. فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا :

«فإذا كان الله تعالى قد أمرهن هذا الأمر وهن أمهات المؤمنين وزوجات سيد المرسلين . وهن المحسنات المؤمنات . العابدات القانتات . الصالحات الحافظات . فغيرهن من سائر النساء أولى أن يخشى عليهن ومنهن لوخرجن ومشين فى الطرقات على أعين الناس ..

وفيهم العصاة الفجرة . والمجرمون الفسقة .

هذا صريح القرآن قد خالفناه ، وتركناه وهجرناه[1]

وهذه صيحة رشيدة تواجه اختلاطا سموه هادفا .. وما رأيناه الاهادما .. وإذا كان الحذر من يقظة الفتنة النائمة قد بلغ أوجه فى عهد محمد الرسول .. وأبى بكر .. وعمر وخالد ..

فنحن إذن فى حاجة إلى ملايين الأضعاف من الحذر فى عهود خلت من رواء الحق وشهداء الحقيقة .. فى عهود مشت فيها الفتنة صارخة على قارعة الطريق تقول:

هيت لك !!

فى عصور تسمع الأذان هنا وهناك .. وعواء الذئات تتنادى بـ لأنه .. من خلفاء .. جميس دين !!

إن الأمر يتطلب تدخل السلطان .. فالله يزع به ما لا يزع بالقرآن ولنضع هذه الآية الكريمة كمبدا يأخذ مكانه فى كل دستور يحكم الناس

لتكن قانونا لكل امرأة فى كل زمن .. مشفوعة بهذا النداء الخالد :

«وقرن فى بيوتكن .. كالبيض المكنون .

وإذا كان ولابد من الخروج سعيا على أولاد .. أو تمريضا لحرجى فلا

---

[1] «تفسير سورة الأحزاب للموحوم الشيخ عبد الفتاح خليفه .

بأس ولكن .. لا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى »

ولتكن المرأة المسلمة عند إرادة السماء لها .. ووراء الغاية التى رسمتها :

«إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا ».

فلتبدأ حملة التطهير من الداخل .. من القلب :

فاكتحال العيون أيسر شئ　　　واكتمال القلوب صعب المنال!

تحية إلى ليبيا

فى عيد استقلالها

«ونريد أن نمن علي الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين . ونمكن لهم فى الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون »

يومنا هذا لذى نعيش فيه عيد سعيد ومجيد .. عيد لا نجد د فيه ملابسنا وأغطيتنا . ولكنا نجدد فيه عواطفنا وأفكارنا .. نجدد فيه معانى كريمة فى الكفاح والبطولة غيرت مجرى الحياة .

والأعياد فى تاريخ الأمم واحات ظليلة وجميلة .. نعيش فيها فنستروح نسيمها مستشعرين ماضينا بآلامه وآماله .

وفى ساحة التاريخ تلتقى أرواح وتتناجى قلوب :

تلتقى أرواحنا مع أرواح الذين سبقونا بالايمان بعد أن سالت دماؤهم فوق الثرى الطيب تخط مصير الوطن .. وتحدد وجهة المسير .. وتتناجى قلوبنا معهم فى عيدنا وعيدهم فتطفو على صفحة الذكرى صورتهم يوم أن عبروا إلى الضفة الأخرى من الحياة مخلفين على الأرض آثار أقدام .. تاركين بصمات أصابعهم فوق صفحات الأيام !

استغفر الله ! .. أقول غاب شهداؤنا فى واحة العدم ؟ أبدا «ولا تحسين الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون . فرحين بما آتارهم الله من فضله ويشتبشرون بالذين لم يلحقوابهم من

خلفهم ألا خوف عليهم ولاهم يحزنون »

ولئن غابت أجسامهم فى هذا العيد الذى صنعوه فلم تزل أرواحهم لهبا يصهر العوائق ويكتسح المؤامرات .. ونورا يكشف مجاهل الطريق .. تماما كالشمس : إنها تغيب خلف أستار الغيب بعد رحلة اليوم .. ولكن الأقمار من بعدها تستمد منها الضياء!

والقلب البصير المتفتح عندما يعبر السنين فى رحلة إلى الماضى متأملا . سيعود حتما بمشاعر جديدة وأفكار جديدة .. ليصبح الأنسان بعدها أكثر إدراكا للمستقبل .. وأكبر استعداد لمواجهة أخطاره .. واليوم .. وفى ذكرى استقلال ليبيا العزيزة نعود بقلوبنا إلى ماضيها القريب :

وكأننى أرمق الآن جحافل هذا الشعب العربى يوم انطلقت فى كل فج .. ورابطت على كل ثغر .. وأسرح بخاطرى لاتابع مراحل كفاح هذا الشعب .. هذه المراحل التى اسهمت فى صنع هذا النصر المبين على الاستعمار الإيطالى الباغى .

لقد حاول الاستعمار أن يجبر الشعب يوما على أن يسمى استغلاله تعاونا .. ولكنه كشف النية .. وأحس بالغدر المبيت .. وأبدا ماطأطألهم رأسا .. وما أحنى لهم هامة .. لقد كابر طغيان الاستعمار وحطم شباكه وفى عروقه تسرى عزة الإيمان ..

نعم .. كانت هناك مخاطر .. وكانت هناك آلام .. ولكن المخاطر تهون والآلام تحتمل فى سبيل تحرير الأوطان وهى كما يقول الرافعى : «إن أسلمت - البطل إلى الموت أسلمته رجلا لا يعرف الموت : ماهو ! وإن أبقت

على الحياة فيه أبقت عليها فى رجل عرفت الحياة من هو !!

أما الشكوى فليس لها فى قلوب الاحرار مكان :

ياعدوى :

لست أشكو منك .. فالشكوى عذاب الأبرياء

وهى قيد ترسف العزة فيه والإباء ..

أنا لا أشكو .. ففى الشكوى انحناء..

وأنا نبض عرو فى كبرياء .. !

وأهون شئ على نفس المؤمن الحر نفسه يقدمها قربانا لوطنه .. ولايمكّن لغاصب أن يمرح فى رحابه . ولا يبسط يده أبدا ليد مخضبة بدماء أبنائه :

«لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون م حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه . ويدخلهم جنات تجرى من تحتها خالدين فيها . رضى الله عنهم ورضواعنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون » .

وقد مر كفاح الشعب البطل بألوان من المشكلات والأخطار .. ولكن ضراوة الأخطار لم تزد النار إلا اشتعالا :

وقائل : كيف أنت فى المحن ؟ فقلت : إلفان نحن من زمن !

تألبى ياخطوب واحتدمى عودى – كما تعهدين – لم يلن

من كان الهموم يصهره فإن حر الهموم يصقلنى !

ولقد ظن المستعمر يوما أن الشعب العربى فى ليبيا قد صمت وسكن وانغزل ؟ فارتسمت على وجهه بسمة الرضا والتفاؤل ..

بيد أن البسمة قدا ستتكت إلى الله غربه الوطن .. أمام أحلامهم تحطمها الحقائق :

فهرس الموضوعات